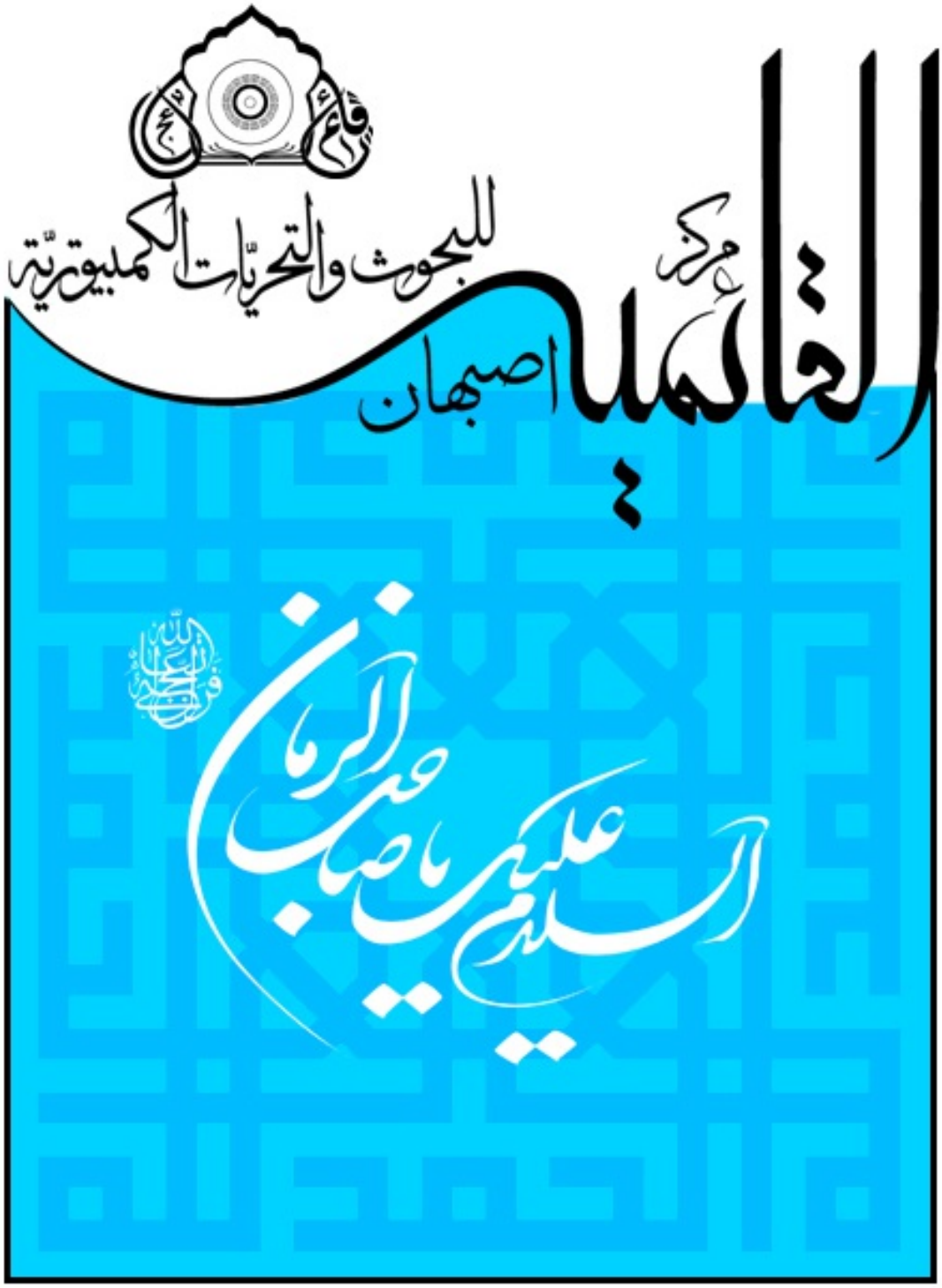

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

السيد علي صدر الدين المدني

رحلة
ابن معصوم المدني
أو سلوة الغريب وأسوة الأديب

تحقيق:

شاكر هادي شكر

الدار العربية للموسوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

رحلة ابن معصوم المدنى

كاتب:

على خان بن احمد المدنى الشيرازى الحسينى

نشرت فى الطباعة:

الدار العربية للموسوعات

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
رحلة ابن معصوم المدنی ----- ۶
اشارة ----- ۶
[مقدمة المحقق] ----- ۶
ترجمة المؤلف فی سطور ----- ۶
التعریف بالمخطوطات المعتمدة فی التحقیق ----- ۷
المنهج الذی سلکته فی التحقیق ----- ۸
مقدّمة المؤلف ----- ۹
«سلوة الغریب و أسوة الأریب» ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
و من ألغازه التی نظمها بالهند سائلا نحاتها قوله: ----- ۷۹
ذکر نسب المولی المذکور ----- ۸۹
مراجع التحقیق ----- ۱۴۵
فهرس الکتاب ----- ۱۵۲
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۱۵۳

رحلة ابن معصوم المدنی

اشارة

نام کتاب: رحلة ابن معصوم المدنی

نویسنده: مدنی، علی خان بن احمد

تاریخ وفات مؤلف: ۱۱۲۰ ه. ق

محقق / مصحح: شکر، شاکر هادی

موضوع: سفرنامه

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

ناشر: الدار العربیة للموسوعات

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۲۶ ه. ق

[مقدمة المحقق]

ترجمة المؤلف فی سطور

- هو السید علی صدر الدین بن الأمیر أحمد نظام الدین بن محمد معصوم المدنی. یتصل نسبه بزید الشهید بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب (ع).

- ولد بالمدینة المنورة لیلة السبت الخامس عشر من جمادی الأولی سنة ۱۰۵۲ ه. و أمّه کریمة العلّامة الشیخ أحمد المنوفی إمام الشافعیة فی الحجاز.

- هاجر إلی الهند سنة ۱۰۶۶ ه بطلب من والده الذی کان یشغل وظیفة نائب السلطنة فی حیدر آباد أیام السلطان عبد اللّه قطب شاه.

- بوفاة السلطان المذکور تغلّب أحد الوزراء علی الملک، و فرض علی المؤلف و علی أبیه الإقامة الجبریة، و مات الأب فی الحجر سنة ۱۰۸۶ ه، و عندئذ شعر الابن بمؤامرة تدبّر لقتله فهرب إلی برهان بور ملتحقا بالسلطان محمد أورنک زیب شاه.

- ضعف السلطان المذکور لتقدّمه بالسن، و أصبحت أخلاقه لا تطاق، فوجد المؤلف نفسه غیر قادر علی القیام بواجبات وظیفته- رئاسة الدیوان فی البلاط- فسعی جاهدا للعودة إلی الحجاز، و بعد لأی تمکّن من استحصال الإذن بالسفر بحجة أداء فریضة الحج. فسافر هو و عائلته سنة ۱۱۱۴ ه.

رحلة ابن معصوم المدنی، ص: ۶

- وصل إلی مکة المکرمة- و هو ینوی الإقامة فی الحجاز- و لما حلّ الموسم أدّی فریضة الحج، ثم قصد المدینة لزیارة قبر النبی علیه أفضل الصلاة و السلام، و تحرّی الوضع فی المدینتین المذکورتین فوجد کل شیء فیهما قد تغیر و لا یکاد یعرف أحدا من الناس بعد غیاب دام (۴۸) سنة.

- و اصل سفره إلی العراق، و زار البصرة و النجف و کربلاء و بغداد، و درس الحالة عن کثب فلم یجد فی العراق آنذاک الجوّ الملائم للتألیف و التدریس اللّذین نذر لهما ما بقی من أیام حیاته، فقرر مواصلة السفر إلی إیران.

- دخل البلاد الإيرانية و زار أمّهات المدن مثل خراسان، و قم و أصفهان- العاصمة- و كان يودّ الإقامة فيها، غير أنه وجد الأمور مضطربة على السلطان حسين الصفوى فواصل سفره إلى شيراز و هى آنذاك عامرة بالعلم و العلماء، فألقى بها عصا الترحال، و اتخذ المدرسة المنصورية مقرّا لعمله فى التدريس و التأليف.

- توفى بشيراز سنة ۱۱۲۰ ه على أصح الأقوال، و لم يرم القلم من يده إلّا قبيل وفاته ببضع ساعات، و دفن بحرم السيد أحمد بن الإمام موسى بن جعفر الملقب بشاه جراغ.

- له مؤلفات عديدة، المعروف منها:

(۱) كتابه هذا- سلوة الغريب و أسوة الأريب.

(۲) سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر- مطبوع.

(۳) أنوار الربيع فى أنواع البديع طبع مرتين، و الثانية بتحقيقى.

(۴) الدرجات الرفيعة- طبع جزء واحد منه-.

(۵) رياض السالكين فى شرح الصحيفة السجادية- طبع على الحجر مرتين-.

(۶) الحدائق النديّة فى شرح الصمدية للشيخ البهائى الحارثى فى النحو- مطبوع على الحجر أكثر من مرة-.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۷

(۷) شرحان على الصمدية أيضا- متوسط و كبير-.

(۸) الكلم الطيّب و الغيث الصيّب فى الأدعية المأثورة.

(۹) موضع الرشاد فى شرح الإرشاد فى النحو.

(۱۰) المخلاة فى المحاضرات.

(۱۱) الزهرة فى النحو.

(۱۲) ملحقات سلافة العصر.

(۱۳) الطراز فى اللغة.

(۱۴) رسالة فى أغلاط الفيروز أبادى فى القاموس.

(۱۵) التذكرة فى الفوائد النادرة.

(۱۶) رسالة فى المسلسلة بالآباء شرح فيها الأحاديث الخمسة المسلسلة بآبائه.

(۱۷) نفثة المصدور.

(۱۸) محك القريض.

(۱۹) نغمة الأغان فى عشرة الأخوان و هى أرجوزة تقارب السبعمائة بيت، وجدتها فى بعض المخطوطات ملحقة بديوان شعره.

(۲۰) ديوان شعره و هو كبير يضم بين دفتيه حوالى خمسة آلاف بيت، و قد فرغت من تحقيقه، و سيطبع إن شاء اللّه فى أقرب فرصة ممكنة.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۹

التعريف بالمخطوطات المعتمدة فى التحقيق

وقفت على ثلاث نسخ مخطوطة من الكتاب، اثنتان منها فى مكتبة مديرية الآثار العامة ببغداد:

الأولى: مسجلة برقم ۹۶۳۶ و هى من كتب المرحوم الأستاذ عباس العزاوى المحامى، خطّها نسخى غاية فى الجودة، و لكنها غير

مضبوطة و كثيرة التصحيف و الأخطاء الإملائية. جاء فى آخرها (وافق الفراغ منه نهار الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان المبارك سنة ۱۰۷۵ ه على يد أقل عباد اللّه و أحوجهم إلى مغفرته و رحمته، الفقير جلال الدين بن الشريف حسن النجفى العباسى الشهيرين أهله بآل ظفر).

يستفاد من هذا التاريخ أن هذه المخطوطة كتبت فى الهند بعد الفراغ من تأليف الكتاب بثلاثة أشهر، و أنها أقدم النسخ، و لكنها على كل حال ليست نسخة المؤلف بدليل أنها محشوة بالتصحيفات و الأخطاء.

الثانية: مسجلة برقم ۱۴۶۲۰ و هى من كتب الأستاذ السيد صادق كمونه المحامى. خطها نسخى متوسط الجودة، خالية من الضبط، و هى بالإضافة إلى ما فيها من تصحيفات و أخطاء لا تخلو من تصرف فى بعض الجمل يوحى أنه من عمل النسّاخ و قد أشرت إلى ذلك فى مواضعه من الكتاب. كتابتها حديثة جاء فى آخرها (كان الفراغ من تسويد هذه النسخة ضحى يوم السبت السابع عشر من جمادى الثانية سنة ألف و اثنتين و مائة حامدا مصليا مسلما مستغفرا). ثم يأتى بعد ذلك ما نصه (و قد كتبها لنفسه محمد بن الشيخ طاهر السماوى النجفى على نسخة كتبها على بن ابراهيم الدرازى أصلا،

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۰

و الشاخورى مسكنا. و ظنّى بهذا التاريخ المتقدم فى حياة المصنف. و نسخته كثيرة التصحيف و الغلط، فصحح الضعيف ما أمكنه، و كان كتبها فى النجف على استعجال، و فرغ منها ليلة الاثنين لثمان بقين من ذى الحجة من شهور سنة خمس و ستين و ثلاثمائة و ألف حامدا مصليا داعيا إلى اللّه تعالى أن ينفع بها أنه على كل شىء قدير، و له الحمد و الشكر فى البدء و الختام).

أما النسخة الثالثة: فهى فى مكتبة مديرية الأوقاف العامة ببغداد و مسجلة لديها برقم ۱۲۳۱۷. خطّها نسخى لا بأس به، خالية من الضبط و هى كسابقتيها من ناحية التصحيف و الأغلاط. جاء فى آخرها ما نصه (وقع الفراغ من نسخ هذه الرحلة على يد كاتبها المفتقر إلى عفو ربه الجليل عبد اللّه بن عيسى بن اسماعيل، الشهير بالعباسى، غفر اللّه له الزلل، و ستر له الخلل، و وفقه لصالح العمل، هو و والديه و إخوانه و محبيه فى اللّه و سائر المسلمين، فى اليوم الخامس عشر من ذى الحجة الحرام من شهور سنة إحدى و ثلاثين بعد المائتين و الألف من هجرة من له العز و الشرف صلى اللّه عليه و على آله و أصحابه و أزواجه و ذرياته و سلم تسليما كثيرا، و الحمد للّه ربّ العالمين سبحانه و تعالى.

قابلتها و أصلحتها. و إلّا (كذا) فالمرجو من الاخوان المسامحة على ما فيها من التحريف، و أن يصلحها من هو أهل لذلك لتخلو من التصحيف. و اللّه سبحانه و تعالى يصفح عن الجميع بمنه و كرمه آمين).

و لما لم أوفّق إلى العثور على نسخة المؤلف أو نسخة مقروءة عليه، لم أشأ التوسع فى الحصول على نسخ أخرى لا يجنى المحقق منها غير التعجيز، و تضخيم الكتاب بكثرة الشروح لبيان ما فيها من تصحيفات و ما يوجد بينها من اختلافات، و مثل هذا العمل فى الواقع إحصائى أكثر منه أدبى، و يكفى المحقق أن يطمئن إلى سلامة النص، و يتثبت من صحة عمله.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۱

المنهج الذى سلكته فى التحقيق

اعتبرت النسخ الثلاثة التى مر ذكرها معتمدة فى التحقيق، الواحدة منها تكمل الأخرى، و جعلت للنسخة الأولى- نسخة العزاوى فضلا على النسختين الثانية و الثالثة لقدم كتابتها أولا، و لجمال خطها و سهولة قراءته ثانيا.

- فإذا وجدت تصحيفا أو خطأ فى إحداهن، و كان الوارد فى الأخرى صحيحا أخذت بالصحيح دون أن أشير إلى ذلك فى الهامش تجنبا للإطالة، فلو ذكرت كل تصحيف أو خطأ وارد فى كل نسخة من النسخ الثلاث- و هى كثيرة جدّا- لطغت الهوامش على الكتاب دون أن يستفيد منها الباحث أو القارئ.

- إذا اختلفت النسخ فى الرواية و كانت الروايات كلها مقبولة أخذت بما فى نسخة العزاوى حتى و لو كان الذى فى سواها أرجح معنى و أقوى مبنى ثم أشير إلى ذلك فى الهامش.

- إذا كان الاختلاف فى نص منقول عن أحد المصادر، فإنى آخذ برواية النسخة التى تنطبق روايتها مع ذلك المصدر، ثم أنوّه عنه فى الهامش.

- أرجعت النصوص المنقولة إلى مصادرها- على قدر المستطاع- و أحلت عليها فى الهامش، و ذكرت فيه كل اختلاف وقفت عليه، و أهملت الأخطاء و التصحيفات الواردة فى تلك المصادر.

- عزوت- على قدر الإمكان- الأشعار التى لم ينسبها المؤلف، إلى أصحابها.

- اكتفيت بإيضاح أسماء الأعلام من الرجال و بذكر تواريخ و فياتهم، و أشرت إلى مصادر تراجمهم، و لأجل أن لا أطيل فى تعداد تلك المصادر فقد عوّلت فى الأعم الأغلب على (۱)- الأعلام للزركلى و (۲)- معجم المؤلفين لكحالة و (۳)- هوامش أنوار الربيع لابن معصوم، لأن فى هذه الكتب تراجم مختصرة تفى بالغرض، و فى عقب كل ترجمة قائمة بالمصادر التى ترجمت لذلك العلم.

- أهملت ذكر من لم أتوصل إلى معرفته.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۲

- عرّفت بالكتب و المواقع التى ورد ذكرها فى الكتاب إلّا ما تعذّر الوقوف عليه.

- لم أتوسّع فى شرح الغريب من اللغة.

- استعملت فى الهوامش الرموز الآتية:

(ع) مخطوطة الأستاذ عباس العزاوى التى انتقلت ملكيتها إلى مكتبة مديرية الآثار العامة ببغداد (مسجلة برقم ۹۶۳۶).

(ك) مخطوطة الأستاذ صادق كمونه التى انتقلت ملكيتها أيضا إلى مكتبة مديرية الآثار العامة ببغداد (مسجلة برقم ۱۴۶۲۰).

(أ) مخطوطة مكتبة مديرية الأوقاف العامة ببغداد (مسجلة برقم ۱۲۳۱۷).

(*) وضعت هذه الإشارة إلى جنب أسماء بعض الأعلام للدلالة على أنه قد سبق التعريف به.

و ختاما فإنى فى الوقت الذى أعترف فيه بقصورى عن أن أقدّم للقارئ الكريم عملا متكاملا يسعدنى أننى بذلت فى إخراج هذا الكتاب بهذا الشكل غاية جهدى خدمة لأمتى العظيمة و لغتها المقدسة، سائلا المولى جلّ و علا أن يتقبل أعمالنا التى حسنت فيها نياتنا «رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا، رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا، رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ».

المحقق

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۳

مقدّمة المؤلف

الحمد للّه الذى جعل الأرض مهادا، و سلك فيها سبلا، و أودعها من عجائب صنعه ما شاهدته أبصار أولى الأسفار قبلا . سبحانه ما أعجب ما قدّر فى أمور عباده، و ألطف ما دبّر فى أرضه و بلاده. أنفذ كيف شاء فى خلقه أحكامه، فقضى على هذا بشعث السفر، و على هذا بلمّ الإقامة، و الصلاة و السلام على نبيّه الذى بعثه بأشرف البقاع، و شرّف بمواطئ أقدامه الشريفة كثيرا من الفجاج و القاع، و جعل دينه المنيف مألفا لعباده بلا حيف، فأغناهم عن إيلافهم رحلة الشتاء و الصيف، و على آله و صحبه البررة الهادين الذين مهّدوا طرق الحق، و أوضحوا مناهج الدين.

و بعد، فيقول المفتقر إلى ربّه الغنى على صدر الدين بن أحمد نظام الدين الحسينى الحسنى، هداهما اللّه إلى سواء السبيل، و أنالهما

من جزيل ما ينيل: غير خاف إنّ شيمة الأيام و سخيمة صدور اللئام هما كمد نفس كلّ فاضل، و رمد جفون الأفاضل، فما من ذى فضل إلا منى بدهر عبوس، أو غمر ببنيه كؤوس الهمّ و البوس. ذاك ينصب له المصايد و هذا يجرّعه غصص المكايد، فقلّما انتدب ذو أدب لنيل أرب إلّا و أدركته حرفة الأدب، أو جدّ و احتشد لأمر برشد إلّا عاقة ذو حسد. بهذا جفّ القلم فيما ألمّ، و قضى القضا فيما مضى. و من هنا استولى النقص على الكمال، و استعلى على الرشد الضلال، و ركدت ريح الفضل و خوى طالعه و خبت مصابيح الأدب و دجت

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۴

مطالعه. حتى سئمت الفضائل أهلها، و حمد من الأراذل جهلها، فشكا كلّ أديب من دهره، و بكى كلّ أريب من رعاع عصره.

هذا زمان ليس فيهسوى النّذالة و الجهاله

لم يرق فيه صاعدإلّا و سلّمه النّذاله

ثم هذا ليس إشارة إلى هذا الزمن العديم، بل العلّة عاديّة، و البلاء قديم حتى قيل: ما فسد الناس، و إنّما اطّرد القياس، و لا اظلمّت الأيّام و إنّما امتدّ الظلام، و هل يفسد الشيء إلّا عن صلاح، و يمسى المرء إلّا عن إصباح، و قديما ما بثّت الأفاضل خطوب الدهر و نكوب الزمن، و نثت من أهوال أحوالها بخس الحظ و وكس الثمن، و كم جدّت بجدودها العواثر فى هذه الدنيا لنيل العلياء، فضربت شرقا و غربا، و أوغلت بعدا و قربا، فلم تحصل على طائل، و ما أشبه الأواخر بالأوائل.

و إذا السّعى لم يلاحظ بسعدفالتماس المنى من الحرمان

و هيهات مع شرف العلم عزّ المال، و مع حرفة الأدب بلوغ الآمال، و لا سيما من انتمى إلى بيت النبوّة، و ارتدى مع ذلك رداء صيت الفتوّة، فإنّ الدهر أشدّ حقدا عليه، و أسرع نهدا إليه.

نحن بنى المصطفى ذوو محنيجرعها فى الحياة كاظمنا

عجيبة فى الأنام محنتناأوّلنا مبتلى و خاتمنا

هذا و إنّى منذ كبر عن الطوق عمرى ، و ارتفع عن منافثة الأتراب عمرى، لم أزل أصابح و أماسى ما يهدّ أيسره الرواسى، و أكابد و أقاسى ما يليّن أهونه القواسى. أسوق من دهر قصصا، و أسيغ من غمر غصصا.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۵ كلّ يوم لى خصيم [ضالع]و المقادير لها حكم شطط

و إذا كشّفت ما يرمضنىمن مضيض الدّاء قال الحلم غط

و لقد منيت بكربة الغربة، و تشعّث الحال و عهد الصّبا مخيّم ما همّ بالارتحال، و بليت بورود منهل البين الأكدر، و باهر العمر مشرق أشرف على الكمال و ما أدبر. رمتنى مرامى النوى بجهدها، و أبدلتنى عن خير بلاد اللّه المشرّفه بأرض هندها، و ناهيك بأرض شاسعة نائية، و بلد أهلها كفرة طاغية، و ليس ذلك واللّه لطلب نائل، أو بلوغ وطر امتثلت له قول القائل:

و ارحل ركابك عن ربع ظمئت بهإلى الجناب الذى يهمى به المطر

كيف و قد علمت أنّ الحرمان من شيم الزمان، و ربّ عطب تحت طلب، و لكن قضاء حتم، و أمر لزم فأين المفر، و هيهات طلب المستقر.

لو أنصف الدهر دلّتنى غياهبهعلى العلى بضياء العقل و الحسب

ما ينفع المرء أحساب بلا جدةأليس ذا منتهى حظّى و ذاك أبى

و كنت بعد أن نزلت على حكم القدر فى تحمّل شقّة البين، و فارقت الأهل و الوطن فراق الجفن للعين، حريصا على أن لا يكون فعلى إلّا فعل امرئ جدّ فى طلب العلى جدّه.

و ما رأيه فى عسجد يستفيدهو لكنّه فى مفخر يستجدّه

و إن زعم قوم أنى على خلاف ذلك فالحسد يقحم مقتفيه أضلّ المسالك. رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۶ و قد سرّنى أنّى من المال مقترو لا الوجه مبذول و لا العرض منهوب

كما سرّنى أنّى من الفضل موسرعلى أنّه فضل من الرّزق محسوب

فجهدت على أن لا أظفر بنكتة طريفة إلّا نمّقتها، أو فائدة ظريفة إلّا علّقتها، أو شعر فائق إلّا كتبته، أو نثر رائق إلّا أثبّته، حافظا لذلك حفظ الجفن لمقلته، و الصدر لمهجته، و الشحيح لدرهمه، و الجريح لمرهمه. حتى كأنّى استدبرت وطنا و استقبلت وطرا، و سلوت عن قديم ما سلف بحديث ما طرا، فاجتمع لدىّ من نخب اللطائف ما رقّ وراق، و اقتطفته النواظر من ثمرات الأوراق، و انتخبته نتائج الأفكار، و جنحت إليه جنوح المفرخ إلى الأوكار، و تملّت به النفوس، و تحلّت به المهارق و الطروس.

ملح إذا ذكرت بناد خلتهمن نشرها البادى تضمّخ طيبا

و لكم بها قد قام ربّ فضيلةبين البريّة فى البلاد خطيبا

فأزمعت على أن أجمع ما وقع لى من ذلك رحلة تكون لأولى الألباب من ذوى الآداب نحلة، أثبت فيها ما وقفت عليه، و ما سأقف إن شاء اللّه تعالى جانحا إليه، إلى أن يمنّ اللّه سبحانه بالعود إلى الوطن، و الأوب إلى العطن، و أورد خلال ذلك من الطرائف المستظرفة، و الظرائف المستطرفة ما يروق النواظر، و يجلو صدأ الخواطر، و تقرّط به المسامع، و يطرب له الناظر و السامع. فإذ أشرق من أفق الكمال بدرها المنير، و تفتّق عن حجب الكمام زهرها النضير سمّيتها:

«سلوة الغريب و أسوة الأريب»

اشارة

ليطابق الاسم مسمّاه، و يوافق اللفظ معناه، و فيها أقول:

رحلتى المشتهاة تزرىبالرّوض عند الفتى الأريب

فإن تغرّبت فاصطحبهافإنّها سلوة الغريب

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۷

فها هى كالمنية قد أنجحت لراجيها، أو العروس قد أبرزت فى ناديها، فخذها بارك اللّه لك فيها.

مقدّمة: فيما جاء فى السفر و الاغتراب من نثر و نظم ذما و مدحا، و الناس متفاوتون فى التفضيل بين التغرب و الإقامة، فلنذكر من كلّ طرفا يعدّه الناظر طرفا.

أمّا ما جاء فى الذمّ فى ذلك فقد قال اللّه عزّ و جل وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ فقرن جلّ اسمه الخروج من الوطن بقتل النفس.

و روى عن سيّد البشر الشفيع المشفّع فى المحشر أنّه قال صلى اللّه عليه و آله و سلّم (السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه و طعامه، فإذا قضى أحدكم مهمّته من وجهه فليعجّل إلى أهله).

و قيل لبعضهم: إنّ السفر قطعة من العذاب، فقال: بل العذاب قطعة من السفر، و نظمه من قال:

كلّ العذاب قطعة من السّفريا ربّ فارددنى إلى ريف الحضر

و كان الحجاج بن يوسف يقول: لولا فرحة الإياب لما عذّبت أعدائى إلّا بالسفر و قيل: السفر، و السقم، و القتال، ثلاثة متقاربة. فالسفر سفينة الأذى، و السقم حريق الجسد، و القتال منبت المنايا.

و قال حكيم: فى السفر خصال مذمومة منها مفارقة الإنسان من يألفه.

و على ذلك لعلى بن موسى بن سعيد المغربى :

عجبت ممّن يبتغى بغيهعن حبّه فى نيلها يذهب

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۸ أقم فلا كانت منى فى نوىمن فقد المحبوب ما يطلب

و منها مصاحبة الإنسان من لا يشاكله، و المخاطرة بما يملكه، و مخالفة العادة فى أكله و نومه، و مباشرة الحرّ و البرد بجسمه.

و قيل: السفر اغتنام لولا أنّه اغتمام، و الغربة دربه لولا أنّها كربة.

و قيل: شيئان لا يعرفهما إلّا من ابتلى بهما: السفر الشاسع، و البناء الواسع.

و قال محمد بن ظفر فى السلوان : حروف الغربة مجموعة من أسماء دالّة على محصول الغربة. فالغين من غرور، و غبن، و غلّة و هى حرارة الحزن، و غرّة، و غول و هى كلّ مهلكة، و الراء من روع، وردى، ورزء، و الباء من بلوى، و بؤس، و برح و هى الداهية، و بوار و هو الهلاك، و الهاء من هول، و هون، و همّ، و هلك.

و قيل: إذا كنت فى بلد غيرك فلا تنس نصيبك من الذلّ.

و قيل: الغريب ميّت الأحياء (كالغرس الذى زايل أرضه فهو ذاو لا يثمر و ذابل لا ينضر) .

و قيل: الغريب كالوحش الذى غاب عن وطنه، فهو لكلّ سبع فريسة و لكلّ رام رميّة.

و قيل: عسرك فى بلدك خير من يسرك فى بلد غيرك و أنشدوا:

لقرب الدار فى الإعسار خيرمن العيش الموسّع فى اغتراب

و قيل لبعض الحكماء: ما السرور؟ فقال: الكفاية فى الأوطان، و الجلوس مع الاخوان.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۹

طريفة: قال القاضى أبو الحسن الجرجانى كان الصاحب بن عباد يقسم لى من إقباله و إكرامه بجرجان أكثر ممّا يتلقّانى به فى سائر البلدان فاستعفيته يوما من فرط تحفيته بى، و تواضعه لى فأنشدنى:

أكرم أخاك بأرض مولدهو أمدّه من فعلك الحسن

فالعزّ مطلوب و ملتمسو أعزّه ما نيل فى الوطن

الأعشى :

و من يغترب عن قومه لم يزل يرىمصارع مظلوم مجرّا و مسحبا

و تدفن منه الصّالحات و إن يسئيكن ما أساء النار فى رأس كبكبا

و قال آخر:

و من ينأ عن دار العشيرة لا تزلعليه رعود جمّة و بروق

و قال آخر:

و إنّ اغتراب المرء من غير خلّةو لا همّة يسمو بها لعجيب

فحسب الفتى ذلّا و إن أدرك الغنىو نال ثراء أن يقال غريب

و أنشد أبو منصور الثعالبى فى يواقيت المواقيت قال: أنشدنى أبو

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۰

الفتح البستى لنفسه:

لا يعدم المرء كنّا يستكنّ بهو صفّة بين أهليه و أصحابه

و من نأى عنهم قلّت مهابتهكاللّيث يحقر إمّا غاب عن غابه

ناصر الدين ابن النقيب :

ليس من بات معتقا من أمانيه كمن بات للأمانىّ رقّا

إنّ للمرء فى الحياة على اللّه إلى أن يموت قوتا و رزقا

خلّنى من حديث كدّ وسعىو اضطراب فى الأرض غربا و شرقا

ما الّذى أقتنيه من عرض يفنى إذا كان جوهرى ليس يبقى

و أما ما جاء من المدح فى ذلك:

فقد مدح اللّه جلّ اسمه المسافرين فقال وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ .

و فى الحديث (سافروا تصحّوا و تغنموا).

و فى التوراة (ابن آدم أحدث سفرا أحدث لك رزقا).

و قيل: إنّما سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن آيات اللّه، و قيل: لأنّه يسفر عن أخلاق الرجال.

و من كلامهم: السفر ميزان الأخلاق. السفر مرآة الأعاجيب. ربما أسفر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۱

السفر عن الظفر، و تعذّر فى الوطن قضاء الوطر. السفر أحد أسباب المعيشة التى بها قوامها، أو نظامها، لأنّ اللّه لم يجمع منافع الدنيا بأرض بل فرّقها، و أحوج بعضها إلى بعضها. الحركة ولود، و السكون عاقر. الحركة بركة و التوانى هلكة، و السكون شؤم. ليس بينك و بين بلد نسب، فخير البلاد ما حملك.

أوحش أهلك إذا كان فى إيحاشهم أنسك، و اهجر وطنك إذا نبت عنه نفسك.

[قال] سهل بن هارون: لست ممّن يقطع نفسه فى صلة وطنه. و قيل: لا تجزع لفراق الأهل مع لقاء اليسار، فإنّ الفقر أوحش من الغربة، و الغربة آنس من الوطن، و أنشدوا:

الفقر فى أوطاننا غربةو المال فى الغربة أوطان

و للإمام الشافعى رضى اللّه عنه :

سافر تجد عوضا عمّن تفارقهو انصب فإنّ لذيذ العيش فى النّصب

فالأسد لولا فراق الغاب ما قنصتو السهم لولا فراق القوس لم يصب

ابن قلاقس :

نقّل ركابك فى الفلاو دع الغوانى فى القصور

لولا التنقّل ما ارتقىدرّ البحور إلى النّحور

و القاطنون بأرضهمعندى كسكّان القبور

أبو تمّام حبيب بن أوس الطائى :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۲ و طول مقام المرء فى الحىّ مخلقلديباجتيه فاغترب تتجدّد

فإنّى رأيت الشمس زيدت محبّةإلى الناس إذ ليست عليهم بسرمد

الوأواء الدمشقى :

لا تقعدنّ بأرض قد ربيت بهافليس تقطع فى أغمادها القضب

قيل: و الحق التفصيل فى التفضيل، فإنه إن توفّرت الأسباب المحتاج إليها فى أمر الكفاية و تكميل النفس و تزكيتها مع الإقامة فهى أفضل، و إلّا فالتغرب كما قيل :

و لا يقيم على ضيم يراد بهإلّا الأذلّان عير الحىّ و الوتد

هذا على الخسف مربوط برمّتهو ذا يشجّ فلا يرثى له أحد

الحريرى (*) و هو من شعره فى المقامات :

لا تقعدنّ على ضيم و مسغبةلكى يقال عزيز النّفس مصطبر

و انظر بعينك هل أرض معطّلةمن النّبات كأرض حفّها الشجر

فعدّ عمّا تقول الأغبياء بهفأىّ فضل لعود ما له ثمر

و ارحل ركابك عن ربع ضمئت بهإلى الجناب الذى يهمى به المطر

و استنزل الرىّ من درّ السّحاب فإنبلّت يداك به فليهنك الظّفر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۳ و إن رددت فما فى الردّ منقصةعليك قد ردّ موسى قبل و الخضر

ابراهيم بن العباس ، أو غيره :

لا يمنعنّك خفض العيش فى دعةنزوع نفس إلى أهل و أوطان

تلقى بكلّ بلاد إن حللت بهاأهلا بأهل و جيرانا بجيران

السراج الوراق :

إذا كنت فى أرض يهينك أهلهاو إن كنت مشغوفا بها فتغرّب

فإنّ رسول اللّه لم يستقم لهبمكّة أمر فاستقام بيثرب

مهذب [الدين] ابن منير :

و إذا الكريم رأى الخمول نزيلهفى منزل فالحزم أن يترحّلا

كالبدر لمّا أن تضاءل جدّ فىطلب الكمال فحازه متنقّلا

سفها لحلمك إن رضيت بمشربرنق و رزق اللّه قد ملأ الفلا

الأديب أبو محمد غانم :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۴ و إذا الديار تنكّرت عن حالهافذر الدّيار و أسرع التّحويلا

ليس المقام عليك حتما واجبافى بلدة تدع العزيز ذليلا

و سئل الزيادة عليهما فقال:

لا يرتضى حرّ بمنزل ذلّةلو لم يجد فى الخافقين مقيلا

فارض الوفاء لحرّ نفسك لا تكنترضى المذلّة ما حييت سبيلا

و اخصص بودّك من خبرت وفاءهلا تتّخذ إلّا الوفىّ خليلا

فلقد خبرت الناس منذ عرفتهمفوجدت جنس الأوفياء قليلا

سقيا لأيّام الشّباب فإنّهاكالإلف حاول أن يجدّ رحيلا

و من لطائف ما حكاه الأصمعى قال: مررت برجل يكسح كنيفا و هو يقول:

و ايّاك و السّكنى بدار مذلّةتعدّ مسيئا بعد ما كنت محسنا

و نفسك أكرمها فإن ضاق مسكنعليك بها فاطلب لنفسك مسكنا

فقلت له واللّه ما بقى من الهوان شىء إلّا و قد أهنت به نفسك، فكيف تأمر بإكرام النفس و لا تكرمها؟ فقال: بلى واللّه من الهوان ما هو أعظم مما أنا فيه. فقلت له: و ما هو؟ قال: الوقوف على سفلة مثلك، فانصرفت عنه و أنا أخزى الناس.

ياقوت الرومى :

وقفت وقوف الشّكّ ثم استمرّ بى‌يقينى بأنّ الموت خير من الفقر

فودّعت من أهلى و فى القلب ما بهو سرت عن الأوطان فى طلب اليسر

و باكية للبين قلت لها اصبرى‌فللموت خير من حياة على عسر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۵ سأكسب مالا أو أموت ببلدةيقلّ بها فيض الدّموع على قبرى

ثم السعى لا يؤثر فى التقدير و الإرادة، و إنّما هو من الأسباب التى جرت بها العادة كما قيل:

(للرزق أسباب و من أسبابه‌إعمال ناجية و شدّ حزام

و قال آخر:

ألم تر أنّ اللّه أوحى لمريمو هزّى إليك الجذع يسّاقط الرطب

و لو شاء أدنى الجذع من دون هزّه‌إليها و لكن كلّ شى‌ء له سبب

و حاصل الأمر أنّ السعى إنّما هو لتحصيل ما أراده اللّه سبحانه، و حضّ عليه فى كتابه العظيم بقوله عزّ اسمه هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ فإنّ بالحركات تنزل البركات، و عدم حصول المرام أمر وراء ذلك كما قيل) .

على المرء أن يسعى لما فيه نفعهو ليس عليه أن يساعده الدّهر

فإن نال بالمسعى المنى تمّ قصدهو إن خالف المقدور كان له عذر

ابن عنين :

فإمّا مقام يضرب المجد حولهسرادقه أو باكيا لحمام

فإن أنا لم أبلغ مقاما أرومهفكم حسرات فى نفوس كرام

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۶

و قال آخر :

سأضرب فى بطون الأرض ضرباو أركب فى العلى غرر اللّيالى

فأمّا و الثّرى و أقمت عذراو أمّا و الثريّا و المعالى

و ليكن هذا آخر المقدمة و فيه كفاية لمن لحظته العناية. و أما أنا فأقول:

إذ كنت فى غنى عن هذا المنقول:

لقد ظلمتنى و استطالت يد النّوىو قد طمعت فى جانبى أىّ مطمع

إلى كم أقاسى فرقة بعد فرقةو حتى متى يا بين أنت معى معى

و كان السبب فى تجرّع مرارات النوى، و تحمّل حرارات الجوى، و فراق الأهل و الوطن، و البعد عن السوح المحترم و الحرم المؤتمن، أن قضى اللّه على الوالد بفراقه لتلك المواطن و اغترابه عن هاتيك المنازل و المعاطن، مدعوّا إلى الدكن من الديار الهنديّة، مجلوّا على السكن فى ظلالها النديّة، ففارقنا و الحال حويلة، و البحر دجيلة، و الفصال لم يبلغ حدّه، و الوصال قد ثلم البين حدّه، و ذلك عام أربعة و خمسين و ألف من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة و السلام و التحيّة.

و كان قد استدعاه إلى تلك الديار مليكها الأعظم و مالكها السلطان المعظّم، الملك الذى انعقدت كلمة الإجماع على شوكة سلطانه، و تلت الخلائق سور عدله و إحسانه، و أصبحت الأملاك خاضعة لدولته و عزّة شأنه، مستسلمة لأقضية صولته، و أحكام سيفه و سنانه، ذو الصفات التى أشرق بها بدر الملك و شمس الخلافة، و الحكم الذى جرى القضاء على طبقه فلم يستطع أحد خلافه. و الهمم التى أضحت الأمانى دون منتهاها صرعى، و رجعت

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۷

الأوهـام عن تخييل أدناها ضائقـة به ذرعا، و البسالـة التى وقفت الفرسان عنـدها، و الإيالـة التى عمّ ذكرها البلاد هنـدها و سـندها، فما الغيث الوابل إلّا مكتسب من بعض هباته، و ما اللّيث الصائل إلّا منتسب إلى و ثباته و ثباته.

سل عنه و انطق به و انظر إليه تجدملء المسامع و الأفواه و المقل

ظل اللّه سبحانه على عباده، و أمينه الذى دارت الأفلاك على مدار مراده.

ملك إذا ازدحم الملوك بموردو نحاه لا يردون حتى يصدرا

ملك يروقك خلقه أو خلقه كالرّوض يحسن منظرا أو مخبرا

أندى على الأكباد من قطر النّدىو ألذّ فى الأجفان من سنة الكرى

قدّاح زند المجد لا ينفكّ منار الوغى إلّا إلى نار القرى

حاوى الخلافـة كابرا عن كابر، فخر المفاخر و المآثر و المنابر، الإمام العادل و الهمام الباذل، الواثق و المعتضـد باللّه شاهنشاه عبـد اللّه بن محمد قطب شاه.

فى كلّ يوم مجده عجبو كلّ ليل لنا من ذكره سمر

سقى به اللّه دنيانا فأخصبهاو العدل يفعل ما لا يفعل المطر

ما أنصفت مجده نظّام سيرتهإنّ الذى سنروا فوق الذى سطروا

لا زال النصر محدقا بأعلامه المنيفة فى كلّ حين، و الظفر تاليا على مسامعه الشريفة آيات الفتح المبين.

فلم يسع الوالد إلّا امتثال أمره المطاع، و الانقياد لحكمه الذى لا يطاق ردّه و لا يسـتطاع. فدخل الديار الهندية فى السنة المقدم ذكرها، و زفت إليه من المعالى عوانها و بكرها، و قابله مولانا بمزيد الاحترام، و أكرمه بما هو أهله من

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۸

الإجلال و الإكرام. فمهّد له فى فنائه موضعا، و أحلّه من سمائه مطلعا، و لم يزل يلحظه بعين عناياته، و ينشر عليه من العزّ أرفع راياته، و يفصّل له من الشـأن مجمله، و ينجـح له من المعـالى مـا أمّله، حتى اختـاره لمصاهرته، و اجتباه لمؤازرته، فأملكه ابنته الطاهرة، و ملّكه نعمه الباهرة الزاهرة، فأصـبح و قد مدّ العزّ عليه رواقه، و ألقى شراشـره و أوراقه، و أثمر غصن أمله بنجحه، و تبلّج أفق مرامه بصبحه، و كان عرسا أظهر مولانا السلطان به أيده، و أبدى فيه ما لم يبده المهدىّ فى أعراس الرشيد بزبيدة، و لم يكتحل مدته جفن بوسن، و لم يحتفـل احتفـاله المأمون لبوران بنت الحسن. حشـر له البادى و الحاضـر، و أشـرقت به المحافل و المحاضـر، فقال الأديب الشـيخ جابر الجوازرى مؤرخا هذا الزواج الميمون الازدواج:

أقبل السعد يهنّىسيّدا من خير آل

هاشميّا أحمدىّ الخلق محمود الخصال

قال بشراك فأرّخما قضاه ذو الجلال

زوّجوا شمس المعالىمنك يا بدر الكمال

استطراد:

ذكر صاحب تحفة العروس قال: أخبرنا أبو ياسر البغدادى قال:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۹

و ليمتـان فى الاسـلام لم يكن مثلهمـا و لا يكون. فالأولى وليمـة الرشـيد عنـد دخوله بزبيـدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور، كانت أوانى الذهب تملأ من الفضّة، و أوانى الفضة تملأ من الدنانير و تدفع إلى وجوه الناس.

و يقال إنّ العود الهندى إنّما فضّل على العود القمارى فى هذه الوليمة لأنّهما امتحنا فوجد الهندى أطيب و أبقى فى الثوب.

قال أبو ياسر: كانت النفقة فى هذه الوليمة من بيت خاصة المهدى سوى ما أنفقه الرشيد خمسين ألف ألف دينار.

و الثانية وليمة المأمون على بوران بنت الحسن بن سهل. قال أبو الفرج:

لما خطبها المأمون استعدّ لها استعدادا يجلّ عن الوصف، و خرج المأمون إلى فم الصّلح فى سنة عشر و مائتين فأملك بها، و فعل الحسن فى هذه الوليمة ما لم يفعله ملك فى الجاهلية و لا الإسلام:

نثر على الهاشميين و القواد و الكتاب بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع، و أسماء جوار، و تعيين صلات و غير ذلك من كلّ شىء نفيس. فكان إذا وقع شىء من ذلك فى يد من نثر عليه فتحه و توجّه فاستوفى قبض ما فيه. ثم نثر بعد ذلك على عامة الناس الدنانير و الدراهم، و نوافج المسك، و قطع العنبر، و أقام الوظائف و النفقات لجميع ما اشتمل عليه عسكر المأمون لكلّ رجل على قدره. و يقال: إنّ العسكر اشتمل على ستة و ثلاثين ألف ملّاح.

قال أبو الفرج: لما جليت بوران فرش لها حصير من ذهب، و جىء بإناء مملوء درّا فنثر على الحصير، و كان فيمن حضر من النساء زبيدة بنت جعفر، و حمدونه بنت الرشيد و غيرهما من بنات الخلفاء، فلم تلقط واحدة منهنّ شيئا من الدرّ. فقال المأمون: أكرمنها بالتقاطكنّ، فمدت كلّ واحدة يدها و أخذت واحدة، و بقى الدر على الحصير الذهب، فقال المأمون: قاتل اللّه الحسن ابن

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۰

هانى كأنه كان حاضرا حيث قال فى صفة الخمر:

قامت ترينى و أمر اللّيل مجتمع‌صبحا تولّد بين الماء و العنب

و كأنّ صغرى و كبرى من فواقعهاحصباء درّ على أرض من الذّهب

قال أبو ياسر: و أوقد تلك الليلة شمعة عنبر وزنها ثمانون رطلا، فأنكر المأمون ذلك و قال: هذا سرف، فأمرت زبيدة برفعها و قالت: هاتوا الشمع المستعمل. قال: و سأل المأمون زبيدة عما أنفقه الحسن فقالت: بين خمسة و ثلاثين ألف ألف إلى سبعة و ثلاثين، فبلغ ذلك الحسن فقال: أو كانت النفقة على يدها؟ واللّه لقد حصرتها فكانت ثمانين ألف ألف.

قال: و أقامت البغال و عدّتها أربعة آلاف تنقل الحطب قبل الوليمة أربعة أشهر، و فى أثناء الوليمة أحوجهم الحطب فكانوا يوقدون الكتان عوضا عن الحطب.

قال الطبرى: و دخل بها الليلة الثالثة من وصوله فم الصّلح، فلما جلس معها نثرت عليهما جدّتها ألف درّة، فأمر المأمون بجمع الدرّ و قال: كم هو؟

فقالت ألف حبّة، فأخذه و وضعه فى حجرها و قال: هذا نحلتك و سلى حوائجك، فقالت لها جدّتها: كلّمك سيّدك فكلّميه فقد أذن لك، فسألته الرضا عن ابراهيم بن المهدى لأدبه، فقال: قد فعلت.

و يقال: أنه لما أدخلت عليه و أراد غشيانها حاضت فقالت «أتى أمر اللّه فلا تستعجلوه» فنام فى فراش آخر، فلما قعد للناس من الغد، دخل عليه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۱

[أحمد بن يوسف] الكاتب و قال: يا أمير المؤمنين هنّاك اللّه بما أخذت من الأمر باليمن و البركة، و شدّة الحركة، و الظفر فى المعركة، فأنشده المأمون :

فارس ماض بحربتهصادق بالطّعن فى الظّلم

رام أن يدمى فريستهفاتّقته من دم بدم

و أكثرت الشعراء فى هذا الإملاك، و أستطرف منها قول [ابن] حازم الباهلى :

بارك اللّه للحسن‌و لبوران فى الختن

يا ابن هارون قد ظفرت و لكن ببنت من

فلما نمى إلى المأمون قال: واللّه ما ندرى أخيرا أراد أم شرّا.

و كان اسحاق يقول: ما رأيت فى الملوك مثل المأمون، و لا شاهدت امرأة تقارب بوران فهما و عقلا و أدبا و فضلا، و ما أظن أحدا وقف من العلوم على ما وقفت عليه، و لم تزل فى صحبة المأمون إلى أن توفى عنها سنة ثمان عشرة و مائتين، و عاشت بعده إلى سنة إحدى و سبعين و مائتين و عمرها ثمانون سنة.

و يحكى أنّ المأمون خلا بها يوما فقال لها: غنّى، فغنت:

جعلتك مشتكى حزنى‌و معتصرى على الزّمن

وجدتك خائنا غدرافيا أسفى على بدنى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۲

تريد ما كان من غدر المأمون بعمّها الفضل، فقال المأمون: قد كنت عن هذا غنيّا لولا شقائى.

و على ذلك مما يذكر من عظيم حلم المأمون، أن الحسن بن سهل شرب معه يوما فقال له المأمون: يا أبا محمد لعلكم تتوهمون أنى قتلت الفضل بن سهل! واللّه ما قتلته، فقال الحسن: بلى واللّه لقد قتلته، فقال: واللّه ما قتلته، فقال: بلى واللّه لقد قتلته، (فقالها ثلاثا و الحسن يردّ عليه) فقام المأمون من مجلسه فقال: أفّ لك، و انصرف الحسن إلى منزله، فاتّصل الخبر بمعلى بن أيوب، و غسّان بن عبّاد فصارا إلى الحسن و عذلاه على ما كان منه و قالا:

اركب فاعتذر إليه، قال: واللّه لا ـ ركبت إليه أو يبعث إلىّ، فصارا إلى المأمون فقال له غسّان: يا أمير المؤمنين نحن عبيدك، و صنائعك، بك عرفنا و بخدمتك شرفنا، كنا أذلّاء فرفعتنا، و كنّا عامّة فخصّصتنا، و كنّا فقراء فأغنيتنا، فاغفر خطيئة مسيئنا بمحسننا، فقال: ويلك ما أصنع به؟ حلفت له باللّه ثلاثا فكذّبنى ثلاثا، فقال المعلّى: يا أمير المؤمنين آنسته فأنس، و ساقيته فانتشى، فاغفر له هفوة نشوته فقال المأمون: يا غلام صر إلى أبى محمد فقل له: إمّا أن تجيئنا، أو نجيئك. و للمأمون نوادر فى الحلم و العفو، و من كلامه: حبّب إلىّ العفو حتى خشيت أن لا أثاب عليه.

و هذا و إن كان خارجا عن وضع الكتاب و غرضه لكن لا بدّ لكلّ واضع كتاب، و مؤلف معنى من اعتنان شىء ليس من جنس ما قصد له و لا ممّا أراد، بل يراه يحسن ذكره فيذكره ثم يعود، فلنعد إلى ما نحن بصدده.

و فى سنة ست و خمسين قلّد مولانا السلطان- خلّد اللّه ملكه- الوالد منصب عين الملك فأحلّه من علوّه فى فلك، و من تيّاره فى فلك، فجنح الوالد إلى الإقامة بتلك الديار و استيطانها، و الانتظام فى سلك سكّانها و قطّانها، فمكث ثلاث عشرة سنة متبوّئا من العيش أرغده و أحسنه، ثم رأى أن العود إلى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۳

مسقط رأسه و منبت غرسه أمل قلّما أسعف بنيله نجح، أو تبلّج لليله صبح، فاستأذن مولانا السلطان- خلّد اللّه تعالى ملكه، و أجرى ببحار النصر فلكه- فى استدعائنا من المواطن الشريفة، و نقلنا إلى سدّته المنيفة، فأذن له فيما استدعى، و أسعفه بما أكّد عزمه على الاستدعا، فكشف عن وجه عزمه نقابه، و إذا أراد اللّه شيئا هيّأ أسبابه.

فجهّز إلينا وزيره المعتمد، و أمره بقطع هذه المدّة فى أقرب أمد، فورد علينا و القلوب لوروده فزعة، و النفوس من وفوده جزعة، و ما ذاك إلّا لفراق تلك الديار الشريفة، و الانتقال عن هاتيك الأقطار الوريفة، مع ما طبعت عليه النفوس من حبّ الوطن، و الجزع لفقد السكن، و قد قيل: عمّر اللّه البلدان بحبّ الأوطان، و كان يقال: ليس الناس إلى شىء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم. و قيل: ميلك إلى موضع مولدك من كرم محتدك.

و قالت الحكماء أنّ من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها مشتاقة، و إلى مسقط رأسها توّاقة، و قال الشاعر :

أحبّ بلاد اللّه ما بين منعجإليّ و سلمى أن يصوب سحابها

بلاد بها عقّ الشباب تمائمىو أوّل أرض مسّ جلدى ترابها

فراجعنا الوالد فى فسخ هذا العزم الذى أبرمه، و إطفاء هذا الوجد الذى أضرمه، فلعلّ اللّه أن يمنّ بالاجتماع فى أشرف البقاع، و يطوى مسافة البين من البين، فلن نعدم منه سبحانه كافيا.

و قد يجمع اللّه الشّتيتين بعدمايظنّان كلّ الظنّ أن لا تلاقيا

فلم تثن مراجعتنا له عزما، و لم تغن إلّا تصميما و جزما، فأعاد الجواب

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۴

بالطلب. و حثّ على أن يكون إليه المنقلب، فلم نر بدّا من الإجابة، كى لا نجىء الخطأ من باب الإصابة، فأخذنا فى أهبة السفر، و الاستعداد لما دهم به البين و ظفر، ثم فارقنا تلك الأوطان مفارقة الأرواح للأبدان.

هذا جناه أبى علىّ و ما جنيت على أحد

فكان خروجنا من مكة المشرفة ليلة السبت لستّ خلون من شعبان المعظّم عام ست و ستين و ألف، و ذلك بعد أن تملّيت من تلك المآثر الكرام، و تلوت سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فسرنا على اسم اللّه، و المودعون يزرّون الأعضاد على الأجياد، و المدامع تذرى هواطل دمعها على أجياد و قد أذن جمع الشمل بالانصداع، و علمنا صدق قول القائل:

ما خلق اللّه من عذابأشدّ من وقفة الوداع

و على ذكر الوداع: حكى القاضى أبو بكر بن العربى: أنهم خرجوا لوداع حجّ العراق فنظروا إلى فتى يتأمل الهوادج هودجا هودجا و هو كالذاهل إلى أن تعب و كلّ فوقف و أنشد:

أحجاج بيت اللّه فى أىّ هودجو فى أىّ خدر من خدوركم حبّى

أأبقى رهين الجسم فى أرض غربةو حاديكم يحدو فؤادى مع الرّكب

فوا أسفا لم أقض منكم لبانتىو لم أتمتّع بالجوار و بالقرب

يقولون هذا آخر العهد بيننافقلت و هذا آخر العهد من قلبى

ثم رمى بنفسه إلى الأرض و جعل يقول:

خلّ نار القلب تشتعلخلّ دمع العين ينهمل

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۵ كلّ سرّ صانه جلدفهو يوم البين مبتذل

ثم خفت فقلبناه فوجدناه ميتا .

و قريب من هذا ما حدّث الأصمعى عن يونس قال: بلغنى أن قوما جاءوا إلى ابن عباس بفتى محمول ضعفا فقالوا: استشف لهذا، فنظر إلى فتى حلو الوجه عارى العظام فقال له: ما بك؟ فقال :

بنا من جوى الأسقام و الحبّ لوعةتكاد لها نفس الشّفيق تذوب

و لكنّما أبقى حشاشة ما تروىعلى ما به عود هناك صليب

فقال ابن عباس: أرأيتم وجها أعتق، و لسانا أذلق، و عودا أصلب، و هوى أغلب ممّا رأيتموه اليوم؟ هذا شهيد الحبّ لا ديةٌ و لا قود.

و فى هذا الفراق أقول من بعض أشعار الصّبا، و هى كما قال شرف السادة : التمر باللّبأ :

فارقت مكّة و الأقدار تقحمنىو لى فؤاد بها ثاو مدى الزّمن

فارقتها لا رضى منّى و قد شهدتبذاك أملاك ذاك الحجر و الركن

فارقتها و بودّى إذ فرقت بهالو كان قد فارقت روحى بها بدنى

و فيه يقول الأخ الأعز، المحرز من مكاسب الفضائل ما غلا و عز، أبو

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۶

يعلى محمد يحيى لا زال به موات الفضل يحيا:

و باكية لمصاب النّوىو كم بالنّوى من محب قتيل

و لم أر مثلى صبّا غدابقلب حزين و دمع هطول

و صاحوا الفراق فها أنا ذاعزيز التأسّى كثير العويل

و قالوا الرّحيل فياليتنىعدمت حياتى قبل الرّحيل

و تمثل لسان الحال عند الارتحال بقول الشريق الوضيّ الشريف الرضيّ (*):

تزوّد من الماء النّقاخ فلن تربوادى الغضا ماء نقاخا و لا بردا

و نل من نسيم البان و الرّند نفحةفهيهات واد ينبت البان و الرّندا

و عج بالحمى طرفا فلست برامقطوال اللّيالى ذلك العلم الفردا

و كرّ إلى نجد بطرفك أنّهمتى تغد لا تنظر عقيقا و لا نجدا

ثم أدلج الحادى، و أنشدت تلك النوادى:

متّع لحاظك من خلّ تودّعهفما إخالك بعد اليوم بالوادى

فوقفت حتّى ضجّ من لغبنضوى و عجّ بعذلى الرّكب

و تلفّتت عينى فمذ خفيتعنّى الطّلول تلفّت القلب

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۷

فائدة:

ذكر جماعة من المفسرين و أهل الحديث: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم لما خرج من مكة شرّفها اللّه تعالى مهاجرا، و ركب الناقة التفت إلى مكة مسكنه و مسكن آبائه و أجداده فظن أنّه لا يعود إليها و لا يراها بعد ذلك، فأخذته رقّة و بكى، فأتاه جبرئيل عليه السلام و تلاـ عليه قوله تعالى إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ . فاستبشر عليه الصلاة و السلام و توجه مسرورا. فمعاد على هذا من أسماء مكة المشرفة، و فسّر أيضا بالجنة، و قلت على التفسير الأول:

أمعاد هل يفضى إليك معادىيوما برغم معاند و معاد

فأفوز منك بكلّ ما أمّلتهذخرا لآخرتى و يوم معادى

و لعمرى أنّى لحرىّ بقول العلامة الزمخشرى :

هو النّفس الصعّاد من كبد حرّىإلى أن أرى أمّ القرى مرّة أخرى

سريت بشخصى لا بقلبى و همّتىو هيهات ما للأخشبين و للمسرى

منيخان بالبطحاء ما ذرّ شارقمقيمان عند البيت ما ولّت الشّعرى

عكوفهما فى عاكفى البيت و اصبطوافهما بالطّائفين بها يترى

و ما جاوزت بى أرض مكة أينقىو قد لجّ بى جهد الصّبابة و استشرى

فكيف إذا خلّى الحجاز وراءناو جيف المطايا يا لها كبدا حرّى

فإن حدّثتنى بعد بالسّير معنقافلا رزقت يسرا و لا لقيت بشرى

أأبتاع بالفوز الشّقاوة خاسراو أستبدل الدّنيا الدّنيّة بالأخرى

إذا خطرت بالبال ذكرى إناختىعلى حرم اللّه استفزّتنى الذّكرى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۸ أكابد همّا كاللّيالى و حسرةو دمعا غزير المستقى غائر المجرى

و أدعو إلى السّلوان قلبا جوابهلداعيه مهراق من المقلة العبرى

و ما عذر مطروح بمكّة رحلهعلى غير بؤس لا يجوع و لا يعرى

و يرحل عنها يبتغى عوضا بهاو حقّك لا عذرا و ربّك لا عذرا

فسلكنا طريق اليمن الميمون، متوجهين نحو ذلك القطر المأمون، و سرينا نقتحم مهامه و قفارا، و لا نملك للدموع كفافا و لا للقلوب نفارا، نجوب جيوب تلك الليلة الدهماء، و نخبط خبط عشواء فى تلك الفلاة الهيماء، إلى أن أسفر الصباح، فنزلنا بحمى هنالك مباح، يقال له (البيضاء)، قد نشر من محله راية سوداء كأنّه لم ينبت قطّ نجمة خضراء فقلنا فيه ذلك اليوم، و هيهات أن يجنح طرف إلى نوم. و فى هذا المنزل أقول:

و لقد حللت من المنازل واديامحل الجوانب اسمه البيضاء

فرحلت عنه و قلت للرّكب ارحلواعنه عليه الرّاية السّوداء

فارتحلنا منه إلى (السعديّة)، و تبوّأنا ظلالها و إن كانت غير نديّة، و هى ميقات اليمن بحذاء (يلملم) و هو ميقاتهم الذى وقّته لهم النبى صلى اللّه عليه و على آله و سلّم، و منها فارقنا المشيّعون، و أخذوا يودّعون، و يودعون القلوب من الوجد ما يودعون، فعمّ الغمّ و شمل، و انقرف جرح لم يكن اندمل. و ما أحسن قول محمد بن [الحسن بن] عبد اللّه الزبيدى من أبيات:

ما خلق اللّه من عذابأشدّ من وقفة الوداع

ما بينها و الحمام فرقلولا المناجاة و النّواعى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۹ أن يفترق شملنا و شيكامن بعد ما كان ذا اجتماع

فكلّ شمل إلى افتراقو كلّ شعب إلى انصداع

و كلّ قرب إلى بعادو كلّ وصل إلى انقطاع

و فى المنزل المذكور وقع بين بعض الخدم و المكارين كلام أفضى بهم إلى جراح و كلام، فعطب من المكارين رجلان و كانوا نحوا من خمسين نفسا، فاستجاشوا من حولهم من العرب، و أعولت الحرب بيننا و بينهم بالحرب، فانتدب لهم من الترك كلّ غلام لا يعرف إلّا جاره، و العرب تخالهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة، فتفلّقت من الفريقين رؤوس وهام، بعصىّ و حجارة أغنت السيوف و السهام، و آلت الحال إلى قول من قال:

عصىّ مكلّلة بالرؤوسو رؤوس مكلّلة بالعصى

حتى حال بينهم الليل، فضعف منهم الحيل، و قد قال بعض الحكماء:

من الخصال المذمومة فى السفر سوء عشرة المكارين، و ملاقاة الهوان من العشّارين، و على ذلك حدّث أبو بكر محمد بن المظفّر السامانى قال: ضجرت فى بعض أسفارى من غلام لى استقصرته فى خدمتى، و حضرنى جرير الطبيب فأنشدنى:

أكرم رفيقك حتى ينقضى السّفرإنّ الذى أنت موليه سينتشر

و لا تكن كلئام أظهروا ضجراإنّ اللّئام إذا ما سافروا ضجروا

و يروى أنّ عمر بن الخطاب قال لرجل زكّى عنده رجلا ليقبل شهادته:

هل صحبته فى السفر الذى يستدلّ به على مكارم الأخلاق؟ فقال: لا، فقال:

ما أراك تعرفه.

و بالجملة فحسن الصحبة، و مكارم الأخلاق عموما، و فى السفر خصوصا من الأمور المحضوض عليها شرعا و عرفا و باللّه التوفيق.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۴۰

ثم ارتحلنا نقطع قفارا و يبابا، و نفترع إكاما و هضابا، و النّوى تحدو بنا و تقود.

و لو قال لى الغادون ما أنت مشتهغداة جزعنا الرّمل قلت أعود

و فى هذا السفر أقول من صدر قصيدة امتدحت بها الوالد:

سريرة شوق فى الهوى من أذاعهاو مهجة صبّ بالنّوى من أضاعها

أفى كلّ يوم للبعاد ملمّةتلمّ بنا لا نستطيع دفاعها

فللّه جمع فرّق البين شملهو إلفة صحب قد أباد اجتماعها

و ساعات أنس كان لهوا حديثهاسقى اللّه هاتيك اللّيالى و ساعها

و لا مثل ليلى إذ تبدّت عشيّةمددت لها كفّى أريد وداعها

و قد أقبلت تذرى الدّموع تلهّفافإذا هتف الداعى إلى البين راعها

أشاعت بنا أيدى الفراق فأصبحتؤمّ بنا شمّ الذّرى و تلاعها

نجوب قفارا ما وقفنا بقاعهاو نقطع بيدا ما حللنا بقاعها

تميل بنا الأكوار ليلا كأنّنانشاوى سلاف قد أدمنا ارتضاعها

إذا نفحتنا نسمة حاجريّةأجدّت و هاجت للنّفوس التياعها

فمن مهجة لا يستقرّ قرارهاو من كبد نخشى عليها انصداعها

تجاذبنا فضل الأزمّة ضمّرأهاج نزاع البين وجدا نزاعها

نقيس بها طول الفلاة و عرضهاإذا هى مدّت للمسير ذراعها

و من أحسن ما سمعت به فى المسرى قول بديع الزمان ، و علّامة همذان من قصيدة:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۴۱ لك اللّه من ليل أجوب جيوبهكأنّى فى عين الرّدى أبدا كحل

كأنّ السّرى ساق كأنّ الكرى طلاكأنّا لها شرب كأنّ المنى نقل

كأنّا جياع و المطىّ لنا فمكأنّ الفلا زاد كأنّ السّرى أكل

كأنّ ينابيع الثّرى ثدى مرضعو فى حجرها منّى و من ناقتى طفل

كأنّا على أرجوحة فى مسيرنابغور بنا يهوى و نجد بنا يعلو

و من أحسن قوله منها فى المديح:

كأنّ فمى قوس لسانى له يدمديحى له نزع به أملى نبل

كأنّ دواتى مطفل حبشيّةبنانى لها بعل و نفسى لها نسل

كأنّ يدى فى الطّرس غوّاص لجّةله كلمى درّ به قيمى تغلو

و هذا الإمام المتقدم الذى صلّى الحريرىّ خلفه، و أشار إليه فى مقاماته بقول القائل :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابةبسعدى شفيت النّفس قبل التندم

و لكن بكت قبلى فهيّج لى البكابكاها فقلت الفضل للمتقدّم

و على ذكر الحريرى فما ألطف قول بعض الظرفاء الأدباء، و نقلته من خطّ الصلاح الصفدى على هامش نسخة من المقامات:

لنا صديق هو فى نقلهلكلّ ذى أكذوبة وارث

فكلّ ما ينقله مثل ماقال الحريرى حكى الحارث

و لم نزل نقطع كلّ فدفد، و قد نفد التجلّد أو كاد ينفد، حتى نزلنا ب (الهضم) و هو واد قفر يتبرّم منه السّفر.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۴۲ قفر غدت ريح السّموم مثيرةمن أرضه نقعا إلى أفق السّما

فكأنّما صعد التّراب ليشتكىما يلتقيه إلى السّماء من الظّما

فمكثنا به يوما لم نستطب فيه يقظة و لا نوما، ثم ارتحلنا منه إلى (اللّيث) فألفيناه قد كشّر عن نابه، و تحمّلنا منه تالين رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ . ثم أتينا على (ذكوان) منزل طاب لنا فيه الوقت و الأوان، يشتمل على نخلات باسقة، و شجرات فاغية متناسقة، و هو قريب من البحر، بينه بينه و بين السّيف مسير ساعة مع عذوبة مائه و طيب هوائه.

يزهى ببرّ و بحر من جوانبهفالبرّ من طرف و البحر من طرف

و ما يزال نسيم من يمانيةيأتيك منه بريّا روضة أنف

و فيه كان أول مشاهدتنا للبحر الزاخر، و الفلك الماخر، فهالنا من أمر البحر ما رأيناه، و وددنا إن لم نكن نراه و لا راءيناه . و لما اكتسى الجوّ ثوب الأصيل أخذ الركب فى التقويض و الرحيل، فما سرنا قليلا حتى ضللنا الطريق، فتفرق لذلك جمع الفريق، فصار الطريق طريقين، و الفريق فريقين، و كانت ليلة نجمها مغموم، و غيمها مركوم، فلم نزل نقطع تلك الفلاة اليهماء، و نخبط تلك الليلة الدهماء، حتى نشر الصبح راياته، و أرانا اللّه سبحانه آياته، فهدانا إلى (الوادين) و هو أكرم الهادين، و هو المنزل الذى قصدناه، و الموضع الذى أردناه، فالتأم به جمع القوم، و أقمنا به ذلك اليوم، و على ذلك قلت (من قصيدة مدحت بها الوالد) : رحلة ابن معصوم المدنى ؛ ص۴۲

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۴۳ كم مهمه جبته بالسّيف مشتملاو العزم يكحل جفن العين بالسّهر

فى ليلة قد أضلّتنى غياهبهاحتى اهتديت إلى دير من الشّعر

بطلعة كضياء الشّمس غرّتهاو نفحة حملتها نسمة السّحر

فظلت و الليل تغرينى كواكبهأراقب الفجر من خوف و من حذر

و فى الكنائس من هام الفؤاد بهاترتو إلىّ بطرف طامح النّظر

فأقبلت و تجارينا معانقةكأنّنا قد تلاقينا على قدر

حتى بدت غرّة الإصباح واضحةو طرّة اللّيل قد شابت من الكبر

ثم انثنينا و لم يدنس مضاجعناإلّا بقايا شذا من ريحها العطر

فاستعجلت تحكم الزنّار عقدتهو تسحب الذّيل من خوف على الأثر

و استقبلت دير رهبان قد اعتكفوايزمزمون بألحان من الزّبر

ثم ارتحلنا فأتينا على (دوقه) و قد بلغ الجهد من كلّ منا طوقه، و هى أرض قفراء، و حرّة زوراء .

ثم ارتحلنا منها إلى (الحسبه) و مامّنا إلّا و الأين قد لسبه، فنزلنا بها للاستراحة، و هيهات مع تعب البين راحة.

ثم نهضنا عنها،

نمزّق جلباب الظّلام كما فرىأخو الحزن ما نالت يداه من البرد

و قد عبّ فى كأس الكرى كلّ راكبفمال نزيفا و الجياد بنا تردى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۴۴ و حلّ عقال الوجد شوق كأنّهشرارة ما يرفضّ من طرف الزّند

و أوقر أجفانى دموع نثرتهاعلى محملى نثر الجمان من العقد

فلم نزل بين إدلاج و تأويب، و إيجاف و تقريب، و قد طوينا تلك المراحل، و قطعنا هاتيك المفاوز المواحل.

فكم من نهار ضمّ قطريه سيرنايذوب الحصى من جزعه فى لهيبه

و ليل طويناه و للرّكب طربةإذا غبّ نجم جانح فى مغيبه

إلى أن جئنا (القنفذة) و قد أنفذ فينا البين ما أنفذه، و هى قرية بالقرب من (حلى) على ساحل البحر، و يقال: أنها كانت فى القديم فرضة مكة المشرفة بها ترسى جميع السفن الواردة من جميع الأقطار، ثم أهملت و جعلت الفرضة (جدّة)- بضم الجيم- على ما فى القاموس، و العامة تقول: جدة (بكسرها) و هى على مرحلتين من مكة شرّفها اللّه تعالى. و فى القاموس، الجداد (بالضم): ساحل البحر بمكة، كالجدة، وجدة: موضع منه .

فائدة:

فى سنة سبع و تسعمائة غرّق القاضى أبو السعود بن ابراهيم بن ظهيرة فى بحر القنفذة المذكورة بأمر وإلى مكة المشرفة: الشريف بركات بن محمد بن بركات بن الحسن بن عجلان ، و كان السبب فى ذلك أنه لما توفى الشريف هزّاع أخو الشريف المذكور، و كان والى مكة غير منازع، و كانت وفاته خامس عشر رجب الأصم من السنة المذكورة، تولى بعده أخوه أحمد الجازانى بمساعدة القاضى المذكور، و ربّما أمدّه بنفقة و سلاح و غير ذلك.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۴۵

فلما علم الشريف بركات بذلك سار إلى مكة المشرفة فدخلها منتصف شعبان من السنة المذكورة، ففرّ منه الشريف أحمد جازان، و استقرّ بها الشريف بركات، و لم يقم له أحمد، و أخبر بما كان من القاضى فلم يكد يصدّق به. ثم دخل عليه القاضى فأظهر غاية الفرح و السرور بقدومه، و أمره بتفريق جنده و قال له: لا حاجة لك إلى هؤلاء فإنّما هم كثرة نفقة، ففرّقهم. فلما فعل ذلك كتب القاضى إلى الشريف أحمد يستقدمه، و يخبره بما تمّ له من المكيدة، و وعده بالقبض على أخيه إذا هو وصل مكة فى الحرم الشريف من غير مشقّة و لا كلفة، و يقال أنّ بعض خواص الشريف فعل ذلك مكيدة للقاضى فاستدرجه، و ظنّ القاضى صداقته، ثم أخذ الكتاب منه و دفعه إلى الشريف بركات. فلما وقف عليه أرسل إلى القاضى المذكور و أوقفه على الكتاب فأنكره، و قد سبقت له ضغائن فى قلبه، فأمر بالقبض عليه، و استصفى أمواله و سجنه عنده فى بيته، و قيّده و غلّه، و عصر عليه بالعصّارات، و صادر ولده و أخاه سيد الناس فى خمسة آلاف دينار و أطلقهما على ذلك. فبيعت ذخائرهم و كتبهم النفيسة، و انكسرت شوكتهم من ذلك اليوم، و لم تبق لهم باقية، و كانوا فى عظمة لا يقوم بها الوصف.

ثم أرسل الشريف بالقاضى أبى السعود إلى القنفذة فسجنه بها و عياله و خاصته- و كلّ أحد يغضب عليه والى مكة ينفيه إلى القنفذة- و لم يزل مسجونا بها إلى يوم الأحد ثانى ذى الحجة الحرام فجاء أمر الشريف إلى والى القنفذة بتغريق القاضى و أن لا يراجعه فى ذلك.

فأخرجه إلى البحر فى زورق و غرّقه فيه، و أولاده و عياله ينظرون إليه.

فنسأل اللّه العافية. و لم يبق الآن من بنى ظهيرة إلّا الشاذ النادر، و كان لهم بمكة قبل أن يوقع الشريف بالقاضى المذكور من الأمر و النهى ما لا يقصر عن ملوكها، حتى أنّ بنتا للقاضى المذكور قالت له: يا أبتى لم لا يعرض عليك العسكر كما يعرض على الشريف، لما رأت ما هم عليه من الشوكة و المنزلة.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۴۶

و هذا قصارى الدنيا، و غاية كلّ عليا، و الأيّام لا تلوى على أحد، و لا تألو أن تثلم كلّ حدّ، و تفرّق كلّ عدّ، و للّه الأمر من قبل و من بعد، و للّه درّ من قال:

و نهاية الدّنيا و غاية أهلهاملك يزول و ستر قوم يهتك

تحلو فتجلب غصّة و مرارةو تحبّ و هى بنا تصول و تفتك

و توفى الشريف بركات المذكور سنة إحدى و ثلاثين و تسعمائة.

و فى أيامه و أيّام ابنه أبى نمى انتقل ملك مصر إلى ملوك بنى عثمان، و ذلك فى سنة اثنتين و عشرين و تسعمائة، فأول من ملكها منهم و هو عاشرهم السلطان سليم بن السلطان بايزيد فجهّز إلى الشريفين المذكورين قاصدا بالاستقرار و الاستمرار و ذلك سنة ثلاث و عشرين و تسعمائة، و غلط من قال سنة تسع و عشرين. فكان السلطان المذكور أول من ملك الحرمين من آل عثمان.

و فى مفتاح الخير : لا يملك الحرمين إلّا ملك مصر. و كانت مصر قبل أن يملكها السلطان سليم لقانصوه الغورى فوقعت بينهما فتنة، و قصد كلّ منهما الآخر فى عسكرين عظيمين، فالتقيا فى موضع يقال له (مرج رابغ) من نواحى حلب شماليها مسافته منها نحو مرحلة، و كان المصاف و الوقعة يوم الأحد خامس عشرى رجب سنة اثنتين و عشرين و تسعمائة، و قيل: بل صبح يوم الخميس تاسع عشر ذى الحجة من السنة المذكورة. و دام الحرب و صابر الفريقان من أول النهار إلى ما بين صلاتى الظهر و العصر، ثم نزل نصر العثمانية، و انهزم الجراكسة، و قتل سلطانهم قانصوه المذكور، و فتح العثمانية البلاد الشامية، ثمّ المصرية، و كانت ولاية الغورى خمس عشرة سنة و تسعة

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۴۷

أشهر و خمسة و عشرين يوما.

و أوّل من ملك مكة من الأشراف من بنى حسن: أبو محمد جعفر بن محمد من بنى موسى الجون و كان ذلك بعد الأربعين و الثلثمائة. و كان حاكم مكة انكجور التركى من قبل العزيز باللّه الفاطمى، فقتله الأمير أبو محمد جعفر و استوت له تلك النواحى، و بقيت فى يده نيفا و عشرين سنة.

ثم ولى بعده أخوه عيسى بن محمد، فقتل و ولى الأمير أبو الفتوح الحسن بن أبى محمد جعفر.

ثم ولى بعده ابنه تاج المعالى شكر، و اشتهرت عنه حكاية غريبة فى الكرم، و من شعره:

قوّض خيامك عن أرض تضام بها و جانب الذلّ إنّ الذلّ مجتنب

و ارحل إذا كان فى الأوطان منقصةفالمندل الرّطب فى أوطانه خشب

و لما توفى سنة أربع و ستين و أربعمائة بقيت مكة شاغرة، فملكها حمزة بن وهاس من بنى سليمان، و قامت الحرب بينهم و بين بنى موسى سبع سنين، ثم خلصت للأمير محمد بن جعفر بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبد اللّه بن أبى هاشم، و يقال لهم: الهواشم، و بقيت الإمارة فى ولده إلى سنة

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۴۸

سبع و تسعين و خمسمائة فكان آخر من ولى منهم مكثر بن عيسى بن فليتة فغلب عليه الأمير أبو عزيز قتادة بن ادريس بن مطاعن و قتله فى السنة المذكورة، و ملك الحجاز سيفا و طرد عنها الهواشم، و الإمارة فى ولده إلى الآن، و يقال لهم القتادات، و أمير مكة فى زمننا هذا السيد الشريف، و الأيّد المنيف، المصدّر فى دست العظمة و الجلالة، و المتفرّع من دوحة النبوّة و الرسالة ذو الرياسة التى هى نار على علم، و السياسة التى جمع بها بين السيف و القلم، محيى آثار أسلافه الكرام، و واسطة ذلك العقد و النظام:

السيد الشريف زيد بن المحسن بن الحسين، أقرّ اللّه ببلوغ مراده النفس و العين. وليها و هى جمرة تخترم، و نار تضطرم، فأخمد نيرانها، و أمن جيرانها. و كانت ولايته سنة إحدى و أربعين و ألف، و له من العمر سبع و عشرون سنة. و قد أرّخ القاضى الفاضل، و الإمام النحرير الكامل تاج الدين بن أحمد المالكى ولادته ب (تاج الشرف)، و ولايته المنيفة ب (صدر الخلافة) و لعمرى أنّه التاج المكلّل بلآلئ المجد و الشرافة، و الصدر الذى امتلأ علما و حزما، و بأسا و رأفة، و فيه يقول:

مدائح زيد تكسب القول رونقافيسمو على زهر الكواكب و الزّهر

مليك به أقطار مكّة أصبحتمؤرّجة الأرجاء نافحة العطر

نمت فى رياض الملك سرحة فرعهو أفضى إليه ملك آبائه الغرّ

فمن ذا يوفّى قدره حقّ حمدهو أوصافه جلّت عن العدّو الحصر

و حسبى هذا القول فى كنه مدحهعن البسط فى النّظم المهذّب و النّثر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۴۹ فلست بمحص عدّ أوصافه و لوصرفت على مدحى له سائر العمر

و هذا نسبه الشريف:

هو زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن بن أبى نمى بن بركات بن محمد بن بركات بن الحسن ابن عجلان بن رميثة بن أبى نمى بن الحسن بن على الأكبر بن أبى عزيز قتادة بن ادريس بن مطاعن ابن عبد الكريم بن عيسى بن الحسين بن سليمان بن أبى محمد عبد اللّه بن محمد الثائر بن موسى ابن عبد اللّه الشيخ الصالح بن موسى الجون بن عبد اللّه المحض بن الحسن المثنى بن الحسن المجتبى ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب سلام اللّه عليه.

نسب يعير الشّمس نورا ظاهراو يقيم للفلك المنير عمودا

و لنعد إلى ما نحن بصدده:

و لما أنخنا بالقرية المذكورة الركائب، و حططنا الحقائب مكثنا بها أيّاما نجوس خلالها هياما، حتى أهاب داعى النّفر بالسّفر، و أذنت الحال بالارتحال، فجنحنا إلى ذلك البحر المتقارب، و امتطينا غارب القارب، فلما أقلعت السفينة عن المرسى، و دجى ليل الهموم و أغسى و جعلت تطير بلا جناح، يقودها القضاء المبرم و تزجيها الرياح، كأنّها سهم فارق و تره، أو حكم أمضى اللّه قدره، ترتفع تارة و تنخفض أخرى، و تميس طورا كأنّها لا تعقل سكرا. و ما ألطف قول أبى الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزار فى وصفها من أبيات:

أنظر الموج حولها فأخال الجيم تاء لخيفتى و هى جيم

لم أجد لى فيها صديقا حميماغير أنّى بالماء فيها حميم

شنقوا قلعها مرارا على الرّيح و لا شكّ أنّه مظلوم

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۵۰ يسجد الجرف كلّما ركع الموج فحسبى هنالك التّسليم

و تلطّف [أبو] على بن رشيق حيث يقول:

و لقد ذكرتك فى السّفينة و الردىمتوقّع بتلاطم الأمواج

و الجوّ يهطل و الرّياح عواصفو اللّيل مسودّ الذّوائب داج

و على السّواحل للأعادى غارةمتوقّعين لغارة و هياج

و علت لأصحاب السّفينة ضجّةو أنا و ذكرك فى ألذّ تناج

و فى المعنى للعلامة أبى حيان :

لقد ذكرتك و البحر الخضمّ طغتأمواجه و الورى منه على سفر

فى ليلة أسدلت جلباب ظلمتهاو غار كوكبها فى أعين البشر :

و الماء تحت و فوق المزن و أكفهو البرق يستلّ أسيافا من الشرّر

هذا و شخصك لا ينفكّ فى خلدىو فى فؤادى و فى سمعى و فى بصرى

و هذه الطريقة أوّل من أبدعها عنترة العبسى فى قوله:

و لقد ذكرتك و الرّماح نواهلمنّى و بيض الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السّيوف لأنّهالمعت كبارق ثغرك المتبسّم

و أخذ المتأخرون و زادوا عليه فأكثروا، و وقفت على مقاطيع كثيرة فى هذا الباب أحسنها ما تقدم لأبى على بن رشيق.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۵۱

ثم لم تزل السفينة ترتفع بنا و تنخفض، و ترتعش و تنتفض، و قد بلغت النفوس الحلاقم، و تجرّعت من البحر العلاقم، حتى شارفنا بقعة من الأرض، حقيرة الطول و العرض، فجنحنا إليها، و نزلنا عليها، و أرسينا بها ليلة، و قد عادت الحال حويله، و وددنا لو صار البحر دجيلة. فلما شعشع الصباح، أهاب بالسفينة داعى الرياح، فعلّق الشراع، و قد راع من فراق البقعة ما راع ثم غدونا نخوض تلك اللّجج، و نخاطر بالمهج، حتى أشرفنا على بندر جازان ، فقصدنا النزول به فلم يوافق أهل السفينة لاغتنامهم موافقة الريح، و يقال: إنّ بحر ساحله مغاص يخرج منه اللؤلؤ، لكنه ليس بجيّد، و قد يقذف البحر إليه العنبر.

و من الغريب ما استفاض خبره فى زماننا هذا: إنّ البحر كان قد ألقى إلى ساحل البندر المذكور قطعة عظيمة من العنبر لم يهتد إلى معرفتها أحد، و ظنوها صخرة، فكان الغسالون يغسلون عليها الثياب. و مضى على ذلك برهة من الزمان، حتى جاء بعض تجار زماننا البندر، و أسلم ثيابا له غسالا ليغسلها، فذهب بها الغسال إلى تلك الصخرة فغسلها عليها، و جاء بالثياب إلى التاجر، فعرف منها رائحة العنبر، و سأل الغسال هل طيّب هذه الثياب؟ قال: لا، قال:

فأين غسلتها؟ قال: على صخرة على الساحل، قال: فاذهب بى إليها، فذهب به فلما رآها علم أنّها غنيمة عظيمة، فتركها ثم جاءها ليلا و اقتلعها على حين غفلة، فلما أصبح الغاسلون فقدوا الصخرة، فأخبرهم الغسال بما كان من أمره مع التاجر، فعلموا أنّ لها شأنا، فذاع الخبر و نمى إلى الوالى فصادر التاجر حتى أظهر منها قطعة صغيرة، و صالحهم على شىء من المال و احتوى على سائرها، فعظم شأنه و كان هذا العنبر سبب غناه، و اللّه المغنى.

و قد اختلف فى أمر العنبر فقيل: إنه ينبت فى البحر و له رائحة ذكيّة.

قال الشافعى: سمعت من قال: رأيت العنبر نابتا فى البحر مثل عنق الشاة، و قال: حدثنى بعضهم أنّه ركب البحر فوقع إلى جزيرة فيه، فنظر إلى شجرة

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۵۲

مثل عنق الشاة فإذا ثمرها عنبر، قال فتركناه حتى يكبر فنأخذه، فهبّت ريح فألقته فى البحر.

و قيل: إنّه روث دابة، و قيل: إنّه من غثاء البحر.

قال الزمخشرى: سمعت ناسا من أهل مكة يقولون: هو من زبد البحر، و قيل: إنّه يأتى طغاوة على الماء لا يدرى أحد معدنه، فلا يأكله شىء إلّا مات، و لا ينقره طائر إلّا بقى منقاره فيه، و لا يقع عليه إلّا نصلت أظفاره فيه، و قيل: إنّ بعض دواب البحر تأكله لدسومته فتقذفه رجيعا، فيوجد كالحجارة الكبار يطفو على الماء فتلقيه الريح إلى الساحل.

و ذكر المسعودى: إن العنبر يقذفه البحر كأكبر ما يكون من الصخور.

و قال ابن سينا: أجود العنبر الأشهب، ثم الأزرق، ثم الأصفر، ثم الأسود، قال: و كثيرا ما يوجد فى أجواف السمك الذى تأكله و تموت.

و الدابة التى تأكله تدعى: العنبر.

قال المختار بن عبدون : العنبر حار يابس و هو دون السمك، و هو يقوّى القلب و الدماغ، و يزيد فى الروح، و ينفع من الفالج، و اللّقوة، و البلغم الغليظ، و يولّد الشجاعة. لكنّه يضرّ من اعتاده، و تدفع مضرّته بالكافور و شمّ الخيار، و يوافق الأمزجة الباردة الرطبة، و المشايخ. و أجود ما يستعمل فى الشتاء، قال: و جماجم العنبر أكبرها ألف مثقال، تبرز من عيون فى البحر و تطفو عليه، و له زهومة لابتلاع السمك، و يتصفّى منه عند عمله رمل.

و الذى حقّقه صاحب الاختيارات: إنّه شمع، قال: و كلّما كان أشدّ بياضا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۵۳

و خفّة كان أجود. و العنبر: سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التّراس، و يقال للترس: عنبر، و قد يقال لهذه السمكة: البال.

قال القزوينى: البال: سمكة طويلة، طولها خمسمائة ذراع أو أطول، و يظهر فى بعض الأوقات طرف جناحها كالشراع العظيم. و أهل المراكب يخافون منها أعظم خوف، فإذا أحسّوا بها ضربوا لها بالطبول لتنفر عنهم. فإذا بغت على حيوان البحر بعث اللّه سمكة نحو الذراع تلصق بأذنها و لا خلاص للبال منها، فتطلب قعر البحر و تضرب الأرض برأسها حتى تموت و تطفو على الماء كالجبل العظيم، و لها أناس يرصدونها من تحت الريح، فإذا وجدوها طرحوا فيها الكلاليب و جبذوها إلى الساحل، و شقوا بطنها و استخرجوا العنبر منها ، انتهى.

قلت: و لهذه السمكة حديث عجيب رواه البخارى و هو مشهور .

و السمك أنواع كثيرة، و لكلّ نوع اسم خاص، و منها ما لا يدرك الطرف أولها و آخرها لكبرها، و ما لا يدركها الطرف لصغرها، و كلّه يأوى الماء و يستنشقه كما يستنشق حيوان البرّ الهواء بالأنوف، و يصل بذلك إلى قصبة الرئة.

و السمك يستنشق بأصداغه فيقوم له الماء فى تولّد الروح الحيوانى فى قلبه مقام الهواء، و إنما استغنى عن الهواء فى إقامة الحياة و لم نستغن نحن عنه و ما أشبهنا من الحيوان، لأنّه من عالم الماء و الأرض دون عالم الهواء و نحن من عالم الماء و الأرض و الهواء- قاله الدميرى فى حياة الحيوان الكبرى- و هو صريح فى أن الهواء لا يدخل جوفه. و قال أيضا لا يدخل جوفه هواء البتّة.

و فى المسائل الطبيعية للحكيم أرسطا طاليس ما يدلّ على خلاف ذلك، فإنه قال: ما بال السمك يعيش فى الماء، فإذا خرج منه إلى الهواء تلف؟ لأن

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۵۴

قلب السمك بارد جدّا فلذلك يحتاج إلى نفس قليل يجتذبه بمجار ضيّقة، و الماء لكونه أغلظ فما يصل إلى نفسه فى تلك المجارى من الهواء شىء يسير، فإذا برد الهواء فما يصل إلى نفسه أكثر، لأنه ألطف، فإذا برد الهواء فى قلبه بردا مفرطا تلف، انتهى. و هذا صريح فى أن الهواء يدخل جوفه، و اللّه أعلم بالواقع.

و قال الجاحظ: السمك يسبح فى غمر الماء و لا يسبح فى أعلاه، و نسيم الهواء الذى يعيش به الطير لو دام على السمك ساعة قتله.

و استثنى الغزالى نوعا لا يضرّه الهواء، قال: و من السمك نوع يطير على وجه البحر بمسافة طويلة ثم ينزل.

قلت: و قد رأيت أنا هذا السمك الطيّار على وجه البحر. و ما أحسن قول ابن التلميذ يصف السمك:

لبسن الجواشن خوف الرّدىو علّين من فوقهنّ الخوذ

فلمّا أتيح لها أهلكتببرد النّسيم الذى يستلذ

و سنذكر جملة من أخبار البحر و عجائبه فيما يأتى إذا أفضت النوبة إليه إن شاء اللّه تعالى.

رجع- و ما زالت السفينة تنساب بنا انسياب الحيّة حتى وصلنا بندر (اللحيّة) فامتطينا صهوة الزورق، و ظننا أنّ غصن الخلاص قد أورق و نزلنا البندر المعمور، فألفيناه بكلّ خير مغمور، و فيه من أنواع الفواكه ما يلتذّ به كلّ

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۵۵

مفاكه، فما ظنك بسقيم بحر ناقه، من موز كمكاحل الذهب، و رطب كظلم الحبيب إذا وهب، و أعناب كالدرر المسلوكة، و حلاوات كالدنانير المسبوكة.

فقضينا به يومنا، و استطبنا فيه نومنا. و كان فيه أول مشاهدتنا للكفرة أولى الجحيم، فاستعذنا باللّه تعالى من الشيطان الرجيم. و لم يكن يقع النظر قبل ذلك على أحد ممّن هو على غير ملّة الإسلام- عصمنا اللّه بهدى صاحبها عليه أفضل الصلاة و السلام- و حاولنا المرسول إلينا، و الموكّل علينا فى السفر من البرّ، فقد سئمت النفوس مكابدة ذلك البحر الأغبر فأبى إلّا السفر على الماء، و امتطاء تلك المطيّة الدهماء. فعدنا و فى النفوس من الألم ما اللّه سبحانه به أعلم. و ما ألطف قول القائل:

البحر أهون من مرارة مائهأن تستقرّ بأضلعى الرّمضاء

فعليه يوم مضيفنا بفراقهمن كلّ قلع راية بيضاء

و ما كان منعه من ذلك إلّا فرارا من الانفاق، و خلافا للوفاق. و كان ممن يرى دخول النار، و لا خروج الدينار، و وصال الهمّ، و لا فراق الدرهم.

الشمس أقرب من دينار صرّتهو الصّخر أندى يدا منه لطالبه

و أبدع البديع فى وصف بخيل فقال: قد جعل يمينه أمينه، و دانيره سميره، و درهمه شقيقه، و مفتاحه رفيقه، و صندوقه صديقه، و خاتمه خادمه.

و بالغ من قال و تلطّف :

إنّ هذا الفتى يصون رغيفاما إليه لناظر من سبيل

فهو فى سفرتين من أدم الطّائف فى جونتين فى منديل

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۵۶

و كان بعضهم شديد العناية بأمر المال كثير الضنّ به، فإذا قيل له فى ذلك أنشد:

كلّ النّداء إذا ناديت يخذلنىإلّا النّداء إذا ناديت يا مالى

و كان المبرّد يقول: الدرهم ذو جناح إن حرّكته طار، و الدينار محموم إن أزعجته مات.

و من كلام الكندى لابنه: إنّ مالك إذا خرج من يدك لم يعد إليك، و ليس كان مثل يكون. و مثل الدرهم مثل الطير هو لك مادام فى يدك، فإذا طار فهو لغيرك. و أعرف بيتا قد أبات أكثر من مائة ألف إنسان فى المساجد، و هو قول القائل :

فسر فى بلاد اللّه و التمس الغنىتعش ذا يسار أو توت فتعذرا

فاحذر بنىّ أن تلحق بهم، و تكون منهم. و لتكن مع الناس كلاعب الشطرنج تحفظ شيئك و تأخذ بشىء غيرك.

و كان هذا الرجل إذا صار الدرهم فى يده خاطبه و ناجاه، و فدّاه و استبطاه و قال: بأبى أنت و أمى كم من أرض قطعت، و كيس خرقت، و كم من خامل رفعت و من رفيع بمفارقتك إيّاه أخملت. لك عندى ألّا تعرى و لا تضحى، ثم يلقيه فى كيسه و يقول: أسكن على بركة اسم اللّه فى مكان لا تزول عنه و لا تزعج منه.

و من نوادر البخلاء ما حكاه محمد بن أبى المعافى التميمى قال: كان أبى منتحيا عن المدينة، و كانت إلى جنبه مزرعة فيها قثّاء، و كنت صبيّا قد ترعرت، فجاءنى صبيّان من جيراننا، و كلّمت أبى ليهب لى درهما أشترى به قثّاء، فقال لى: أتعرف حال الدرهم؟ كان فى جحر جبل، فضرب بالمعاول حتى استخرج، ثم طحن، ثم جعل فى القدر و صب عليه الماء، و جمع

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۵۷

بالزئبق، ثم أدخل النار فسبك، ثم أخرج فضرب، و كتب فى أحد شقّيه: لا إله إلا اللّه، و فى الآخر: محمد رسول اللّه، ثم وجّه إلى أمير المؤمنين فأمر بإدخاله بيت ماله، و وكّل به عوج القلانس صهب السبال ، ثم وهبه لجارية حسناء و أنت واللّه أقبح من قرد، أو رزقه رجلا شجاعا و أنت واللّه أجبن من صفرد ، فهل ينبغى لك أن تمسّ الدرهم إلّا بثوب، أو تراه إلّا من بعد؟

و فى الحديث: إنّ أوّل من ضرب الدينار و الدرهم حين استخراج المعادن آدم (ع) و قال: لا تصلح المعيشة إلّا بهما.

و ذكر وهب بن منبّه : إنّ فى التوراة: الدينار و الدرهم خواتيم رب العالمين، من جاء بخاتم ربّ العالمين قضيت حاجته.

و كان أنوشروان يقول: من زعم أنّه لا يحبّ المال فهو عندى كاذب حتى يصدق، فإذا ثبت صدقه فهو عندى أحمق.

و كان الحصين يقول: وددت لو أنّ لى وزن رضوى ذهبا لا أنتفع منه بشىء، قالوا: فما يجدى عليك إذن؟ قال: تعظمنى له حمقى الرجال. و قال محمود الوراق :

أرى كلّ ذى مال يبرّ لمالهو إن كان لا أصل هناك و لا فصل

فشرّف ذوى الأموال حيث لقيتهمفقولهم قول و فعلهم فعل

و تلطّف الشيخ الفاضل شرف الدين يحيى بن عبد الملك العصامى من

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۵۸

فضلاء العصر حيث يقول:

إنّ الدّراهم مرهمقد جاء فى تصحيفها

فدع التطيّر قائلاالهمّ بعض حروفها

ثم سرنا ليالى و أياما نلاطم تلك الأمواج لطاما حتى وافينا جزيرة (كمران)- بفتح الأحرف الثلاثة- و هى جزيرة محيط بها البحر، إلّا أن ماءها فى غاية العذوبة، و بها مسجد عظيم، و أشجار و فواكه، و إليها ينسب الملح الكمرانى الذى لا يوجد مثله فى غيرها، و هو لا يستعمل إلّا دواء لشدّة ملوحته، ينفع لأمراض كثيرة، و لا يدانيه شىء من أقسام الملح فى نقاوته و صلابته. و فيها مدفن الشيخ الكبير الشهير محمد بن (عبد ربّه) المشهور بالورع و الزهد، و ضريحه بها من المزارات المشهورة. قال اليافعى: تفقه على الشيخ أبى اسحاق الشيرازى فى بغداد بكتاب المهذب، و هو أوّل من دخل به إلى اليمن. و قال ابن سمرة: كانت النواخيذ و أهل الجلالات يأتون للسلام عليه، و يقبلون رأسه و هو قاعد، و كان كثير الزهد و الورع متحرّيا فى المطعم، لا يأكل إلّا الأرز من بلاد الهند، و كان عبيده يسافرون إلى الحبشة و الهند و مكة للتجارة، فحصلت له أموال، فكان ينفق على الطلبة منها. و له تصنيف فى أصول الفقه سمّاه الإرشاد، و ارتحل إليه خلائق من فقهاء اليمن من بلدان شتى لعلمه وجوده. و كان له ولد عالم بعلم الكلام و الأصول، مع تبريز فى الفقه يسمى عبد اللّه تفقّه بأبيه و مات قبله فى سنة ثلاث و عشرين و خمسمائة، و دفن بالجزيرة المذكورة، فرثاه بعض فقهاء اليمن بقصيدة طويلة يقول فى بعضها:

أمن بعد عبد اللّه نجل محمّديصون دموع العين من كان مسلما

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۵۹ و قد غاض بحر العلم مذ غاب شخصهو لكنّ بحر الوجد من بعده طما

قال اليافعى: و كان الشيخ المذكور قد ابتلى بذهاب البصر، فقال عند ذلك مخاطبا نفسه:

و قالوا قد دهى عينيك سوءفلو عالجته بالقدح زالا

فقلت الربّ مختبرى بهذافإن أصبر أنل منه الجلالا

و إن أجزع حرمت الأجر منهو كان خصيصتى منه الوبالا

و إنّى صابر راض شكورو لست مغيّرا ما قد أنالا

صنيع مليكنا حسن جميلو ليس لصنعه شىء مثالا

و ربّى غير متّصف بحيفتعالى ربّنا عن ذا تعالى

و توفى سنة خمس و عشرين و خمسمائة عن ثمان و ثمانين سنة، و دفن بجنب ولده، و قبراهما هنالك بجنب المسجد يزورهما الصالحون و غيرهم، و اللّه أعلم.

و لم نقم فى هذه الجزيرة إلّا نصف نهار حتى عدنا إلى اقتحام التيار و استلام ذلك الفلك السيّار. فسرنا و البحر المديد دائرته مختلفة، و لم نر مع وافر دوائره دائرة مؤتلفة، و السفينة قد اشتملت بشراعها الصماء، و تشاممت و هى كما قيل: أنف فى السماء و أست فى الماء، فلم نزل كذلك حتى جئنا (بندر الحديدة)، و قد أبدى فينا السأم أيده، فألفيناها عامرة بالخيرات، غامرة بالميرات، و فيها من أنواع الرطب ما يلهى عن استماع الخطب، و من أقسام النّوار ما يسلّى الفرزدق عن النّوار، فعلمنا أنّ تصغيرها ليس للتحقير، بل يعذب اسم الشىء بالتصغير، فأقمنا بها ثلاثة أيام حتى قضينا منها المرام.

ثم أقلعنا منها للمسير مستبشرين بأن لم يبق من التّعب إلّا اليسير، و إن

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۶۰

كنّا مع أعظم من هذا على وعد، و لكن المشيئة للّه فيما بعد. فرحنا نكابد الأهوال، و نقاسى حؤول الأحوال، إلى أن أسفر الصبح عن ثانى شهر رمضان المعظّم فوافينا (المخا) معدن الأمن و الرّخا، و ألفيناها عارية إلّا من الإيناس. خالية إلّا من كرام الناس، فكأن أوّل من تلقّانا فيها ببشره، و هفا علينا بطيب خلقه و نشره: و اليها الباسق فى دوحة النبوّة غصنه النضير، المشرق فى فلك الفتوّة بدره المنير، الخافقة رايات عزّه و سعده، الثابتة آيات فخره و مجده، ذو الأخلاق التى دلّت على طيب الأعراق، و المكارم التى انعقد عليها الإجماع و الاتفاق، من لم يزل العزّ الباذخ به يهيم مولانا السيد زيد بن على بن ابراهيم :

له صحائف أخلاق مهذّبةمنها العلى و النّهى و المجد ينتسخ

لا زالت الأقلام لمدائحه ناظمة ناثرة، و آيات فواضله فى سائر الأقطار سارية و سائرة. و لعمرى أن الأطناب فى نشر مزاياه الشريفة علىّ دين، و لكن لست بقائل فيه إلّا ما قاله نادرة بأخرز فى السيد الرئيس ذى المجدين .

(لو ذهبت أصف ما تلقّانا به من تشريف و تقريب، و أهّلنا من تأهيل و ترحيب، لخرجت من شرط هذا الكتاب، و استهدفت من ألسنة النقّاد لسهام العناد. أمّا الأدب فمنه و إليه، و معوّل أرباب الصناعة عليه، و أمّا الخلق فكما يقتضيه الإسلام، و كأنّه منتسخ من أخلاق جدّه عليه السلام، و أمّا الجاه فمسلّم له غير منازع فيه، و أمّا المحلّ فسلّم لا يسلم من الزلل مرتقيه، و أمّا السياسة فقد القت إليه الأرسان، و أمّا الرئاسة فقد فرشت له رفرفها الخضر و عبقريّها الحسان).

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۶۱

و هذا مكان غرر من كلماته، و درر من حصياته تلوح عليهما سيماء النبوّة، و تحيط بحواليهما سيماء المروّة.

أخبرنى شيخى الأفضل، و أستاذى الأكمل، مجمع الفضائل و الآداب، و مرجع الأفاضل فى كلّ باب، الشيخ جعفر كمال الدين البحرانى بلّغه اللّه غايات الأمانى، قال: اجتمعت بالسيد المنوّه باسمه فى البندر المذكور سنة ثمان و ستين- فأنشدنى لنسه:

و لى عتب على قوم أساءوامعاملتى و سامونى اغترارا

جنوا عمدا و ما راعوا حقوقاو ما اعتذروا و سامونى صغارا

سأضرب عنهم صفحا و أغضىمخافة أن أقلّدهم شنارا

و لو أنّى ركبت متون عزمىإذن لسقيتهم مرّا مرارا

و لو أنّى هممت بأخذ حقّىلولّونى ظهورهم فرارا

قلت: و عندى أنّ الملح الأجاج لو مزج بمجاج هذه الأبيات لعاد عذبا، و السيف الكهام لو سنّ على هذا الكلام لصار عضبا.

قال شيخنا المذكور: و سألنى أن أقول شيئا يناسب المقام فقلت:

لك العتبى و منك الصّفح يرجىإذا لم تستبن منهم وقارا

و إن هم قد جنوا عمدا و جهلاو ما راعوا و ما طلبوا اعتذارا

فإنّ البدر لا يثنيه شىءمن العجما ضباحا أو جؤارا

و أنت على أذاهم ذو اقتدارعلىّ إن تسامى أو تبارى

فطب نفسا فكلّهم ذليللعزّتك اختيارا و اضطرارا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۶۲

و مما يدوّن من عظيم حلمه، و حسن خلقه و خيمه ما شاهدته منه، و ذلك أنّى كنت مسايرا له يوما فى موكبه، فاعترضه رجل مصرى من زهاة الناس، فدنا منه حتى أخذ بركابه و قال: أيها الوالى، أنا منذ أربعة أشهر فى بلدك و لم ينلنى منك شىء، و لم تتفقد لى

حالاـ فقـال السـيد: و ما علمى أيّها الرجل بمكانك، و لم تتعرف إلينا فنعرفك، و لا جئتنا فنصـلك، على أنّى لم أرك إلّا فى ساعتى هـذه، فقال الرجل: واللّه ما ظننت أنّ مثلك لا يعرف الـداخل ببلده و الخارج منها، و إن لم تتلاف الأمر طلعت إلى الإمام و شـكوتك إليه.

و زاد فى الكلام حتى أفحش، و السيد مع ذلك صاغ إليه، مبتسم من كلامه.

فلما انتهى إلى بيته استدعاه و وصله بشيء و صرفه.

و هذا مستحيل الكون فى زماننا معدوم مفقود، بل الضدّ منه هو ما تحلّى به رؤساء العصر و أظهروه من أخلاقهم، و اللّه الموفق.

و مما جاء من تحلّم الرعاة و الرؤساء و كظمهم عن الزهاة السـفهاء ما يحكى: أنّ طائفـة من الناس كانوا على عهـد المعتضـد يجتمعون بباب الطاق و يجلسون فى دكان شيخ صـيدلانى، و يخوضون فى الفضول و الأراجيف، و فنون الأحاديث، و فيهم قوم سراة، و كتّاب، و أهل بيوتات، سوى من يسترق السـمع منهم من خاصـة الناس. و قد تفاقم فسادهم و إفسادهم، فضاق المعتضد ذرعا، و امتلأ غيظا، و حرج صدره، و دعا بعبيد اللّه بن سـليمان و رمى بالرفيعة إليه و قال: أنظر فيها و تفهّمها. ففعل و شاهد من تربّد وجه المعتضد ما أزعج ساكن صدره، و شرّد إلف صبره و قال: قد فهمت

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۶۳

يا أمير المؤمنين. قال: فما الـدواء؟ قال: تتقدم بأخذهم، و صـلب بعضـهم، و إحراق بعضـهم، و تغريق بعضـهم، فإن العقوبة إذا اختلفت كان الهول أشدّ، و الهيبة أتمّ، و الزجر أنجع، و العامة بها أخوف. فقال المعتضد: واللّه لقد برّدت لهب غضبى بقسوتك هذه، و نقلتنى إلى اللّين بعد الغلظة، و حضضت على الرفق من حيث أشرت بالخرق، و ما علمت أنّك تستجيز هذا فى دينك و هديك و حلمك. و لو أمرتك ببعض ما رأيت بعقلك و حزمك لكان من حسن المؤازرة و مبـذول النصيحة، و النظر للرعيّة الضـعيفة الجاهلة أن تسألنى الكفّ، و تبعثنى على الحلم، و تحبّب إلىّ الصـفح، و ترغّبنى فى فضل الأغضاء على هذه الأشياء، و قد ساءنى جهلك بحدود العقاب، و بما يقابل به الجرائر فيما يكون كفاء للـذنوب، و لقـد عصـيت اللّه بهـذا الرأى، و دلّلت على قسوة القلب، و رقّة الديانة. أما تعلم أنّ الرعيّة وديعـة اللّه عنـد سـلطانها، و أنّ اللّه سائله عنها و لا يسألها عنه. ألا تدرى أنّ أحدا من الرعيّة لا يقول ما يقول إلّا لظلم لحقه، أو لحق جاره، أو داهية نالته أو نالت صاحبا له. و كيف نقول لهم كونوا صالحين أتقياء مقبلين على معائشكم، غير خائضين فى حديثنا، و لاـ سـائلين عن أمرنـا و العرب تقـول فى كلامهـا: غلب علينـا السـلطان فلبس فروتنـا، و أكـل خضـرتنا، و حقّ المملوك على المـالك معروف. و إنّما يحتمل السيّد على ضـروب تكاليفه، و مكاره تصاريفه إذا كان العيش فى كنفه واسعا، و الأمل فيه قويّا، و الصدر عليه باردا، و القلب معه ساكنا. أتظنّ أنّ العمل بالجهل ينفع، و العذر به يتّسع؟ واللّه ما الرأى ما رأيت، و لا الصواب ما ذكرت.

وجّه صاحبـك، و ليكن ذا خبرة و رفق، و معروفـا ببرّ و صـدق حتى يتعرّف حـال هـذه الطائفـة، و يقف على شـأن كلّ واحـد منها فى معائشه و دخله، و قـدر ما هو متقلّب فيه و إليه، فمن كان منهم يصـلح لعمل فعلّقه بعمل، و من كان سـيّىء الحال فصـله من بيت المال بما يعيد نضـرة حاله، و يفيد طمأنينة باله، و من لم يكن من هذا الرّهط، بل هو غنىّ و مكفىّ و إنما يخرجه إلى دكان هذا الرجل البطر و الزهو فـادع به، و انصـح له و لاـطفه، و قل له: إن لفظك مسـموع، و كلامك مرفوع، حتى [إذا] وقف أمير المؤمنين على كنه ذلك (لم

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۶۴

تجـدك) إلّا فى عرصـة المقابر، فاسـتأنف سـيرة تسـلم بها من سـلطانك، و تحمد عليها عند أخوانك، و إيّاك أن تجعل نفسك عظة لغيرك بعد أن كان عظة لك. و لولا أنّ الأخذ بالجريرة الأولى مخالف للسيرة المثلى لكان ما تراه تودّ لو أنّك تسمعه قبل أن تراه.

فإنّك يا عبيد اللّه إذا فعلت ذلك فقد بالغت فى العقوبة (و ملكت طرفى المصـلحة) و قمت على سواء السـياسة، و نجوت من الجور و المأثم فى العاقبة.

قال: و فارق الوزير حضرة الخليفة، و عمل بما أمره به على الوجه اللّطيف، فعاد الأمر يرفّ بالسلامة العامة، و العافية التامة.

و تقدّم إلى الشيخ الصيدلانى برفع حال من يقعد عنده حتّى يؤاسى إن كان محتاجا، أو يصرف إن كان متعطّلا، أو ينصح إن كان غفلا.

و هذا من أجلّ الكرم و الحلم، و أعظم التدبير و الحزم.

و فسّر عكرمة قوله عزّ و جل وَ سَيِّداً وَ حَصُوراً بأن السيّد هو الذى يغلب غضبه حلمه، و جهله علمه. و لما نزل قوله تعالى خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ قال جبرئيل (ع): يا محمد، هو أن تحلم عمّن شتمك، و تعفو عمّن ظلمك، و تعطى من حرمك.

و كان الواثق فى الخلفاء من المشتهرين بالحلم، المنتشر ذكرهم بالعفو و كظم الغيظ.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۶۵

كان المسدود المغنى هجاه ببيتين كانا معه فى رقعة، و فى رقعة أخرى حاجة له يريد أن يرفعها إليه، فناوله رقعة الشعر و هو يرى أنّها رقعة الحاجة، فقرأها الواثق فإذا فيها:

من المسدود فى الأنف‌إلى المسدود فى العين

أنا طبل له شقّ‌فيا طبلا بشقّين

و كان فى عين الواثق نقطة بيضاء، فلما قرأ الرقعة قال للمسدود:

(غلطت بين الرقعتين فاحذر أن يقع مثل هذا عليك) و ما زاد على هذا القول شيئا و لا تغيّر له عمّا كان عليه.

و فى بعض الخطب: ابسطوا أعنّة حلمكم و اطلقوها، و احبسوا نوازى غضبكم و أوثقوها، و احسنوا معاشرة من يجاملكم و يواصلكم، و اتركوا معاشرة من يداخلكم و يغايلكم، و لا تمرّوا فى الغيظ على غلوائكم، و لا تظهروا على أحد صولة جوركم و اعتدائكم، و اثبتوا على الكظم إن وجدتم قدما، و اقصدوا فى المشئ إن كان طريقكم أمما، و تجافوا عن ذنوب الأصدقاء، و تصاموا عن الكلمة العوراء و مما أنشد فى هذا المعنى:

و عوراء جاءت من أخ فرددتهابسالمة العينين طالبة عذرا

و لو أنّه إذ قالها قلت مثلهاو لم أعف عنه أورثت بيننا غمرا

فأغضيت عنه و انتظرت بها غدالعلّ غدا يبدى لمنتظر أمرا

لا نزع حقدا كامنا فى فؤادهو أقلم أظفارا أطال بها حفرا

و ما أحسن هذا الوصف :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۶۶ و أحلام عاد لا يخاف جليسهمو إن نطق العوراء غرب لسان

إذا حدّثوا لم يخش سوء استماعهمو إن حدّثوا أدّوا بحسن بيان

رجع: و كان السيد المنوّه باسمه واليا على المخا من جهة إمام اليمن المتوكل على اللّه اسماعيل ابن القاسم الزيدى الحسنى و هو محتو على جميع اليمن فى زماننا هذا غير منازع، و ينتهى نسبة إلى ابراهيم طباطبا بن الحسن المثنى بن الحسن بن على (ع). و قد رأيت نسبه مثبتا بخط يحيى بن الحسين بن المؤيد أخى الإمام اسماعيل المذكور، و ها هو قد نقلته منه بنصّه فهو:

اسماعيل بن القاسم بن محمد بن على بن محمد بن على بن الرشيد بن أحمد بن الأمير الحسين بن على بن يحيى بن محمد بن يوسف الملقّب بالأشل بن الإمام الداعى إلى اللّه المنصور باللّه يحيى بن الإمام الناصر لدين اللّه أحمد بن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين الحافظ بن الإمام الأعظم نجل آل الرسول القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين و سيد الوصيين على بن أبى طالب صلوات اللّه و سلامه عليه.

و فى العمدة : أنّ يحيى الهادى بن الحسين الحافظ خطب له بمكة سبع سنين، و كان قد خرج باليمن أيام المعتضد سنة ثمانين و

مائتين، و هذا يدلّ على بطلان ما نقلنا فيما تقدم عن مفتاح الخير من أنّه لا يملك الحرمين إلا ملك مصر.

و كان شيخنا الشيخ جعفر اجتمع بالإمام اسماعيل المذكور، فأنشده

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۶۷

الإمام قول الشيخ تقىّ الدين ابن دقيق العيد فى مدح اليمن، و كتبه له بخطّه فى تذكرته، و هو:

تجادل أربا الفضائل إذ رأوابضاعتهم موكوسة الحظّ فى الثّمن

و قالوا عرضناها فلم نلف راغباو لا من له فى مثلها نظر حسن

فلم يبق إلّا رفضها و اطّراحهافقلت لهم لا تعجلوا السّوق فى اليمن

قال مولانا الشيخ: فقلت مادحا له لما رأيت من شغفه بهذه الأبيات بقولى و فيه لزوم ما لا يلزم:

نعم قد وجدناها فإن كنت راغبافقرن أمير المؤمنين أبى الحسن

أليف النّدى بحر الهدى كاشف الصدىو مصقع أرباب البلاغة و اللّسن

و ذاك الذى قد سيط بالقلب حبّه‌كما سيط حبّ النّوم بالعين و الوسن

فائدة: اليمن حدّه مما يلى مكة: الموضع المعروف بطلحة الملك سبع مراحل، و من صنعاء إلى عدن و هو آخر عمل اليمن تسع مراحل [و المرحلة من خمسة] فراسخ إلى ستة، و الحد الثالث من حكم، وجا إلى ما بين مفاوز حضرموت و عمان عشرون مرحلة، ويلى الوجه الثالث بحر اليمن و هو

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۶۸

بحر القلزم و الصين و الهند. فجميع ذلك عشرون مرحلة فى ست عشرة مرحلة، كذا فى مروج الذهب للمسعودى. و فى بغية المستفيد فى أخبار زبيد : اليمن يمنان، أعلى و أسفل، فالأعلى قصبته صنعاء و هى إحدى جنان الأرض و قصرها غمدان من أعظم العجائب الذى عمّره سام بن نوح عند بنائه صنعاء، و أمّا اليمن الأسفل فقصبته زبيد. انتهى ملخصا.

قلت: و قد اختلف فى العلّة التى من أجلها سمّى اليمن يمنا، فقيل:

ليمنه، و قيل: لأنه يمين الكعبة، و قيل غير ذلك، و هو خلاف لا ثمرة فيه.

و أما غمدان فقد اختلف فى بانيه، و فى القاموس (غمدان) كعثمان:

قصر فى اليمن بناه (ليسرح) بأربعة وجوه: أحمر، و أبيض، و أصفر، و أخضر، و بنى داخله قصرا بسبعة سقوف، بين كل سقفين أربعون ذراعا. و قيل أنّه من عمل الجنّ لسليمان (ع).

و فى مروج الذهب: إنّ بانيه الضحّاك، و هو البيت الخامس من البيوت المعظّمة المتخذة على أسماء الكواكب. قال: و كان الضحّاك بناه على اسم الزهرة، و خرّبه عثمان بن عفان، فهو فى وقتنا هذا خراب قد هدم فصار تلّا عظيما كأنّه لم يكن. و كان أسعد بن يعفر صاحب قلعة كحلان، و صاحب مخاليف اليمن أراد أن يبنى غمدان فأشار عليه يحيى بن الحسين الحسنى الرسّى أن لا يعرض لشىء من ذلك، إذ كان بناؤه على يد غلام يخرج من بلاد سبأ و أرض مأرب يؤثر فى صقع هذا العالم تأثيرا عظيما.

و قد قيل: إنّ ملوك اليمن كانوا إذا قعدوا فى هذا البنيان بالليل، و اشتعلت الشموع رأى الناس ذلك على مسيرة أيّام كثيرة واللّه أعلم.

و هو الذى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۶۹

عناه الشاعر بقوله:

اشرب هنيا عليك التاج مرتفقافى رأغمدان دارا منك محلالا

و من الآثار الغريبة باليمن عرش بلقيس، قال فى معجم البلدان: حدثنى الإمام الحافظ أبو الربيع سليمان بن الريحانى قال: شاهدت

موضعا بينه و بين ذمار يوم، و قد بقى من آثاره ستة أعمدة رخام عظيمة، و فوق أربعة منها أربعة، و دون ذلك مياه كثيرة جارية و حفائر، ذكر لى أهل تلك البلاد أنه لا يقدر أحد على خوض تلك المياه إلى تلك الأعمدة، و أنّه ما خاضها أحد إلّا عدم. و أهل تلك البلاد متفقون على أنّه عرش بلقيس. انتهى.

قلت: إن صحّ ذلك فلعلّ عرش بلقيس كان يوضع على هذه الأعمدة، و إلّا فوصفه فى التفاسير غير هذا الوصف، و لم يقل أحد أنه كان مبنيّا أو مصنوعا من رخام، بل المروى أنّه كان من فضّة و ذهب مرصّعا بالياقوت و الجواهر. و فى الكشف و البيان للثعلبى: إنّ عرشها كان سريرا ضخما حسنا، و كان مقدمة من ذهب مفصص بالياقوت الأحمر، و الزمرّد الأخضر، و مؤخره من فضة مكلّل بألوان الجواهر، و له أربع قوائم: قائمة من ياقوت أحمر، و قائمة من ياقوت أصفر، و قائمة من زمرّد أخضر، و قائمة من درّ أبيض، و صفائح السرير من ذهب. انتهى.

و ما أظن هذا خفى على صاحب المعجم لكنه نقل كما سمع على جارى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۷۰

عادته فى كتابه. و كانت اليمن هى مقر ملوك التبابعة و غيرهم من ملوك العرب، و هى من الإقليم الثالث، و أسلم أهلها سلما على عهد النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلم، و ورد بفضلها كثير من الأخبار و الآثار، و وصفها بعض العرب فقال: تضعف الأجسام، و تقوى الأفهام. لأهلها هم كبار، و لهم أحساب و أخطار، مغايضه خصبة و أطرافه جدبه، فى هوائه انقلاب، و فى سكانه اغتيال ، و لهم قطعة من الحنين، و شعبة من الرقّة، و فقرة من الفصاحة.

و كانت لشيخنا المذكور مع إمام اليمن اسماعيل المقدّم ذكره مناظرات، و منها الكلام على المنزلة بين المنزلتين. فإن اعتقاد الزيدية و المعتزلة: أنّ الفاسق يخرج بفسقه عن حدّ الإيمان و لا يصل إلى مرتبة الكفر. و هذه المقالة أول من ذهب إليها واصل بن عطاء المعتزلى المعروف بالغزّال . قال السمعانى فى كتاب الأنساب فى ترجمة المعتزلى: إن واصل بن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصرى، فلما ظهر الاختلاف و قال الخوارج بتفكير مرتكبى الكبائر و قالت الجماعة بأنهم مؤمنون و إن فسقوا بالكبائر خرج واصل بن عطاء عن الفريقين و قال: إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن و لا كافر، منزلة بين منزلتين، فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه، و جلس إليه عمرو بن عبيد فقيل لهما و لأتباعهما: معتزلون، و ألّف مولانا الشيخ فى الردّ عليهم رسالة.

و منها أنّه سأله عن إمامة نفسه و قال: ألست بإمام حق؟ قال: لا.

و الزيدية يجوزون أنّ كلّ من يكون عالما زاهدا شجاعا خرج بالسيف يكون إماما واجب الطاعة سواء كان من أولاد الحسن، أو من أولاد الحسين. و على هذا قالت طائفة منهم بإمامة محمد و ابراهيم الإمامين ابنى عبد اللّه بن الحسن

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۷۱

اللّذين خرجا فى أيام المنصور و قتلا . و جوزوا خروج إمامين فى قطرين يستجمعان الخصال المذكورة، و يكون كلّ واحد منهما واجب الطاعة.

و ممن كان على بيعة محمد الإمام أبو حنيفة و كان من شيعته فرفع الأمر إلى المنصور فحبسه حبس الأبد، و قيل أنّه أرسل ابنه حمادا إلى ابراهيم و بعث معه إليه بأربعة آلاف درهم، و كان يفتى بنصرته و إعانته، و كتب إليه كتابا يعتذر فيه عن عدم السير إليه بنفسه و قال: لولا ما يمنعنى من الوصول إليك للحقت بك و أعنتك، فإذا لقيت القوم، و ظفرت بهم فافعل (كما فعل أبوك) فى أهل صفين: أقتل مدبرهم، و اجهز على جريحهم، و لا تفعل كما فعل فى أهل الجمل، فإن القوم لهم فئة.

فظفر بعضهم بالكتاب، و أوصله إلى المنصور، فلما استبان ما فيه تغيّر عليه و حبسه و آذاه حتى مات فى الحبس سنة خمسين و مائة.

و الزيدية أصناف ثلاثة: جارودية، و سليمانية، و بترية- و الصالحية منهم-، و الإمام اسماعيل المذكور من الجارودية. و كلّ فرقة منهم تخالف الأخرى فى مسائل تفرّدت بها، و لسنا بصدد بيان ذلك .

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۷۲

و زيد بن علىّ هو الأب التاسع و العشرون من أجدادنا، و به يتصل نسبنا هكذا:

فأنا على بن أحمد نظام الدين بن محمد معصوم بن أحمد نظام الدين بن ابراهيم بن سلام اللّه ابن مسعود عماد الدين بن محمد صدر الدين بن اسحاق عزّ الدين بن على ضياء الدين بن عربشاه فخر الدين بن أمير عزّ الدين أبى المكارم بن أميرى خطير الدين بن الحسن شرف الدين أبى على بن الحسين أبى جعفر العزيزى بن على أبى سعيد النصيبينى بن زيد الأعشم أبى ابراهيم بن على أبى شجاع الزاهد بن محمد أبى جعفر بن على أبى الحسين بن جعفر أبى عبد اللّه بن أحمد نصير الدين السكين النقيب بن جعفر أبى عبد اللّه الشاعر بن محمد أبى جعفر بن محمد بن زيد الشهيد بن على زين العابدين بن الحسين أبى عبد اللّه سيّد الشهداء بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليهم السلام.

أولئك آبائى فجئنى بمثلهمإذا جمعتنا يا جرير المجامع

و كان أول من انتقل من أجدادنا إلى شيراز المحروسة: على أبو سعيد النصيبينى رحمه اللّه، و أوّل من انتقل إلى مكة المشرفة من شيراز: السيد محمد معصوم و ذلك بعد انتقال عمّه و ختنه الأمير نصير الدين حسين إليها.

و كان الأمير نصير الدين إماما فاضلا مجتهدا مبرزا فى العربية، غالبا عليه الزهد و الصلاح، يقال أنه لم يمس بيده درهما و لا دينارا قط توزعا و عزوفا من نفسه عن الدنيا، و كان يكتب جميع ما يعمله فى اليوم، فإذا كان الليل نظر فيه، فإن كان صالحا حمد اللّه عليه، و إن كان غير ذلك استغفر اللّه منه، و كان لا يؤرّب أحدا من خدمه فى الحرم. و فيه يقول الفاضل الأفندى محمد بن حسن الشهير بدراز المكى، و كتبه إليه فى صدر كتاب:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۷۳ أمولاى يا نجل خير البرایاو من فى العلوم إليه المصير

أبوك غياث لدين تسامىو أنت لنا صرت نعم النّصير

و فيه يقول أيضا:

أنت نعم النّصير فى كلّ نادأنت نعم المولى لكلّ العباد

ذو الأيادى و الأيد أنت جميعاسيد الناس أوحد العبّاد

و لك الإرث فى الولاء بحقّفى رقاب الورى ليوم التّناد

لمقال النبىّ فى ماء خمّأنت مولى لمؤمن ذى انقياد

فتهادى بالطّوع قوم ففازواو تمادى الغبىّ بالانتقاد

ثم قال النبىّ وال عليّايا إلهى فكان حتف المعادى

خصّ باللّعن من تولّى عتوّاو حشاه مقطّع بالعناد

شرف شامخ و مجد و فيعو افتخار يذيل غلب الهوادى

كنت فى الصّلب إذ دنا فتدلّىكنت فى الصّفّ فى مقرّ الجلاد

ثمّ من قبل ذا أجبت نداءلألست الإله فى كلّ واد

من يباريك فى السّيادة غرّما له فى الفهوم من مستفاد

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۷۴ أنت أنت المعروف فى كلّ فضلأنت صدر الإصدار و الإيراد

و سوى بيتك المنكّر جهلاو سواك الضّنين بالأمداد

فابق و اسلم لكى السّلامة دارو المثانى من الثّنا فى ازدياد

و توفى الأمير نصير الدين سنة ثلاث و عشرين و ألف بالطائف المأنوس و نقل إلى مكة المشرفة و دفن فيها.

و هنا فائدة ستيّة: تتعلق بنسبنا أحببت التنبيه عليها حيث انجرّ الكلام إليها و هى أنى قرأت على ظهر كتاب من كتب الوالد بخط السيد صدر الدين محمد الواعظ بن منصور غياث الدين ابن محمد صدر الدين بن منصور غياث الدين- جدنا المذكور فى عمود النسب-: إنّ أبا الحسن و أبا زيد على بن محمد الخطيب الحمانى بن جعفر أبى عبد اللّه الشاعر أحد أجدادنا. قال: و هو جدى و أدخله فى النسب هكذا.

قال: فأنا صدر الدين محمد الواعظ بن ناصر الشريعة منصور بن محمد صدر الدين بن منصور غياث الدين بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن اسحاق بن على عربشاه بن أمير انبه بن أميرى بن الحسن بن الحسين العزيزى بن على النصيبينى بن زيد الأعشم بن على- المحكى عنه، يعنى الحمانى- بن محمد بن جعفر بن محمد بن محمد بن زيد الشهيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام.

هذا كلامه و أقول: ليس على بن محمد الحمانى هذا داخلا فى عمود نسبنا، بل ينتهى نسبه إلى زيد الشهيد هكذا.

هو على بن [محمد] الخطيب بن جعفر أبى عبد اللّه الشاعر- الذى هو أحد أجدادنا- بن محمد بن محمد بن زيد الشهيد.

و إنّما أوقع السيد صدر الدين فى هذا الغلط تشابه الأسماء، فإن جعفرا جد السيد على الحمانى المذكور الذى توهم صدر الدين أنّه ابن أحمد

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۷۵

السكين، هو أبو أحمد السكين، لكن اشتبه عليه بابنه، فإن ابنه أيضا اسمه جعفر كما مرّ فى النسب، و يتّضح ذلك بأن محمد بن زيد الشهيد و هو أصغر بنى أبيه له عدّة بنين منهم محمد ابنه، و العقب منه فى أبى عبد اللّه جعفر الشاعر وحده، فأعقب أبو عبد اللّه جعفر هذا من ثلاثة بنين: محمد الخطيب الذى هو أبو السيد على الحمانى، و أحمد السكين الذى هو جدنا، و القاسم، فيكون السيد على الحمانى إبن أخى أحمد السكين لا إبن ابنه، فأحمد السكين عمه لا جدّه.

و أيضا ما تمّ للسيد صدر الدين إدخال السيد على الحمانى فى النسب حتى أسقط منه أبا الحسين عليا الذى هو بين أبى جعفر محمد، و بين جعفر بن أحمد السكين و هو غلط فاحش.

و لقد مرّ على ذلك برهة من الزمان، و لم يتنبّه له أحد من أجدادنا فينبّه عليه. و قد سمعت الوالد مرارا يقول: إن السيد على الحمانى جدّنا، اعتمادا منه على كلام السيد صدر الدين الواعظ، فذكرت له أن هذا غلط منه.

و كان السيد على الحمانى المذكور شاعرا مفلقا نبيلا مفتيا مدرسا نسّابا، لم يكن فى زمنه من يتقدمه فى الرئاسة، و اشتهر بالشعر، و شعره فى الطبقة العليا من الحسن و الرقّة، عذب بديع المعانى. و كان نازلا بالكوفة و منزله فى حمان فأضيف إليهم.

حدّث بعض الصالحين قال: لقيت على بن محمد المذكور بالكوفة بعد خلاصه من حبس الموفق - و كان قد حبس مرتين، مرّة لكفالته بعض أهله،

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۷۶

و مرة لسعاية عليه- و هنيته بالسلامة، و قلت: قد عدت إلى وطنك الذى تلذّه، و إخوانك الذين تحبّهم، فقال: يا أبا على ذهب الأتراب و الشباب و الأصحاب، و أنشد:

هبنى بقيت على الأيّام و الأبدو نلت ما شئت من مال و من ولد

من لى برؤية من قد كنت آلفهو بالزّمان الذى ولّى و لم يعد

لا فارق الحزن قلبى بعد فرقتهمحتى يفرّق بين الرّوح و الجسد

و من شعره العالى الطبقة:

لنا من هاشم هضبات مجدمطنّبة بأبراج السّماء

تطوف بنا الملائك كلّ يومو نكفل فى حجور الأنبياء

و يهتزّ المقام لنا ارتياحاو يلقانا صفاه بالصّفاء

و من جيد شعره قوله:

أفى كلّ أرض أو بكلّ تنوفةأخو أمل منّا يحاول مطمعا

كأنّا خلقنا للنّوى و كأنّماحرام على الأيّام أن نتجمّعا

و من بديع افتخاره قوله:

إنّى و قومى من أحساب قومكم كمسجد الخيف من بحبوحة الخيف

ما علّق السّيف منّا بابن عاشرةإلّا و همّته أمضى من السّيف

و لا استضاف بنا ضيف يؤمّلناإلّا غدا مالنا فى قبضة الضّيف

و من رقيق تغزّله:

بأبى فم شهد الضّمير لهقبل المذاق بأنّه عذب

كشهادتى للّه خالصةقبل العيان بأنّه الرّبّ

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۷۷ و العين لا تغنى بنظرتهاحتّى يكون دليلها القلب

و من قوله الحسن و مطبوعه المستحسن:

وجه هو البدر إلّا أنّ بينهمافضلا تحيّر فى حافاته النّور

فى وجه ذاك أخاليط مسوّدةو فى مضاحك هذا الدّرّ منثور

و من نسيبه و هو المرقص المطرب:

يا شادنا افرغ من فضّهفى خدّه تفّاحة غضّه

كأنّما القبلة فى خدّهللحسن من رقّته عضّه

يهتزّ أعلاه إذا ما مشىو كلّه فى لينه قبضه

ارحم فتى لمّا تملّكتهأقرّ بالرقّ فلم ترضه

و من بديع شعره:

كأنّ هموم النّاس فى الأرض كلّهاعلىّ و قلبى بينهم قلب واحد

ولى شاهدا عدل سهاد و عبرةو كم مدّع للحقّ من غير شاهد

و من قوله يرثى يحيى بن عمر الحسينى الخارج بالكوفة فى خلافة المستعين :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۷۸ لعمرى لئن سرّت قريش بهلكهفما كان وقّافا غداة التّوقّف

فإن مات تلقاء الرّماح فإنّهلمن معشر يشنون موت التترّف

فلا تشمتوا فالقوم من يبق منهمعلى سنن منهم أمام المخلّف

لهم معكم أمّا جدعتم أنوفكممقامات ما بين الصّفا و المعرّف

تراث لهم من آدم و محمّدإلى الثّقلين من وصىّ و مصحف

و من مراثيه المستحسنة قوله فى رثاء أخيه اسماعيل :

هذا ابن أمّى عديل الرّوح فى جسدىشقّ الزمان به قلبى إلى كبدى

فاليوم لم يبق شىء أستريح بهإلّا تفتّت أعضائى من الكمد

أو مقلة (بحياء) الهمّ باكيةأو بيت مرثية يبقى على الأبد

ترى أناجيك فيها بالدّموع و قدنام الخلىّ و لم أهجع و لم أكد

من لى بمثلك أدعوه لحادثةيشكى إليه و لا يشكو إلى أحد

قد ذقت أنواع ثكل كنت أبلغهاعلى القلوب و أجناها على كبدى

قل للرّدى لا تغادر بعده أحداو للمنيّة من أحببت فاعتمدى

إنّ الزمان تقضّى بعد فرقتهو العيش آذن بالتّفريق و النّكد

و له فى الافتخار:

لقد فاخرتنا من قريش عصابةبمطّ خدود و امتداد أصابع

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۷۹ فلما تنازعنا الفخار قضى لناعليهم بما نهوى نداء الصّوامع

ترانا سكوتا و الشهود بفضلناعليهم جهير الصّوت فى كلّ جامع

و السيد رحمه اللّه نظم فى هذه الأبيات ما وقع للحسين مع يزيد بن معاوية، و ذلك أن الحسين دخل يوما على يزيد فجعل يزيد يفتخر و يقول:

نحن و نحن، و لنا من الفخر و الشرف كذا و كذا، و الحسين ساكت. فأذّن المؤذن، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا اللّه، و أشهد أن محمدا رسول اللّه، قال الحسين عليه السلام: يا يزيد جدّ من هذا ؟ فخجل يزيد و انقطع .

و كانت وفاة السيد على بن محمد الحمانى المذكور فى خلافة المعتمد سنة ستين و مأتين رحمه اللّه تعالى.

و إنّما أكثرت من شعره لحسنه و قلّة وجوده. و قد جمعت هذه المقاطيع من عدّة كتب، و شعره مرغوب فيه جدا. و لقد تغلغل بنا الكلام و جرّ بعضا فأدّى إلى هذا التطويل، لكن أرجو أن لا يخلو ذلك من فائدة إن شاء اللّه تعالى. و لنعد إلى ما نحن بصدده.

و لما وافينا المخا اتّصل بنا الخبر بأنّ العدوّ قصد جهة مولانا السلطان- خلّد اللّه ملكه- فعاث فيها، و أغار على نواحيها بجموع لا تحصى، و جنود لا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۸۰

تستقصى، و لا يعلم ما آل الأمر إليه، و ما استقر الحال عليه، فأجمعنا على الإقامة بالبندر المذكور إلى أن توافينا الأخبار من تلك الأقطار.

و المخا (بالخاء المعجمة المخففة و فتح الميم قبلها): مكان قريب من زبيد على ساحل البحر. كذا ضبطها اليافعى فى تاريخه فى حوادث سنة أربع عشرة و خمسمائة عند ذكر الشيخ أبى بكر بن جعفر بن عبد الرحيم المخائى.

و العوام يقولون: المخا (بضم الميم) و هو بندر فى غاية العمارة، فيه قصور مشيّدة، و حدائق عديدة تحتوى على نخل كثير، و يجلب إليه أنواع الفواكه من تعز و غيرها.

و مستقى أهلها من أبآر فى جانبه الشرقى إلّا أن ماءها لا يخلو من ملوحة، و يجلب للأكابر من موزّع ماء عذب جدّا.

و فيه حمّام لطيف، بناه رجل من أكابر أتباع مولانا السلطان، يقال له:

الشيخ ملك محمد، و أخبرنى من كان حاضر بنائه، أنّ الشيخ المذكور فرش أرضه بالقرنفل، ثم ألقى عليه الجص لتطيب رائحته. و لقد اكتسب أجرا عظيما فى بنائه، و كانت وفاة بانيه المذكور سنة ثلاث و سبعين و ألف رحمه اللّه تعالى.

و لم يمدح أحد من الشعراء الحمّام كما مدحه السرىّ الموصلى فإنّه أحسن فى مدحه و أبدع جدّا فى وصفه حيث قال من أبيات:

بيت بنته حكماء الورىفهو إلى الحكمة منسوب

مجاور النّار و لكنّهيجاور الحرّ به الطّيب

حرّ هو الرّوح لأجساماناو الحرّ للأجسام تعذيب

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۸۱

و أبدع أبو بكر بن بقى حيث يقول فى مدحه و وصفه أيضا:

حمّامنا فيه فصل القيظ محتدمو فيه للبرد برد غير ذى ضرر

ضدّان ينعم جسم المرء بينهماكالغصن ينعم بين الشمس و المطر

فائدة: قال الحكيم أرسطاطاليس فى المسائل الطبيعيّة: ما بال من عطش إذا دخل الحمّام سكن عطشه، و من لا عطش به يعطشه الحمام؟

لأنّ من به عطش فإنّ بدنه يابس يجذب الرطوبة إلى داخل بالمسام الخفيفة، و من لا عطش به فإنّ بدنه رطب يستفرغ الرطوبة بالعرق.

لطيفة: حكى أنّ بعض ملوك العجم أحضرت له حلوى مشهورة فقال:

أيكون من لا- يعرف هذه الحلوى؟ قالوا: كثير من لم يسمع بها فضلا عن أن يعرفها، قال: فأحضروا من لا- يعرفها، فجاؤا بأعرابىّ فأطعموه من الحلوى و سألوه: أتعرف ما هذا؟ قال: نعم، هو إمّا الحمّام أو الفجل، قالوا: كيف عرفت ذلك؟ قال لأن أبى دخل هذه البلاد قبلى بعشرين سنة، فلما عاد إلى البادية سألناه عن أحسن ما رآه فى الحضر قال: شيئان: الفجل و الحمام، و لا شك الآن فى أن هذا الذى أطعمتمونيه أحد هذين الشيئين، و لكن لا أعرف أيّهما هو بعينه.

و لاقيت بالمخا الشيخ الأديب أحمد بن محمد بن على الجوهرى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۸۲

متوجها من الديار الهنديّة إلى الأقطار الحرميّة قاصدا الحجّ هو و والده، و له شعر كاد يلمّ فى بعض الإحسان، و إن زعم بعضهم أنّه أحسن من شعر حسان، و لم يتفق أن ينشدنى من شعر نفسه شيئا، و إنّما استنشدته من شعر والدى فأنشدنى قصيدته الدالية المردوفة بالهاء، و هى قوله:

مثير غرام المستهام و وجدهو ميض سرى من غور سلع و نجده

و بات بأعلى الرّقمتين التهابهفظلّ كئيبا من تذكّر عهده

يحنّ إلى نحو اللّوى و طويلعو بانات نجد و الحجاز و رنده

و ضال بذات الضّال مرخ غصونهتفيّأه ظبى يميس بقدّه

كثير التجنّى ذو قوام مهفهفصبيح المحيّا ليس يوفى بوعده

يغار إذا ما قست بالبدر وجههو يغضب إن شبّهت وردا بخدّه

مليح تسامى بالملاحة منفرداكشمس الضّحى كالبدر فى برج سعده

ثناياه بدر و الصّباح جبينهو أمّا الثريّا قد أنيطت بعقده

فمن وصله سكنى الجنان و طيبهاو لكن لظى النّيران من نار صدّه

تراءى لنا بالجيد كالظّبى تالعاأسارى الهوى من حكمه بعض جنده

روى حسنه أهل الغرام و كلّهم يتيه إذا ما شاهدوا ليل جعده

يعنعن علم السّحر هاروت لحظهو يروى عن الرّمّان كاعب نهده

مضاء اليمانيّات دون لحاظهو فعل الرّديتيّات من دون قدّه

إذا ما نضا عن وجهه البدر حجبهصبا كلّ ذى نسك ملازم زهده

و أبدى محيّا قاصرا عنه كلّ من أراد له نعتا بتوصيف حدّه

رحلة ابن معصوم المدنی، ص: ۸۳ هو الحسن بل حسن الوری منه مجتدیو کلّهم یعزی لجوهر فرده رحلة ابن معصوم المدنی ؛ ص۸۳

و ما تفعل الراح العتیقة بعض مابمبسمه بالمحتسی صفو ورده

و قد عارض هذه القصیدة جماعة وقفت علی قصائدهم عند الوالد، منهم الشیخ أحمد المذکور فقال یمدح الوالد:

سلام علی ورد العقیق و رندهو غرّ لیالیه و سالف عهده

فلی فیه ظبیّ صائد کلّ ضیغمأغار علیه بین کثبان نجده

إذا الشمس غابت فی مغارب أفقهابدا لک بدر من فواحم جعده

یعلّک من فیه شرابا له شذاکنفحة روض عند تفتیح ورده

أری الدّعص یربوکی یشاکل ردفهو غصن النّقا ینمو لتشبیه قدّه

و بدر الدّجی یزهو إذا قیل مثلهو یطوی حدیث المسک مع نشر برده

و یعلو مقام النّجم إن قیل أنّه کمبسمه الوضّاح أو درّ عقده

غدوت أجیل الطرف فی روض حسنهفعدت و قلبی فی وثاق بوجده

فمن لی بقلب مثل قلبی بعدماأضیع زمانا فی مهامه بعده

یقولون لی فی الحبّ هل لک رتبةفقلت لهم أعلی الذّری لی بسعده

فما العشق إلّا من کرام عشیرتیو ما الحسن إلّا من توابع جنده

و ما القطر إلّا من تقاطر أدمعیو لا البرق إلّا من حشای و وقده

فقولوا له إنّی صریع لحاظهو إنّی علیل مذ بلیت بفقده

عسی أنّه یرضی بلثمة کفّهإذا هو لم یمنن بتقبیل خدّه

سلامی علیه بکرة و عشیّةو إن لم یفه تیها علیّ بردّه

و قد لذت من شوقی إلی غیر منصفبحضرة من لاذ الأنام بمجده

فما سائل إلّا علی جود أحمدو لا قائل إلّا بإعلان حمده

جزیل العطایا یسبق القول فعلهکریم السّجایا غیر مخلف وعده

رحلة ابن معصوم المدنی، ص: ۸۴ یصول علی أسد العرین بنفسهو یثنی عنان الجیش صارم عبده

یلوح سناء الفضل من درّ نطقهو یظهر قدر الفصل من قطع حدّه

یحار بسیط البحر فی وسع علمهو یقصر فهم الحبر عن نیل قصده

فلا زلت أهدی للمسامع وصفهو أقطف زهر القول من روض ورده

و منهم الشیخ الأدیب علی بن حسن المرزوقی و قد أحسن فیها و بزّ المعاصرین، و نقتصر علی القلیل خشیة الملال و التطویل، و هو قوله منها :

تألّق من نحو الکثیب و وهدهبریق تلالا فی خمائل برده

تراءی لعین قد تقرّح جفنهاو عوّض عن طیب المنام بسهده

فهیّج وجدا مضمرا فی سرائریو أبدی مصونا ما استطعت لردّه

فبتّ کئیبا و اله القلب عائمابحر غرام بین جزر و مدّه

و ما افترّ إلّا جاد بالدّمع ناظریو أذکرنی ماء العذیب و ورده

و مسرح غزلان يرحن عشيّةبذات اللّوى و الأبرقين و ثمده

و ميّاد غصن مذ تثنّى بعطفهلوى عقربى صدغيه خفّاق بنده

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۸۵ كثير التجنّى و المجون و طالماجنى سيف لحظ منه و هو بغمده

له حدق صحّت بسقم جفونهاو من عجب تقويم شىء بضدّه

و إنّى إذا ما جنّ ليلى تخالنىأحنّ حنين الثّاكلات لفقده

و يطربنى صدح الحمام بأيكةإذا صاح قمرىّ البشام بردّه

و ترجيع صوت العندليب كأنّهغدا راهبا فيه زعيما بورده

و إن شقّ نحر الفجر قامت بلابل تسبّح للّه العظيم بحمده

و إنى على ودّى مقيم على الوفاو ما ملت بل باق على حفظ عهده

كأنّى و ما أرجو كثير عزّةمتى حار فكرى فيه أو بشر هنده

ألا فى سبيل اللّه دهر قضيتهعلى ظمأ لم يروه ماء صدّه

أبيت على جمر الغضا متقلّباو فى طىّ أحشائى تلظّ بوقده

و كان الشيخ أحمد قدم الهند مع والده فى أوائل عمره، فأقام بها نحوا من عشرين سنة، و لما دخل الوالد الهند اختصّ الشيخ أحمد به، فنشأت بينهما مودة أكيدة و كانت بينهما مراسلات من نظم و نثر، فمن ذلك قصيدة كتبها إليه الوالد مطلعها:

إلى أحمد الشيخ النبيل تحيّةتغشّاه منى بكرة و أصيلا

فأجابه الشيخ أحمد بقصيدة مطلعها :

أتت كى تداوى بالسّلام عليلافقلت سلام لا عدمت منيلا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۸۶ هى الشمس جاءت فى صباح صحائفهى البدر نالت من مدادك نيلا

هى الخمر فى أفعالها بعقولناهى السحر قد زادت بيانا و تمثيلا

إذا أنشدت فالطّرف وقت نشيدهاعن السّمع يهوى أن يكون بديلا

ترجّلت الركبان عند سماعهاو قالوا أعدها لا فقدت خليلا

و ساقت بها العيس الحداة تشوقاإليه و ساروا بكرة و أصيلا

و هى قصيدة طويلة حسنة، كلّها على هذا النمط.

و كان شعراء العصر قد تجاروا فى ميدان هذين البيتين و هما للشيخ عز الدين الموصلى :

هجرتك البيض لمّانصل الصّبغ فضرّك

كشف الدهر المغطّىيا جميل السّتر سترك

فكان ممن جرى فى هذا الميدان، و سابق أولئك الفرسان الشيخ أحمد الجوهرى فقال:

زارنى و الليل داجقلت أخفى اللّه أمرك

هجم الصبح فنادىيا جميل السّتر سترك

و قال العلامة خطيب المالكية بمكة المشرفة القاضى تاج الدين بن أحمد المالكى*:

إن تكن صبّا أنيسافافن فى الصهباء عمرك

ثم قل عند احتساهايا جميل السّتر سترك

و قال الوالد على هذا الأسلوب :

قالت الحرّة يومالم أخالف قطّ أمرك

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۸۷ فأتتنى باحتفالو اختفاء ليس يدرك

و دنت منّى و نادتيا جميل السّتر سترك

و قلت أنا فى سنة تسع و ستين [و ألف]:

زرتها يوما فقالتو افنى من قبل تدرك

مذ كشفت السّتر نادتيا جميل السّتر سترك

و أخبرنى الوالد أنّه كتب يوما إلى الشيخ أحمد بهذه الأبيات:

يا ذا المعالى إنّ لى نزهةأرجاؤها أرخصت الغاليه

أنشدت فيها حين شاهدتهاكالشّمس من بين الظّبا غاليه

(أنت التى لو تشترى ساعةمنك بدهر لم تكن غاليه)

فأجابه بقوله:

يا أيّها المولى الذى خلقهيخجل عرف المسك و الغاليه

لو بعت روحى عارفا قدرهامنك بوقت كانت الغاليه

و البيت الثالث من أبيات الوالد مضمّن و هو توأم بيت للسيد الأديب محمد كبريت المدنى و هما بيتان قالهما مستدعيا بعض أصحابه، أنشدنيهما الوالد، قال: أنشدنيهما السيد المذكور و هما:

يا ذا المعالى نحن فى نزهةفانقل إلينا القدم العاليه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۸۸ أنت الذى لو تشترى ساعةمنه بدهر لم تكن غاليه

و زرت بالمخا ضريح الشيخ أبى الحسن على بن عمر الشاذلى ، و عليه قبّة عظيمة معتنى بها غاية الاعتناء، و هو من أتباع السيد أبى الحسن على بن عبد اللّه بن عبد الجبار الحسنى الشاذلى الكبير المدفون بالحمراء. قال فى القاموس: شادلة: قرية بالمغرب، أو هى بالذال- يعنى المعجمة- و منها السيد أبو الحسن الشاذلى أستاذ الطائفة الشاذلية من صوفية الاسكندريّة، و فيهم يقول أبو العباس ابن عطاء:

تمسّك بحبّ الشاذليّة تلق ماتروم فحقّق ذاك منهم و حصّل

و لا تعدون عيناك عنهم فإنّهمشموس هدى فى أعين المتأمّل

انتهى كلام القاموس. و فى تاريخ اليافعى: إن أبا الحسن الشاذلى المذكور- يعنى الكبير- مبدأ ظهوره بشاذلة على القرب من تونس. قال الشيخ تاج الدين بن عطاء اللّه: لم يدخل فى طريق القوم حتى كاد يعدّ للمناظرة، و كان متضلعا بالعلوم الظاهرة جامعا لفنونها، من تفسير و حديث و نحو، و أصول و أدب. و كانت له السياحات الكثيرة. ثم جاءه بعد ذلك العطاء الكثير، و الفضل الغزير. و اعترف بعلوّ منزلته من عاصره من أكابر العلماء و الأولياء العارفين باللّه تعالى.

قال: و قيل له من هو شيخك يا سيدى؟ فقال: كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش (بالشين المعجمة المكررة، و بينهما مثناة من تحت، و فتح الميم فى أوله). ثم قال: و أنا الآن لا أنتسب لأحد. انتهى.

قلت: و الشيخ عبد السلام المذكور هو أحد أجدادى من قبل الأم، و هو من أكابر صوفية المغرب، و ترجمته مشهورة عند أهل المغرب.

و توفى الشيخ أبو الحسن الشاذلى المذكور سنة ستّ و خمسين و ستمائة.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۸۹

و أمّا هذا أبو الحسن المدفون بالمخا فلم أقف له على ترجمة .

و الإجماع على أنّه الذى أظهر القهوة المتعارفة فى هذا الزمان، التى طبّقت شهرتها العالم. و القهوة فى الأصل من أسماء الخمرة، ثم أطلقت الآن على ما يطبخ من البن، أو قشره.

قيل: و سبب اهتدائه إليها أنّه كانت له لقحة يسرّحها كل يوم للرعى، و كانت ترعى ثمرة هذه الشجرة، فاستطاب لبنها طعما و خاصية، فتبعها يوما فرآها ترعى هذه الثمرة فجنى منها شيئا و قلاه و استعمله، فأحدث فى نفسه نشاطا و أريحيّة، فواظب على استعماله. ثم طبخه فرآه أجدى من استعماله مقليا، فلم يزل الأمر يزيد حتى بلغ هذه الشهرة.

و قرأت بخطّ بعض فقهاء اليمن أنها حدثت فى القرن الثامن أو التاسع، قال بعضهم أنّها تطيّب النكهة، و تصفّى البدن، و تعين على العبادة.

و أخبرنى بعض الأصحاب أنّه وقف على رسالة لبعض فضلاء اليمن فى الكلام على تحليلها و خواصها و منافعها .

قلت: و هى على مقتضى ما ذهب إليه جماعة من الإمامية، و معتزلة بغداد حرام، لأنهم ذهبوا إلى تحريم الأشياء التى ليست باضطرارية قبل ورود الشرع، و جنح إلى هذا القول الشيخ أبو على بن أبى هريرة من فقهاء الشافعية، و ذهب معتزلة البصرة و باقى الإمامية إلى الإباحة، و توقّف الأشعرى، و اختلف فى معنى توقّفه. و الحق الإباحة، و المسألة أصولية يطلب تحقيقها من مظانّها.

و بالجملة فلم يتوقّف أحد فى استعمال هذه القهوة، لا معتزلى و لا أشعرى و لا غيرهما و الأشاعرة أرغب فيها من غيرهم، و قد تلقتها الأمة بالقبول.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۹۰

و الأطباء مختلفون فيها. فمنهم من مدحها و عدّد منافعها، و منهم من ذمّها حتى إنّى رأيت بعض أطباء العجم ينهى عن استعمالها، و ينفّر عنها غاية التنفير. و قد ذكر الشيخ داود فى التذكرة خواصها فقال: البن ثمر شجر باليمن يغرس حبّه فى آذار، و ينمو و يقطف فى آب، و يطول نحو ثلاثة أذرع على ساق فى غلظ الإبهام، و يزهر زهرا أبيض يخلف حبا كالبندق، و ربّما تفرطح كالباقلّا، و إذا قشّر انقسم نصفين، و أجوده الرزين الأصفر، و أردؤه الأسود، و هو حارّ فى الأولى، يابس فى الثانية. و قد شاع برده و يبسه و ليس كذلك، لأنّهمرّ و كلّ مرّ حار، و يمكن أن يكون القشر حارا و نفس البن إمّا معتدل أو بارد فى الأولى، و الذى يعضد برده عفوصته. و بالجملة فقد جرّب لتخفيف الرطوبات و السعال البلغمى، و فتح السدد، و إدرار البول. و قد شاع الآن اسمه بالقهوة إذا حمّص و طبخ بالغا. و هو يسكّن غليان الدم. و ينفع من الجدرى و الحصبة و الشرى الدموى، و لكنّه يجلب الصداع الدورىّ، و يهزل جدّا، و يورث السهر، و يولد البواسير، و يقطع شهوة الباه، و ربّما أفضى إلى الماليخوليا، فمن أراد شربه للنشاط و دفع الكسل فليكثر معه من أكل الحلو، و دهن الفستق و السمن. و قوم يشربونه باللّبن و هو خطأ يخشى منه البرص.

انتهى.

و ما ألطف قول الصلاح القرشى فى الشيخ أحمد بن عواد :

انّ ابن عوّاد له قهوةبحسنها كلّ الورى يشهد

يحتار من ينظر فى لونهاو وجهه أيّهما أسود

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۹۱

و مثله قول البدر البشتكى فى التقى ابن حجة الحموى و كان يصبغ ذقنه بالحنّاء:

صقيع دعاويه لا تنتهىو يخطى الصّواب و لا يشعر

تفكّرت فيه و فى ذقنهفلم أدر أيّهما أحمر

و قد أكثر الشعراء من النظم فى هذه القهوة، فمن ذلك للفاكهى :

اشرب القهوة صرفاتجد الصّفو مزاجا

و اذكر اللّه عليهاتشهد الأنس سراجا

و قلت أنا من أول نظمى فيها :

يا قهوة قشريّةحكت النّضار بلونها

و لكم حباك حبابهابخلاصها و لجينها

جليت عليّ مصونةبزفافها و بصونها

و كأنّ كلّ حبابةترنو إليّ بعينها

و قال آخر و أبدع فى الجناس:

هات اسقنى قهوة فضحتبكر المدام و شنّف لى الفناجينا

تدعو إلى نحو ما فيه البقاء و لودعت إلى نحو ما فيه الفناجينا

لو أنّ ألفا أحاطوا حول ساحتهاقصد النّجاة رأيت الألف ناجينا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۹۲

و زاد عليها زين العابدين الطبرى فقال:

يا ربّة الحسن حلّينا حماك فإننطلب فجودى و إن نسأل فناجينا

و أنشد الشيخ البهائى فى الكشكول لبعضهم:

يقولون لى قهوة البنّ هل تباح و تؤمن آفاتها

فقلت نعم هى مأمونةو ما الصّعب إلّا مصافاتها

و قال آخر، و عزاه بعضهم إلى الشريف حسن بن أبى نمى والى مكّة :

شربنا قهوة من قشر بنّ تعين على العبادة للعباد

حكت فى كفّ من أهواه صرفازبادا ذائبا وسط الزباد

و عادات الظّبا تأتى بمسكو هذا الظبى يأتى بالزّباد

و فى تذكرة العلامة جمال الدين بن صدر الدين بن عصام الدين قال:

حدثنى صديقى و تربى أمام المحراب النبوى الشيخ ابراهيم بن الشيخ يحيى بن الشيخ ابراهيم ابن الشيخ أحمد بن الشيخ ابراهيم بن الشيخ الأجل جلال الدين الحميدى الإمام العلامة، قال: قرأت على باب قهوة بالشام هذين البيتين على لسان القهوة :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۹۳ أنا المعشوقة السّمراو أجلى فى الفناجين

و عود الهند عطّرنىو ذكرى شاع فى الصّين

نكتة لطيفة: قال السيد الأديب محمد كبريت المدنى* فى رحلته:

يحكى أنّ بعض الصالحين قال لمسيح باشا و قد أمر بإبطال القهوة: لا تبطل أصلا، قال: و لم؟ قال: لأن حسابها موافق لاسم اللّه تعالى (القوى) يعنى أن كلّا منهما له من العدد مائة و ستة عشر، فلها منه الاستمداد، فأمرها و شأنها قوى، و كان كذلك. انتهى.

و قال أيضا: لفظ (جبا) لا أعرف له أصلا، إلّا أنّه يستعمل بمعنى الهبة ، فكأنه يقول: خذها هبة لك منى.

قال: و استخرج بعضهم لطيفة من ذلك و هى أن لفظ (جبا) عدد ستة، فكأنّ القائل يقول: جلبت لك الصفاء من الست الجهات و حياته هبة منى لك فاقبله. انتهى.

قلت: لم أسمع فى عمرى بأسمج من هذه اللطيفة، و لا يخفى غموض هذا الاستنباط، و الذى بلغنى فى هذا المعنى: أن الشيخ الشاذلى

كان له غلام يهيء له القهوة فى كلّ يوم، و كان اسم الغلام (جبا) فإذا أتى بالقهوة إلى الشيخ قرع عليه باب الخلوة، فيقول الشيخ: من هذا، فيقول: جبا، فبقى ذلك سنّة إذا جيء بالقهوة قيل: جبا، و هذا ألطف ما سمعت به فى هذا المعنى و اللّه أعلم.

المفتى أبو السعود :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۹۴ أقول لأصحابى عن القهوة انتهواو لا تجلسوا فى مجلس هى فيه

و ما ذاك عن بغض و لا عن كراهةو لكن غدت مشروب كلّ سفيه

غريبة: و فى أيام إقامتنا بالمخا انقضّ كوكب عظيم هائل من جهة الجنوب إلى الشمال بعد المغرب فأضاءت له الدنيا و هو كشعلة النار، و ترك وراءه ضياء مستطيلا جدا، و فى مثله يقول الأديب أبو محمد بن سارة من شعراء المغرب .

و كوكب أبصر العفريت مسترقاللسّمع فانقضّ يذكى اثره لهبه

كفارس حلّ إعصار عمامتهفجرّها كلّها من خلفه عذبه

فائدة: و هذا الكوكب هو الشهاب الذى أشار إليه تعالى بقوله إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ . قال الشيخ البهائى (*) فى المفتاح :

و الشهاب ما يرى كأنه كوكب انقضّ، و ما خمّنه الطبيعيون من أنه بخار فيه دهنيّة يصعد إلى كرة النار فيشتعل لم يثبت. و لو صحّ لم يناف ما دلّت عليه الآية الكريمة، و لا ما دل عليه قوله جلّ شأنه وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ . فإن المصباح و الشهاب يطلقان على المشتعل، و كلّ مشتعل فى الجوّ زينة للسماء، و لا استبعاد فى إصعاد اللّه سبحانه ذلك البخار الدهنى عند استراق الشيطان السمع، فيشتعل نارا فتحرقه، و ليس خلق الشيطان من محض النار الصرفة، كما أن خلق الإنسان ليس من محض التراب، فاحتراقه بالنار التى هى أقوى من ناريته. و لعل الشياطين لا يسمعون كلام

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۹۵

الملائكة إلّا إذا انتهوا فى الصعود إلى قرب كرة الأثير، فإذا استرق الشيطان السمع و بادر إلى النزول لحقه الشهاب فأحرقه، لذلك عبّر سبحانه عن انتهاء الشهاب إليه باتباعه له. انتهى.

و حكى السيوطى فى المحاضرة : أن فى سنة ثلاث عشرة و ثلثمائة فى آخر المحرم انقضّ كوكب من ناحية الجنوب إلى الشمال قبل مغيب الشمس، فأضاءت الدنيا منه و سمع له صوت كصوت الرعد.

و فى بغية المستفيد أن فى ليلة الاثنين الخامس من شهر جمادى الأولى سنة ست عشرة و تسعمائة انقضّ كوكب عظيم قريبا من نصف الليل آخذا فى الشام و أضاءت الدنيا لذلك إضاءة عظيمة، حتى لو أنّ الإنسان حاول رؤية الذرّ بذلك الضوء لم يمتنع عليه، ثم غاب فى الجهة الشامية، و بقى أثره فى السماء ساعة طويلة.

و فيها فى حوادث سنة أربعين و مائة تناثرت النجوم كالمطر نحو المغرب من أوّل الليل إلى الصبح، و عوفى فى تلك الليلة كثير من المجانين فأصبحوا لا بأس بهم.

فائدة: قرأت بخط بعض الفضلاء ما نصّه: أخبرنى بعض الثقات عن بعض الأعراب أنّه قال: إذا انقضّ بعض الكواكب و نظر إليه الشخص حال انقضاضه واضعا فى فيه بعض أصابعه- إصبعا فما فوقه- قائلا عند وضع الأصابع أو الإصبع: اللّهم صل على محمد و آل محمد، يكرر الصلاة ثلاثا أو

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۹۶

أكثر، و يعقبها بالتكبير ثلاثا أو أكثر أمن من وجع العين سنة إن كان وضع إصبعا واحدا، و سنتين إن كان وضع إصبعين و هكذا. و أخبرنى أنه واظب على ذلك نحو عشرين سنة فسلم من وجع العين. انتهى.

قلت: و قد جرّبت أنا ذلك فوجدته صحيحا.

و من الحوادث السماوية الغريبة ما حكاه اليافعى فى حوادث إحدى و ستين و مائة: أنه رأى الناس قمرا ثانيا فى السماء، و كان يرى ذلك فى مسيرة شهرين، فسبحان الفعال لما يشاء.

و أغرب من ذلك ما حكاه فى البغية: أنّ فى خامس شعبان سنة ثلاث و ثمانين و سبعمائة ظهر عمود من نور فى ناحية المشرق كان يرى كالمنارة الكبيرة. و وقف مكانه لا حركة له إلى يوم العشرين من شهر رمضان سنة أربع و ثمانين، و لم يزل ينحلّ قليلا قليلا حتى غاب، و كان من تأثيره- بقدرة اللّه تعالى- حصول موت عظيم فى البلاد المرتفعة عن تعز، كجحاف، و وصاب، و صهيب و ما والاها من المشرق حتى كان يمرّ المار بالقرية فيجد الأنعام سائمة و الآدميين موتى فى منازلهم لا يتولّى دفنهم أحد البتّة، فسبحان من هذا صنعه.

رجع: و بعد انقضاء الموسم بالمخا و ذهاب جميع السفن عنها خليت عمّن رأيناه بها من الأكابر، فلم يبق فيها سوى رعاع أهلها من السوقة و غيرهم، حتى أن واليها و السيد المقدّم ذكره لم يقم بها، بل فارقها و أناب منابه غيره، فوجدنا لذلك من الوحشة و الغربة ما ضاعف علينا الكربة، مع سوء عشرة الأتباع الذين كانوا فى صحبتنا، و عدم الألفة و الأنس بهم. و قد كتبت إلى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۹۷

الوالد بهذين البيتين مشيرا إلى سوء أخلاقهم و هما لابن بسام :

لقد صبرت على المكروه أسمعهمن معشر فيك لولا أنت ما نطقوا

و فيك داريت قوما لا خلاق لهملولاك ما كنت أدرى أنّهم خلقوا

فبلغنى أنه أعجب باستشهادى بهما. و للّه درّ القائل :

و ما غربة الإنسان فى شقّة النّوىو لكنّها واللّه فى عدم الشّكل

و إنّى غريب بين بست و أهلهاو إن كان فيها أسرتى و بها أهلى

و قد مسخ هذين البيتين السيد الحسن بن شدقم الحسينى فقال :

و ليس غريبا من نأى عن دياره‌إذا كان ذا مال و ينسب للفضل

و إنّى غريب بين سكّان طيبةو إن كنت ذا مال و علم و فى أهلى

و ليس ذهاب الرّوح يوما منيّةو لكن ذهاب الرّوح فى عدم الشّكل

و كنت أعاشرهم معاشرة مداراة لا مماراة، و محاسنة لا مخاشنة، و الحال معهم كما قال أبو الفتح البستى (*):

يقولون لى عاشرتنا و وصلتناو هيهات أين القوم منّى و من جنسى

و كيف وصالى فرقة فرق بينهمو بينى كفرق الجنّ من فرق الأنس

و من كلام أمير المؤمنين على (ع): من سالم الناس سلم منهم، و من حارب الناس و حاربوه فإن العزّة للكاثر.

و كان يقال: العاقل خادم الأحمق أبدا، إن كان فوقه لم يجد من مداراته و التقرب إليه بدّا، و إن كان دونه لم يجد من احتماله و استكشاف سرّه بدّا.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۹۸

و من كلام محمد ابن الحنفية- رض- قد يدفع باحتمال المكروه ما هو أعظم منه.

و قال الحسن: حسن السؤال نصف العلم، و مداراة الناس نصف العقل، و القصد فى المعيشة نصف المؤنة. و قال الشاعر و هو لسان الحال:

و أنزلنى طول النّوى دار غربةمتى شئت لا قيت أمرا لا أشاكله

أحامقه حتى يقال سجيّةو لو كان ذا عقل لكنت أعاقله

و كانت تهب بالبندر المذكور ريح عاصف لا تسكن ليلا و لا نهارا، حتى أنّه لا يمكن الخروج معها من البيوت إلّا اضطرارا، و يسميها أهل اليمن (الأزيب) - كأحمر- و هى الجنوب المقابلة للشمال، و تسمى النعامى، و ما أحسن قول ابن القيسرانى :

بالسّفح من نعمان لىقمر منازله القلوب

حملت تحيّته الشمال فردّها عنّى الجنوب

فرد الصّفات غريبهاو الحسن فى الدّنيا غريب

لم أنس ليلة قال لىلمّا رأى جسدى يذوب

باللّه قل لى من أعلّكيا فتى قلت الطّبيب

فائدة: الرياح المعروفة أربعة: الصّبا و الدّبور و الشمال و الجنوب. أمّا الصّبا و تسمّى القبول، فهبوبها من مطلع الشمس. قال القزوينى : و هى قريبة

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۹۹

إلى الاعتدال، فإن كان هبوبها فى أول النهار فهى مائلة إلى البرد، لأنّها تمرّ على مواضع باردة، بردت ببعد الشمس عنها بالليل فتكون طيبة جدا إلا أنّ زمانها قليل، لأن شعاع الشمس يسوقها من خلفها، فإذا أشرقت الشمس ساقتها إلى قدامها فلا زالت تمرّ قدّام الشعاع و الشمس تلطّفها و تسخنها بحرّها و ضيائها حتى تصير معتدلة، و هى النسيم التى تدعى: الريح السحرية يلتذ الإنسان بها، فإذا مسّته يطيب له النوم عليها.

قلت: و على ذلك فما ألطف قول الملك عضد الدولة :

و قالوا أفق من لذّة اللّهو و الصّبافقد لاح صبح فى دجاك عجيب

فقلت أخلّائى دعونى و لذّتىفإنّ الكرى عند الصّباح يطيب

و المريض و المكروب يجد عند هبوب هذه الريح راحة، فهبوبها بالاسحار من الليل و الغدوات من النهار، لأنّ فى هذا الوقت اعتدال الهواء لاختلاط برودة الليل بحرارة النهار.

طريفة: حكى أبو الفرج فى الأغانى قال: إن أهل المجنون خرجوا به معهم إلى وادى القرى قبل توحّشه ليمتاروا خوفا عليه من أن يضيع و يهلك.

فمرّوا فى طريقهم بجبلى نعمان، فقال بعض فتيان الحى: هذان جبلا نعمان و قد كانت ليلى تنزل بهما، قال: فأىّ الرياح تأتى من ناحيتهما؟ قالوا: الصّبا، قال: فواللّه لا أريم هذا الموضع حتى تهبّ الصّبا. فأقام و مضوا، فامتاروا لأنفسهم، ثم أتوا عليه فأقاموا معه ثلاثة أيّام حتى هبّت الصّبا، فانطلق معهم و أنشأ يقول:

أيا جبلى نعمان باللّه خلّيانسيم الصّبا يخلص إلىّ نسيمها

أجد بردها أو تشف منّى حرارةعلى كبد لم يبق إلّا صميمها

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۰۰ فإنّ الصّبا ريح إذا ما تنفّستعلى نفس مكروب تجلّت همومها

و قد أكثرت الشعراء من ذكر الصّبا، فمن أحسن ما سمعت به فى هذا الباب قول بعضهم:

ناشدتكَ اللّه نسيم الصّبامن أين هذا النّفس الطيّب

هل أنت من ليلى رسول الرّضاأم أنت عن أسرارها تعرب

أم جزت فى أرض بها قد مشتأم ثغرها قبّلك الأشنب

فهات أتحفنى بأخبارهافعهدك اليوم بها أقرب

و مما هو أرقّ من النسيم قول ابن المعلم الواسطى من قصيدته المشهورة:

تنبّهى يا عذبات الرّندكم ذا الكرى هبّ نسيم نجد

مرّ على الرّوض و جاء سحرايسحب بردى أرج و برد

حتى إذا عانقت منه نفحةعاد سموما و الغرام يعدى

واعجبا منّى أستشفى الصّباو هل تزيد النار غير وقد

و القصيدة كلّها على هذا النسق الذى فاق الدرر فى أسلاكها، و الدرارى فى أفلاكها، و قد اقتفيت أثره فقلت:

سل الدّيار عن أهيل نجدإن كان تسآل الدّيار يجدى

وقف بها نبك الطّلول ساعةلعلّه يشفى غليل وجدى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۰۱ منازل قد حزت فيها أربىو نلت سؤلى و قضيت و عدى

ما عنّ لى ذكر زمان قد مضىفى ظلّها إلّا أهاج و قدى

أصبو من الهند إلى نجد هوىو أين نجد من ديار الهند

و ألتقى كلّ رياح خطرتأحسبها ليلا نسيم نجد

آه من البين المشتّ و النّوى كم قرّحا من كبد و خدّ

فهل ترى ينتظم الشّمل الذىقد نثرته البين نثر العقد

و هل لأيّام الصّبا من مرجعأم هل لأيّام النّوى من بعد

أنوح ما ناح الحمام غدوةهيهات ما قصد الحمام قصدى

أبكى و تبكى لوعة و طرباو ما بكاء الهزل مثل الجدّ

ظنّت حمامات اللّوى عشيّةفى الحبّ أنّ عندها ما عندى

تبكى على غصن النّقا لهوا و منشبّه غصنا فى الهوى بقدّ

شتّان ما بين جو و فرحو بين مخف سرّه و مبدى

ما مشربى صاف و إن ساغ و لاعيشى من بعد النّوى برغد

سل أدمعى عمّا تجنّ أضلعىفالقلب يخفى و الدموع تبدى

كم أنشد الروض إذا هبّت صبا(تنبّهى يا عذبات الرّند)

و أما الدبور فتقابل الصّبا، لأنّ هبوبها من مغرب الشمس، و خواصها مخالفة لخواص الصّبا، لأنّها تهبّ و الشمس مدبرة عنها فلا تسخنها تسخين الصّبا. و هبوبها فى آخر النهار و لا تهبّ قبله، و لا [تهبّ] بالليل لأن الشمس

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۰۲

تبلغ محلّ مهبّها فى ذلك الوقت، فتتحلّل البخارات منه، و لذلك يكون هبوبها قليلا جدّا و أمّا الشمال فهى من ناحية الشام، و هبوبها من نحت بنات نعش، و هى باردة يابسة لأنّها تأتى من الجهة التى لا تسامتها الشمس أصلا بل لا تقربها، و يكون الثلج و جمود الماء بها كثيرا، و هى أشد هبوبا من الجنوب لأنّها تهب من موضع ضيّق كالماء الذى يخرج من الأنبوب الضيّق بخلاف الجنوب- كذا فى عجائب المخلوقات للقزوينى.

و الذى رأيناه فى اليمن: ان الجنوب أشدّ هبوبا من كلّ الرياح، فلعلّ ذلك فى غير اليمن، و تكون العلة ظاهرة حينئذ، لأن الجنوب يمانيّة- كما سنذكره- و قد ذكرت الشعراء الشمال فى أقوالها، فمن ذلك قول سيّدنا الشريف الرضى رضى اللّه عنه (*) من قصيدة:

و هبّت لأصحابى شمال لطيفةقريبة عهد بالحبيب بليل

ترانا إذا أنفاسنا مزجت بهانرنّح فى أكوارنا و نميل

و لم أر نشوى للشّمال عشيّةكأنّ الذى غال الرّؤوس شمول

قال النواجى : و تجمع الشمال على شمائل، و لذا حسن به التورية، و منه قول الشيخ شمس الدين محمد الأرموى :

كم للنّسيم على الرّبى من نعمةو فضيلة بين الورى لن تجحدا

ما زارها و شكت إليه فاقةإلّا و هزّ لها الشمائل بالنّدى

و كان الصاحب بن عباد رحمه اللّه يترنّم بقول أبى نواس (*):

هبّت لنا ريح شماليّةمتّت إلى القلب بأسباب

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۰۳ أدّت رسالات الهوى بيناعرفتها من بين أصحابى

قال فى الحلبة: واللّه إنّ الصاحب لمعذور، فإنّ هذا مما يرنّح الجماد.

و قال ابن حجة فى تقديمه بعد أن مثّل بهما لنوع النوادر: و قد جارى أبا نواس فى بديع هذا النوع و نادرة هذا المعنى محيى الدين الخياط ، و لولا الحياط لقلت إنّه أحرز قصبات السبق عليه حيث قال:

يا نسيم الصّبا الولوع بوجدىحبّذا أنت إن مررت بهند

و لقد رابنى شذاك فباللّهمتى عهده بأطلال نجد

قال: بين (و لقد رابنى شذاك)، و بين (عرفتها من بين أصحابى) معرك ذوقىّ لا يدركه إلّا من صفت مرآة ذوقه فى علم الأدب. انتهى.

و أما الجنوب فتقابل الشمال و هى من ناحية اليمن، و هى حارة رطبة، لأنّ هبوبها من ناحية خطّ الاستواء، و الحرّ هناك مفرط، لأنّ الشمس تسامتها فى السنة مرتين، و لا تباعد عنها فتزداد بذلك حرّا، و ايضا هذه الجهة كثيرة البخار فتبخر الشمس منها أبخرة كثيرة رطبة، فتكتسب الجنوب منها الرطوبة، و هى ترخى الأبدان و تحدث ثقلا فى الأسماع و غشاوة فى الأبصار، و تورث الكسل و من العجب أنّ الجنوب إذا هبّت على المار الحار برّدته، و الشمال تتركه على حرارته كما كان.

قالوا: سبب ذلك أنّ عند هبوب الشمال تكمن الحرارة فى داخل الماء

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۰۴

كما نرى فى الشتاء، فإن الحرارة تكمن فى جوف الأرض، فيبقى داخلها حارا. و أمّا عند هبوب الجنوب فالحرارة تخرج من داخل الماء كما نرى فى الصيف فإنّ الحرارة تخرج من جوف الأرض إلى ظاهرها، و يبقى (داخلها باردا يعود إلى طبعه) ، و العرب تحمد الجنوب لأنّها تنشىء السحاب، و يزعمون أنّ اللواقح إنما تكون من الجنوب، و لا مطر مع شىء من الرياح، و اللّه أعلم.

انتهى من عجائب المخلوقات.

و كلّ ريح انحرفت عن مهابّ هذه الرياح الأربع فوقعت بين ريحين منها فهى نكباء، و جمعها: نكب. و نظم بعضهم مهاب الرياح فقال:

شملت بشام و الجنوب تيامنتو صبا بشرق و الدّبور بمغرب

فائدة ستيّة: قال العلامة بدر الدين الدمامينى فى شرح التسهيل: قال ابن هشام: سألنى سائل، من أين تهبّ الصّبا؟ فأنشدته :

ألم تعلمى يا عمرك اللّه أنّنى كريم على حين الكرام قليل

و أنّى لا أخزى إذا قيل مملقسخىّ و أخزى أن يقال بخيل

و لم يزد على ذلك، و فيه غموض فتنبّه. انتهى.

و قال فى شرح المغنى بعد حكايته ذلك: وجه صلاحية هذا للجواب، إنه اشتمل على بناء (حين) المضافة إلى الجملة فى قوله (على حين الكرام قليل).

فأشار به بيت مشارك له فى هذا الحكم، و هو قول الشاعر:

إذا قلت هذا حين أسلو يهيجنىنسيم الصّبا من حيث يطّلع الفجر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۰۵

حيث قيل فيه (حين أسلو) فبنى (حين) المضافة إلى الجملة، و لا يخفى أن هذا البيت المشار إليه بإنشاد ذينك البيتين صريح فى ذكر محل الصبا، إذ قيل فيه (نسيم الصبا من حيث يطّلع الفجر). فظهر المقصود و للّه الحمد.

انتهى.

رجع: ثم لم نزل نقاسى محن الغربة، و نكابد إحن الكربة، و قد طالت أيّام البين و النوى، و اضطرمت لواعج الوجد و الجوى، تتجرّع من كأس الاغتراب ما هو أمرّ من العلقم، و نعانى من بأس الاكتئاب ما يهون عنده نهش الأرقم. إذا عنّ التذكّر لما مضى تزايدت آلام الحزن و الأسى، و إذا اعترض التفكر فيما حلّ به القضا، قطعنا الأيّام بلعلّ و عسى. فواها لتلك الأعوام التى مضت كيف انقضت، و آها من هذه الأيام. (التى برت كيف انبرت).

و هكذا الدّهر ما زالّت نوائبهتقلّب المرء بين الصّفو و الكدر

و لقد كنت أبرز إلى تلك الحدائق الأنيقة، و أتنقّل فيها من حديقة إلى حديقة، لعلّى أجد بذلك سلوة عمّا أنا فيه، و هيهات ما لمثلى و للتسلّى أنّى إذن لسفيه. فأعود و قد تضاعفت بواعث الهمّ و التذكار، و ترادفت نوابث الغمّ و الأفكار.

و ما ذات طوق فى فروع أراكةلها رنّة تحت الدّجى و صدوح

ترامت بها أيدى النّوى و تمكّنتبها فرقة من أهلها و نزوح

فحلّت بزوراء العراق و زغبهابعسفان ثاو منهم و طليح

نحنّ إليهم كلّما ذرّ شارقو تسجع فى جنح الدّجى و تنوح

إذا ذكرتهم هيّجت ذا بلابلو كادت بمكتوم الغرام تبوح

بأبرح من وجدى لذكرى أحبّتىإذا لاح برق أو تنسّم ريح

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۰۶

و لم نزل من أمرنا على غمّة، و من دهرنا فى ليال مدلهمّة، لا نعرف لمآلنا قبيلا من دبير، و لا نجد لما تتشوّفه من الخبر من يقول على الخبير. حتى وافت البشائر، و نصبت للتهانى الأشائر، بأن قد أقلع ذلك السحاب، و جاء من ألطاف اللّه تعالى ما لم يكن فى الحساب، و صفت الأحوال، و سكنت الفتن، فسكن الفؤاد عند ذلك و اطمأن. و أخذنا فى أهبة السفر مستبشرين بالنيل و الظفر، زاعمين أن فى وصولنا إلى تلك الدار أمنا من شوائب الدهر و الأكدار، و القضاء يقول من مكمنه: قد يؤتى الحذر من مأمنه.

ليت الذى علق الرجاء بهإذ لم يجد للصّبّ لم يجد

لم يثمر الظنّ الجميل بهفقدى من الظنّ الجميل قدى

كم من مطامع قد عقدت بهاطمعى فحلّ مرائر العقد

و أعادنى منها على أسفو أباتنى فيها على ضمد

و لمّا أهاب بنا من البين داع، و آن أوان الارتحال و الوداع، كتبت إلى والى مخا السيّد المقدم ذكره- و كان قد عاد من حضرة مخدومه إلى خدمته- بهذين البيتين:

مددت إلى التوديع كفا ضعيفةو أخرى على الرّمضاء فوق فؤادى

فلا كان هذا العهد آخر عهدناو لا كان ذا التّوديع آخر زادى

و هذان البيتان أنشدهما أبو المعالى عزيزى بن عبد الملك قال أنشدنيهما والدى عند خروجه إلى الحج.

فكتب إلىّ السيد المشار إليه قول أبى الطيب :

يا من يعزّ علينا أن نفارقهموجداننا كلّ شىء بعدكم عدم

ثم ودعناه توديع الولد للوالد، و لقينا من فراقه ما هان معه الطارف

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۰۷

و التالد، فشيّعنا تشييع الأقارب، إلى أن تبطّنا القارب، فشكر اللّه سعيه و أدام بفضله رعيه.

أبو تمام :

و ما ابن آدم إلّا ذكر صالحةأو ذكر سيّئة يسرى بها الكلم

أما سمعت بدهر باد أمّتهجاءت بأخبارها من بعدها أمم

و كان خروجنا من المخا يوم السبت لثمان خلون من ذى القعدة الحرام سنة سبع و ستين، فكانت مدة إقامتنا بها أربعة عشر شهرا و ستة أيام، و على ذلك فما ألطف قول عمر بن أبى ربيعة :

باللّه قولى له فى غير معتبةماذا أردت بطول المكث فى اليمن

إن كنت حاولت دنيا قد رضيت بهافما أصبت بترك الحجّ من ثمن

أخبر خلاد بن يزيد الباهلى قال: ركب ابن جريج دين- سمّاه و كثّره- فأتى معن بن زائدة باليمن فوعده فطول عليه، قال ابن جريج: إنى لفى منزلى و دخل شهر الحج فذكرت بيتى عمر- باللّه قولى له، البيتين- قال:

قلت: و اللّه هو ذلك، و أصبحت غاديا على معن فقلت: أستودع اللّه الأمير، قال: و ما ذاك؟ قلت: حضر الحج و طال مقامى، قال: لا و اللّه و لكن هذا حادث رأى. فلم يزل بى حتى أنشدته بيتى عمر، فقال: لا جرم، لا تمش حتى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۰۸

تقضى حاجتك. و كان معن يتولى عمل اليمن للمنصور، ثم تولاها بعده ابنه زائدة.

قلت: و الشىء بالشىء يذكر، و الحديث شجون. قيل: إن المنصور سخط على أحمد بن يزيد السلمى فصرفه عن أرمينية، و ألزمه بيته، فنمى الخبر إلى معن و هو يتقلّد اليمن، فكتب إليه:

نمى إلىّ يا أمير المؤمنين أن سخطة لحقت أحمد بن يزيد بن أسيد السلمى من أمير المؤمنين، و لم تزل الملوك تعاقب على أشياء، و تصفح عن أشياء، فأمّا الذى تعاقب عليه: فالقدح فى الملك، و إفشاء السرّ، و التعرّض للحرم. و أمّا الذى تصفح عنه: فاحتجان الأموال، فإنّ مال الخادم للمخدوم، فى يومه و غده. فإن كان أحمد بن يزيد أتى ما يعاقب عليه الملوك فما ينبغى أن يكون حيّا و إن كان احتجن مالا فأحمد خير لأمير المؤمنين من أرمينية و أموالها. فقال المنصور: أف لكم معاشر الكتّاب، ذهب عليكم أن تخبرونى به حتى تناولنى به معن من اليمن، على لوثة أعرابية. و وجه إلى أحمد بن يزيد فخلع عليه و ردّه إلى عمله.

و ما كلّ ذى لبّ بمؤتيك نصحهو لا كلّ مؤت نصحه بلبيب

و لكن إذا ما استجمعا عند واحدفحقّ له من طاعة بنصيب

و لما امتطينا من السفينة صهاها، و تلونا بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها شاهدنا من هذا البحر الزاخر، ما أنسينا معه الأول و الآخر، حتى استبان لنا أن ذلك البحر الذى أكبرناه، و أنكرنا منه ما أنكرناه، إنّما هو قطرة من ماء، بالنسبة إلى هذا الدأماء . و لقد سرنا فيه أياما لا نرى سوى الماء تحت

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۰۹

السماء. (و ألطف قول بعض المعاصرين).

قالوا مسير الفلك فى بحره كالطّير يسرى بجناحين

و الفرق ما بينهما واضح‌لكلّ ذى عين بلا مين

الطير فى الجوّ غدا طائرابين السّما و الأرض عن عين

و فلكنا لما طما بحره‌طار بنا بين سمائين

و للصاحب تاج الدين:

أنظر إلى قطع المراكب إذ بدت‌و الماء يعلو حولها و يدور

مثل السّحائب لا يفرّق بينهانظر و كلّ بالرّياح يسير

و لابن النطاح يصف البحر:

يا مادح البحر و هو يجهله‌مهلا كفانى قليله علما

مكسبه مثل قعره بعداو رزقه مثل مائه طعما

ابن رشيق (*) فى ذمه و ركوبه:

البحر صعب المرام مرّلا جعلت حاجتى إليه

أليس ماء و نحن طين‌فما عسى صبرنا عليه

و قال ابن حمديس : اجتمعت مع أبى الفضل جعفر بن المقترح

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۱۰

الكاتب بسبتة فذكر لى بيتى ابن رشيق ثم قال: أتقدر على اختصار هذا المعنى؟

فقلت: نعم أقدر على ذلك و أنشدته :

لا أركب البحر خوفاعلىّ منه المعاطب

طين أنا و هو ماءو الطين فى الماء ذائب

فاستحسن ذلك إذ كان على الحال، فأقام عنى أياما ثم اجتمعت به فأنشدنى لنفسه فى المعنى:

ان ابن آدم طين‌و البحر ماء يذيبه

لولا الذى فيه يتلى‌ما جاز عندى ركوبه

فأنشدته:

و أخضر لولا آية ما ركبته‌و ذلك تصريف القضاء بما شاء

أقول حذارا من ركوب عبابه‌أيا ربّ إنّ الطين قد ركب الماء

و من بديع إنشاء ابن حجة الحموى (*) رسالته البحرية التى كتب بها إلى البدر الدمامينى (*) يصف البحر و السفينة، منها قوله:

يا مولانا و أبثك ما لاقيت من أهوال هذا البحر، و أحدّث عنه و لا حرج، فكم وقع المملوك من أعاريضه فى زحاف تقطّع منها القلب لمّا دخل إلى دوائر تلك اللجج، و شاهدت منه سلطانا جائرا يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً . و نظرت إلى الجوار الحسان و قد رمت أزر قلوعها، و هى بين يديه لقلّة رجالها تسبى، فتحقّقت أنّ رأى من جاء يسعى فى الفلك جالسا غير صائب، و استصوبت هنا رأى من جاء يمشى و هو راكب. و زاد الظمأ بالمملوك و قد اتخذ فى البحر سبيله، و كم قلت من شدّة الظمأ: يا ترى قبل الحفرة هل أطوى من البحر هذه الشقة الطويلة:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۱۱ و هل أباكر بحر النّيل منشرحاو أشرب الحلو من أكواب ملّاح

بحر تلاطمت علينا أمواجه حين متنا من الخوف، و حملنا على نعش الغراب، و قامت و اوات دوائره مقامع فنصبتنا للغرق لما استوت المياه و الأخشاب، و قارن العبد فيها سوداء استرقّت موالينا و هى جارية فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ ، هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ . واقعها

الحرب فحملت بنا، و دخلها الماء فجاءها المخاض، و انشق قلبها لفقد رجالها، فجرى ما جرى على ذلك القلب و فاض. و توشّحت بالسواد فى هذا المأتم، و سارت على البحر و هى مثل، و كم سمع للمغاربة على ذلك التوشيح زجل. برج مائى و لكن تعرب فى رفعها و خفضها عن النسر و الحوت، و تتشامخ كالجبال و هى خشب مسنّدة عدّ من المقبرين فى تابوت. تأتى بالطباق و لكن بالقلوب، لأن صغيرها كبير، و بياضها سواد، و تمشى على الماء، و تطير مع الهواء، و صلاحها عين الفساد.

إن نقّر الموج على دفوفها لعبت أنامل قلوعها بالعود، و ترقصنا على آلتها الحدباء فتقوم قيامتنا من هذا الرقص الخارج و نحن قعود. تتشامم و هى- كما قيل- أنف فى السماء و أست فى الماء، و كم نطيل الشكوى إلى قامة صاريها عند الميل و هى الصعدة الصمّاء، فيها الهدى و ليس لها عقل و لا دين، و تتصابى إذا هبّت الصّبا و هى ابنة مائة و ثمانين، و توقف أحوال القوم وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ و تدعى براءة الذمّة و كم استغرقت لهم من أموال. هذا و كم ضعف نحيل خصرها عن تثاقل أرداف الأمواج، و كم و جلت القلوب لمّا صار لأهداب مجاذيفها فى مقلة البحر اختلاج، و كم أسبلت على و جنة طرّة قلعها فبالغ الريح فى تشويشها، و كم مرّ على قريتها العامرة فتركها وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها . تتعاظم فتهزل إلى أن ترى ضلوعها من السقم تعدّ، و لقد رأيناها

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۱۲

بعد ذلك قد ثبتت و هى حَمَّالَةَ الْحَطَبِ* فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ .

لطيفة: ذكر القاضى ابن خلكان قال: حكى تاج العلى أبو زيد المعروف بالنسّابة قال: حدثنى أبو الأصبغ نباتة بن الأصبغ بن زيد بن محمد الحارثى الأندلسى عن جده زيد بن محمد قال: بعث المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية إلى أبى العرب الزبيرى خمسمائة دينار، و أمره أن يتجهز بها و يتوجه إليه- و كان بجزيرة صقلية و هو من أهلها، و هو أبو العرب مصعب بن محمد بن أبى الفرات القرشى الصقلى الشاعر - و بعث مثلها إلى أبى الحسن الحصرى و هو بالقيروان، فكتب إليه أبو العرب:

لا تعجبنّ لراسى كيف شاب أسىو اعجب لأسود عينى كيف لم يشب

البحر للرّوم لا تجرى به سفنإلّا على غرر و البرّ للعرب

و كتب إليه الحصرى (*):

أمرتنى بركوب البحر أقطعهغيرى، لك الخير، فاخصصه بذا الداء

ما أنت نوح فتنجينى سفينتهو لا المسيح أنا أمشى على الماء

و ما ألطف قول الخباز البلدى و قد سافر محبوبه فى البحر:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۱۳ سار الحبيب و خلّف القلبايبدى العزاء و يضمر الكربا

قد قلت إذ سار السّفين بهو الشوق ينهب مهجتى نهبا

لو أنّ لى عزّا أصول بهلأخذت كلّ سفينة غصبا

قيل: و ليس فى المعمور أعظم من هذا البحر الذى ركبناه و هو البحر الهندى، و يقال له: الحبشى.

قال المسعودى: يمتد طوله من المغرب إلى المشرق، من أقصى الحبش إلى أقصى الهند و الصين ثمانية آلاف ميل، و عرضه ألفان و تسعمائة، و فى مواضع أخر ألف و تسعمائة، و قد يتقارب فى قلة العرض فى موضع دون موضع و يكثر. و قد قيل فى طوله و عرضه غير ما وصفنا من الكثرة أعرضنا عن ذكره لعدم الدلالة على صحته عند أهل هذه الصناعة.

و قد ذكر كيفية تشعّب الخلجان منه، و امتدادها إلى أماكن لا حاجة بنا إلى ذكرها. و إن بحر فارس، و بحر اليمن، و بحر القلزم، و بحر الحبش، و بحر الزنج، و بحر الصين كل هذه البحور خلجان من هذا البحر. و عدّ بحورا أخرى تتشعب من هذا البحر، و لسنا بصدد بيان ذلك. و لا بأس بذكر شىء من أخبار البحر و عجائبه، و جزائره إلى غير ذلك مما يفضى إليه المقام لما فيه من الإشارة إلى كمال قدرة اللّه تعالى و عظيم سلطانه.

ففى كلّ شىء له آيةتدلّ على أنّه واحد

تنازع المتقدمون من الحكماء فى مبادئ كون البحار و عللها. فذهب طائفة منهم إلى أنّ البحر هو بقيّة من الرطوبة الأولى التى جفّف أكثرها جوهر النار، و ما بقى منها استحال لاحتراقه ملحا.

و منهم من قال: انّ الرطوبة الأولى المجتمعة لما احترقت بدوران

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۱۴

الشمس و انعصر الصفو منها استحال الباقى إلى ملوحة و مرارة.

و منهم من رأى أنّ البحار عرق تعرقه الأرض لما ينالها من احتراق الشمس لاتصال دورها.

و منهم من رأى أنّ البحر هو ما بقى مما صفّته الأرض (من الرطوبة الثانية). و قيل غير ذلك.

و هو خلاف لا ثمرة فيه. و ذكر أنّ اللّه تعالى لما أمر نوحا (ع) بركوب السفينة (و غرق الأرض) خمسة أشهر، ثم أمر الأرض أن تبلع الماء، و السماء أن تقلع، و استوت على الجودى، أسرع بعض الأرض إلى بلع الماء عندما أمرت، و بعضها لم يسرع. فمن أطاع كان ماؤه عذبا إذا احتفر، و ما تأخّر أعقبه اللّه بماء ملح. و ما تخلّف من الماء الذى امتنعت الأرض من بلعه صار إلى قعور مواضع من الأرض، فمن ذلك البحار و هى بقية ماء غضب أهلك به أمم. كذا نقله المسعودى فى أول كتابه.

و هذا إن صح فى الأثر فلا كلام، و إلّا فقضيته أنّ البحار لم تتكون قبل زمان نوح (ع) و فيه نظر ظاهر لمن تتبع الأثر.

و ذكر صاحب المنطق: أنّ مواضع البرّ ليست هى أبدا برّا، و لا مواضع البحر أبدا بحرا بل قد تكون برا حيث كان مرة بحرا، و تكون بحرا حيث كان مرة برا، و علّة ذلك الأنهار و بدؤها، فإن لمواضع الأنهار شبابا و هرما، و حياة و موتا و نشورا كما يكون ذلك فى الحيوان، إلّا أنّ الشباب و الكبر فى الحيوان لا يكون جزءا بعد جزء، بل تشبّ و تكبر أجزاؤها معا، و كذلك تهرم و تموت فى وقت واحد. فأما الأرض فإنها تهرم و تكبر جزءا بعد جزء و ذلك بدوران الشمس. و قد اختلف فى علة المدّ و الجزر اختلافا طويلا لا حاجة بنا إلى التطويل بذكره.

و أمّا عجائب البحر فلا تدخل تحت الحصر، و يكفى فى ذلك الحديث:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۱۵

حدثوا عن البحر و لا حرج. قيل: الواو للحال، أى حدّثوا عنه حال لا حرج عليكم فى ذلك. و لنذكر منها نبذة مستطرفة:

قال القشيرى: يقال: أنّ سليمان (ع) سأل ربّه أن يأذن له أن يضيف يوما جميع الحيوانات، فأذن اللّه تعالى له، فأخذ فى جمع الطعام مدة طويلة، فأرسل اللّه تعالى له حوتا واحدا من البحر فأكل كلّ ما جمعه سليمان فى تلك المدة الطويلة ثم استزاد، فقال سليمان: لم يبق لى شىء، ثم قال له: و أنت تأكل كلّ يوم مثل هذا؟ فقال: رزقى كلّ يوم ثلاثة أضعاف هذا، و لكن اللّه تعالى لم يطعمنى اليوم إلّا ما أطعمتنى أنت، فليتك لم تضفنى، فإنى بقيت اليوم جائعا حيث كنت ضيفك.

و فى هذا إشارة إلى عظيم سلطان اللّه تعالى وسعة خزائنه، إذ مثل سليمان (ع) مع عظم ملكه الذى آتاه اللّه تعالى عجز عن أن يشبع مخلوقا من مخلوقات اللّه تعالى، ثم انظر ما اشتمل عليه البحر مما يشبع هذا الحوت فى كل يوم، فسبحان المتكفّل بخلقه.

و قال أبو حامد الأندلسى : رأيت سمكة بقرب مدينة سبتة من نسل الحوت الذى أكل منه موسى (ع) و فتاه يوشع، فأحيا اللّه نصفه فاتّخذ سبيله فى البحر سربا، و نسلها فى البحر إلى الآن فى ذلك الموضع، و هى سمكة طولها أكثر من ذراع، و عرضها شبر واحد، فى جانبيها شوك و عظام، و جلدها رقيق على أحشائها (و لها عين و نصف رأس من رآها من هذا الجانب استقذرها، و يحسب أنّها مأكولة ميّتة، و نصفها الآخر صحيح، و الناس يتبركون بها و يهدونها إلى المواضع البعيدة قال ابن عطية : و أنا رأيته كذلك.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۱۶

(و عن ابن عباس) إن الحوت إنما حيى لأنّه مسه ماء عين هنالك تدعى عين الحياة، ما مسّت شيئا ميتا قطّ إلّا و حيى، و كانت حياة

الحوت عند مجمع البحرين: بحر [العرب] و بحر القلزم مما يلى الشرق، و قيل: هما بحر الأردن، و بحر القلزم، و قيل غير ذلك.

و الحكمة فى جمع موسى مع الخضر عليهما السلام بمجمع البحرين:

أنّهما بحران فى العلم، أحدهما أعلم بالظاهر- يعنى الشرع- و هو موسى (ع)، و الآخر أعلم بالباطن- يعنى علم الحقيقة و أسرار الملكوت- و هو الخضر (ع). كذا فى حياة الحيوان الكبرى للدميرى.

و من العجائب ما حكاه القزوينى فى عجائب المخلوقات عن عبد الرحمن بن هارون المغربى قال: ركبت بحر المغرب فوصلنا إلى موضع يقال له: البرطون، و كان معنا غلام صقلّى معه صنارة فألقاها فى البحر، فاصطاد سمكة نحو الشبر، فإذا خلف أذنها اليمنى مكتوب: لا إله إلّا اللّه، و فى قفاها:

محمد، و خلف أذنها اليسرى: رسول اللّه.

و من عجائب البحر: إنسان الماء، و هو يشبه الإنسان إلّا أن له ذنبا. قال القزوينى: و قد جاء شخص بواحد منها فى زماننا مقددا كما ذكرنا، و يقال: أنه يظهر فى بحر الشام فى بعض الأوقات من شكله شكل إنسان، و له لحية بيضاء يسمونه: شيخ البحر، فإذا رآه الناس استبشروا بالخصب.

و حكى أن بعض الملوك حمل له إنسان الماء، فأراد الملك أن يعرف

رحلة ابن معصوم المدنى ؛ ص۱۱۷

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۱۷

حاله فزوّجه امرأة، فأتاه منها ولد يفهم كلام أبويه، فقال للولد: ما يقول أبوك؟ قال يقول: أذناب الحيوانات كلّها فى أسفلها، فما بال هؤلاء أذنابهم فى وجوههم؟ و بنات الماء كالنساء.

قال ابن أبى الأشعث: هى سمك ببحر الروم تشبه النساء، ألوانهنّ إلى السمرة، ذوات شعور و فروج عظام وثدى، و كلام لا يكاد يفهم، و يضحكون و يقهقهون، و ربّما وقعن فى أيدى بعض أهل المراكب فينكحوهنّ ثم يعيدونهن إلى البحر. و يقال: إن هذا الجنس يوجد فى برّ رشيد .

و حكى عن الشيخ أبى العباس الحجازى، قال: حدثنى بعض التجار:

أنه فى سنة من السنين خرجت إليهم سمكة عظيمة، فنقبوا أذنها و جعلوا فيها الحبال و أخرجوها، ففتحت أذنها فخرجت جارية حسناء جميلة بيضاء، سوداء الشعر، حمراء الخدين نجلاء العينين من أحسن ما تكون من النساء، و من سرّتها إلى نصف ساقيها شىء كالثوب يستر قبلها و دبرها، و دائر عليها كالإزار، فأخذتها الرجال إلى البر فصارت تلطم وجهها، و تنتف شعرها، و تعضّ يديها، و تصيح كما يصيح النساء حتى ماتت فى أيديهم، فألقوها فى البحر، فتبارك اللّه أحسن الخالقين.

و قال صاحب تحفة الغرائب: حدثنى الشيخ أبو العباس الحجازى قال:

حدثنى رجل يعرف بالهارونى من ولد هارون الرشيد أنّه ركب سفينة فى بحر الهند، فرأى طاووسا قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر، و أجمل ألوانا، قال: فكبّرنا لحسنه، فجعل يسبح و ينظر إلى نفسه، ينشر أجنحته و ينظر إلى ذنبه ساعة ثم غاص فى البحر.

و فرس البحر يوجد بالنيل أفطس الوجه، ناصيته كالفرس، و أرجله كالبقر، و ذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير، و جلده غليظ، و وجهه أوسع من وجه الفرس. يصعد البرّ، و يرعى الزرع، و ربما قتل الإنسان و غيره.

و فى البحر سمكة تسمّى (الدلفين) تنجى الغريق، يدنو منها فتمكّنه من

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۱۸

ظهرها ليستعين على السباحة فتكون من أقوى الأسباب فى نجاته، و صفتها كصفة الزقّ المنفوخ، و لها رأس صغير جدّا و لا تؤذى أحدا، و لا تأكل إلّا السمك.

و حكى القزوينى: أنّه يؤتى فى بعض الجزائر على قصر مصنوع من بلّور على قلعة محكمة البناء، و حولها قناديل لا تطفأ.

و نقل عن أبى حامد الأندلسى صاحب تحفة الغرائب (*): أنّ على البحر الأسود من ناحية الأندلس كنيسة من الصخر منقورة فى الجبل عليها قبة عظيمة، و على القبة غراب لا يبرح. و مقابلة القبة مسجد تزوره الناس، يقولون: إن الدعاء فيه مستجاب. و قد شرط على القسيسين ضيافة من زار ذلك المسجد من المسلمين، فإذا قدم زائر أدخل الغراب رأسه فى روزنة على تلك القبة و يصيح صيحة، فإن قدم اثنان صاح صيحتين و هكذا كلما قدم زوّار صاح على عددهم، فيخرج الرهبان بطعام يكفى الزائرين. و تعرف تلك الكنيسة بكنيسة الغراب، و يزعم القسيسون أنّهم ما زالوا يرون غرابا على تلك القبة و لا يدرون من أين يأكل.

و من جزائر البحر العجيبة: جزيرة القمر (بضم القاف و إسكان الميم ثم راء مهملة) طولها أربعة عشر فى عرض عشرين يوما إلى أقل من ذلك، و تحاذى جزيرة سرنديب- كذا فى الخطط- و قال السمعانى فى الأنساب:

أظنّها بمصر. و فى المستطرف: يقال أنها بالقرب من نيل مصر. قال: و يقال أن بها شجرا طول الشجرة مائتا ذراع، و دور ساقها مائة و عشرون ذراعا، و بها طوائف من السودان عرايا الأبدان يلتحفون بورق الشجر، و هو ورق يشبه ورق الموز لكنّه أسمك و أعرض و أنعم، و يقال أنّ هذه الأمة التى بها يتمذهبون

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۱۹

بمذهب الشافعى، و هم فى غاية اللّطافة من الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر. بالقرب منهم معدن الذهب و الياقوت، و بها الفيلة البيض، و حيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش و غيرها، و بها العود القمارى، و الأبنوس، و الطواويس، و بها مدن كثيرة. قال فى الخطط: و إليها ينسب الطائر القمرى.

و نقله السمعانى فى الأنساب أيضا عن صاحب الجمل قال: و القمرى طائر ينسب إلى هذه البلدة.

و منها جزيرة واق خلف جبل يقال له أصطنون داخل البحر الجنوبى، قال القزوينى: إن هذه الجزيرة كانت ملكتها امرأة، و إن بعض المسافرين وصل إليها و دخل فرأى هذه الملكة و هى جالسة على سرير، و على رأسها تاج من الذهب، و حولها أربعمائة وصيفة كلهنّ أبكار. قيل: و فى هذه الجزيرة شجر يشبه شجر الجوز و الخيار الشنبر و يحمل حملا كهيئة الإنسان، فإذا انتهى يسمع له تصويت يسمع منه (واق) ثم يسقط.

و عن الجاحظ أن الواق واق نتاج بين بعض النبات و بين بعض الحيوانات، ذكره الدميرى فى حياة الحيوان الكبرى.

قال القزوينى: و هذه الجزيرة كثيرة الذهب، يقال أن (سلاسل خيلهم و مقاود كلابهم و أطواقها) من الذهب، و اللّه سبحانه أعلم.

و بالجملة فعجائب البحر لا تدخل تحت الحصر، و هذه قطرة من بحر، و قليل من كثير.

غريبة: روى أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة سفيان بن عيينه عن مسعر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۲۰

بن كدام أنّه قال: أن رجلا ركب البحر فانكسرت السفينة فوقع فى جزيرة، فمكث ثلاثة أيام لم ير أحدا، و لم يأكل و لم يشرب فتمثل فقال:

إذا شاب الغراب أتيت أهلىو صار القار كاللّبن الحليب

فأجابه صوت مجيب يسمع صوته و لا يرى شخصه و هو يقول:

عسى الكرب الذى أمسيت فيهيكون وراءه فرج قريب

فنظر فإذا سفينة أقبلت، فلوّح لهم فأتوه فحملوه فأصاب خيرا كثيرا.

كان شريح القاضى لا يقبل شهادة من ركب البحر و يقول: من لا يكون أمينا على نفسه لا يكون أمينا على غيره.

و فى الحديث: لا تركب البحر إلّا حاجا، أو معتمرا، أو غازيا فى سبيل اللّه، فإنّ تحت البحر نارا، و تحت النار بحرا.

و أراد عمر بن الخطاب يغزو قوما على البحر، فكتب إليه عمرو بن العاص و هو عامله على مصر: يا أمير المؤمنين إن البحر خلق عظيم يركبه خلق صغير، دود على عود. فقال عمر: لا يسألنى اللّه عن أحد أحمله فيه.

امتنع حكيم من ركوب البحر فقيل له فى ذلك فقال: إنى لأكره أن أركب ما لا أملك عنانه، و لا أضبط زمامه.

قيل لبعض التجار: ما أعجب ما رأيت فى البحر؟ قال: سلامتى منه.

فائدة: إذا اضطرب البحر يتكئ الراكب على جانبه الأيمن و يقول:

أسكن بسكينة اللّه. و قرّ بقرار اللّه، و اهدأ بإذن اللّه، و لا حول و لا قوّة إلا باللّه.

و روى ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم أنّه قال: أمان لأمتى من الغرق إذا هم ركبوا السفن أن يقولوا: بسم اللّه الملك وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۲۱

يُشْرِكُونَ . بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

و ما أحسن قول الوزير الكاتب أبى بكر بن سعيد ابن القبطرنة البطليوسى من رقعة كتبها إلى الوزير أبى الحسين بن سراج :

و لولا عوائق الزمان لطرت إليك بجناح، أو لا متطيت أعناق الرياح. إلى أن قال: أو اتخذت السمكة سفينة، و أقمت لها من النعائم ألواحا، و عطارد ملّاحا، و شرعتها بالغيوم، و سمرتها بالنجوم، و جدفت بالفرقدين، و حملت من آمالى فيها من كل زوجين اثنين، و اعتصمت بالقوّة و الحول، و خالفت كلّ من سبق عليه القول، و استعذت من شيطان الكسل و هو رجيم، و قلت بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ و تلطّف من قال:

بلغت رشدى و ما أدركت منك منىوا حيرتى من بلوغى قبل إدراكى

سفينة الصّبر فى بحر الدموع رستفقال جفنى باسم اللّه مجراك

و ما ألطف قول الشيخ الأديب اللابس من أثواب الفصاحة بردها القشيب جعفر بن محمد الخطّى شاعر البحرين، و هو المبلغ من محاسن الشعر الأمانى، و ناهيك باللؤلؤ البحرانى، من قصيدة:

و عبرة لو دعى نوح ليركبهابفلكه قال باسم اللّه مجريها

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۲۲

و ما أحسن قوله بعد هذا البيت:

و مقلة ألفت فرط السّهاد فلوردّ الرقاد عليها كاد يؤذيها

ماذا على الطّير إذ أبلى الضّنى جسدىفخفّ لو حملتنى فى خوافيها

إن يقعد الطّير عن حملى لكم و سرتريح الصّبا فاطلبونى فى مساريها

تلقى لكم جسدا لو أنّ علّتهيدعى المسيح لها ما كان يبريها

لقد تضاءل حتّى لو قذفت بهفى مقلة ما أحسّته مآقيها

قلت: هذا واللّه الشعر الخالص من الحشو، الذى يأخذ بمجامع القلوب، و تستشفّه الأسماع . و كانت وفاة الشاعر المذكور سنة ثمان و عشرين و ألف بشيراز، و له ديوان شعر أجاد فيه كلّ الإجادة، و كان ذا بديهة قوية بارعا مفلقا، مستحضرا لأشعار العرب و أخبارها.

و من بديع قصائده التى تشهد له بقوة الملكة، و قدرة التصرّف فى المعانى و الألفاظ: قصيدته الرائية المشهورة التى يصف فيها حاله و قد ضربته سمكة تعرف بالسبيطيّة فى وجهه فشجته و هو عابر من قرية تسمى (مرّى)- بكسر الميم، و تشديد الراء المهملة، و بعدها ياء مثناة من تحت- إلى بحرين يقال لأحدهما (البلاد)، و للآخر (توبلى)- بضم التاء المثناة من فوق، و بعد الواو باء موحدة مكسورة، و بعدها لام و ياء مثنّاة من تحت- و كان صحبته ابنه حسان، و لا بأس بإيرادها لحسنها و غرابتها، على انّا لم نخرج عن ذكر البحر، و

هى:

برغم العوالى و المهنّدة البتردماء أراقتها سبيطيّة البحر

ألا قد جنى بحر البلاد و توبلىعلىّ بما ضاقت به ساحة البرّ

فويل بنى شنّ بن أفصى و ما الذىرمتهم به أيدى الحوادث من وتر

دم لم يرق من عهد نوح و لا جرىعلى حدّ ناب للعدوّ و لا ظفر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۲۳ تحامته أطراف القنا و تعرّضتله الحوت يا بؤس الحوادث و الدّهر

لعمر أبى الأيّام إن باء صرفهابثار امرئ من كلّ صالحة مثر

فلا غرو فالأيّام بين صروفهاو بين ذوى الأخطار حرب إلى الحشر

ألا فابلغ الحيّين بكرا و تغلبافما الغوث إلّا عند تغلب أو بكر

أيرضيكما أنّ امرءا من بنيكماو أىّ امرئ للخير يدعى و للشّرّ

يراق على غير الظّبى دم وجههو يجرى على غير المثقّفة السّمر

و تنبو نيوب اللّيث عنه و ينثنىأخو الحوت عنه دامى الفم و الثّغر

ليقض امرؤ من قصّتى عجبا و منيرد شرح هذا الحال ينظر إلى شعرى

أنا الرجل المشهور ما من محلّةمن الأرض إلّا قد تخلّلها ذكرى

فإن أمس فى قطر من الأرض أنّ ليبريد اشتهار فى مناكبها يسرى

تولّع بى صرف القضاء و لم تكنلتجرى صروف الدّهر إلّا على الحرّ

توجّهت من مرّى ضحى فكأنّماتوجّهت من مرّى إلى العلقم المرّ

تلجّجت خور القريتين مشمّراو شبلى معى و الماء فى أوّل الجزر

فما هو إلّا أن فجئت بطافرمن الحوت فى وجهى و لا ضربة الفهر

لقد شقّ يمنى و جنتىّ بنطحةوقعت لها دامى المحيّا على قطرى

فخيّل لى أنّ السماوات أطبقتعلىّ و أبصرت الكواكب فى الظهر

و قمت كهدى ندّ من يد ذابحو قد بلغت سكّينه ثغرة النّحر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۲۴ يطوّحنى نزف الدّماء كأنّنىنزيف طلا مالت به نشوة الخمر

فمن لا مرئ لا يلبس الوشى قد غداو راح موشّى الجيب بالنّقط الحمر

و وافيت بيتى ما رآنى امرؤ و لميقل أو هذا جاء من ملتقى الكرّ

فها هو قد أبقى بوجهى علامةكما اعترضت فى الطرس إعرابة الكسر

فإن يمح شيئا من محيّاى أثرهابمقدار أخذ المحو من صفحة البدر

فلا غرو فالبيض الرّقاق أدلّهاعلى العتق ما لاحت به سمة الأثر

و قل بعد هذا للسبيطيّة افخرىعلى سائر الشجعان بالفتكة البكر

و قل للظبى فيئى إليك عن الظّلىو للسّمر لا تهززن يوما إلى صدر

فلو همّ غير الحوت بى لتواثبترجال يخوضون الحمام إلى نصرى

فأمّا إذا ما عزّ ذاك و لم أكنلأدرك ثارى منه ما مدّ فى عمرى

فلست بمولى الشّعر إن لم أزجّهبكل شرود الذكر أعدى من العرّ

أضرّ على الأجفان من حادث العمىو أبلى على الآذان من عارض الوقر

يخاف على من يركب البحر شرّهاو ليس بمأمون على راكب البرّ

تجوس خلال البحر تطفح تارةو ترسو رسوّ الغيص فى طلب الدر

تناول منه ما تغالى بسبحةو تدرك دون القعر مبتدر القعر

لعمر أبى الخطّىّ إن بات ثارهلدى غير كفء و هو نادرة العصر

فثار علىّ بات عند ابن ملجمو أعقبه ثار الحسين لدى شمر

و لما وقف الشريف العلامة السيد ماجد بن هاشم البحرانى رحمه اللّه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۲۵

تعالى على هذه القصيدة كتب مقرّظا:

أجلت رائد الفطنة فى معانيها، و سرّحت صاعد الفكرة فى أركانها و مبانيها، فوجدتها قرّة فى عين الابداع، و مسرّة فى قلب الاختراع، و الحقّ أحقّ بالاتباع. فالحمد للّه على تجديد معالم الأدب بعد اندراسها، و تقويم راية البلاغة بعد انتكاسها، و ردّ غرائب الفصاحة إلى مسقط رأسها، [و إزالة وحشتها إلى إيناسها] .

و لنعد إلى ما نحن بصدده: و لم نزل فى أسر البحر، و قد دارت علينا منه الدوائر، و اختلفت تفاعيله، فهو طويل و بسيط و مديد و وافر، نكابد من نحوه ما مللنا معه رفعه و خفضه، و نلاقى من نصبه ما اخترنا عليه رفضه، حتى رأينا العلامات فرجونا الحياة بعد خشية الممات. و العلامات: حيّات، أو حيتان طوال رقاق كالحيّات فى ألوانها و حركاتها، سمّيت بذلك لأنها علامات الوصول إلى بلاد الهند، و إمارات النجاة من المهالك لطول هذا البحر و صعوبته . قال بعضهم: إنّها التى أراد اللّه بقوله وَ عَلاماتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ . ذكره الدميرى فى حياة الحيوان الكبرى .

فلما كان ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذى القعدة الحرام شاهدنا الجبال و البرّ، و أيقنا أن اللّه تعلى قد لطف بنا و برّ. فبينا نحن فى انتظار الفرج، و الخلاص من هذا البحر الذى حدّثنا عنه و لا حرج، إذ عصفت الرياح و أخذت السفينة فى الارتياح، و جاءنا الموج من كلّ مكان، و نسينا- للانزعاج- ما كان، فانحرفت السفينة، و هاج البحر دفينه، فجعلت تفور، كأنها التنور، حتى بلغ الماء نصفها، فشاهدنا من مواقع الهلاك ما لا تبلغ الحال وصفها، و لولا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۲۶

أن لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ لكنّا لا أثر و لا عين، بل دخلنا تحت خبر كان، و اندرجنا فى جواب أين، فلم نزل ننزف الماء و يكثر، و هو يقوى و نحن نفتر، حتى منّ اللّه تعالى بريح كان بها النجاء، و تحقّق الرجاء، فطوينا تلك الشقّة الممتدّة، و أغاثنا اللّه تعالى بالفرج بعد الشدّة، و للّه درّ القائل و هو ابراهيم ابن العباس (*):

و لربّ نازلة يضيق بها الفتىذرعا و عند اللّه منها المخرج

كملت فلما استحكمت حلقاتهافرجت و كان يظنّها لا تفرج

قال ابن خلكان: ما ردّدهما من نزلت به نازلة إلّا و فرج عنه.

و لما كان بعد الزوال من يوم الجمعة المبارك دخلنا الباب، فسرنا فى ماء عذب بين جبلين عليهما من الأنهار و الأشجار و الأزهار ما لا يمكن وصفه فلم نزل نسير بينهما إلى آخر النهار. و لما جنحت الشمس للغروب وصلنا المرسى فحمدنا اللّه على ما أذكر و أنسى، و أعلن لسان الحال بقول من قال:

يا ذا المعارج كم سألتك نعمةفمنحتها لى بالذّنوب الأوفر

أىّ العوارف منك أشكر فضلهعجز المقلّ و زاد طول المكثر

أكفايتى ما قد حذرت وقوعهأم ما كفيت من الذى لم أحذر

ثم نزلنا البندر و هو بندر (جيتابور)- بجيم مكسورة و ياء مثناة من تحت، فتاء مثناة من فوق، و بعد الألف باء موحّدة مضمومة، فواو ساكنة، فراء مهملة- و كان وصولنا ابّان الربيع بالديار الهندية، فألفيناه قد نشر مطارفه و أبرز تالده و طارفه. لا تقع العين إلّا على رياض خضرة، و غياض يانعة نضرة، و الأرض تشكو و السماء تشكى، و الروض يضحك و الغمام يبكى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۲۷

(للبحترى) :

إذا أردت ملأت العين من بلدمستحسن و زمان يشبه البلدا

يمشى السحاب على أجبالها فرقاو يصبح الغيث فى صحرائها بردا

فليس تبصر إلّا زاكيا خضلاأو يانعا خضرا أو طائرا غردا

فأصبحنا نستنشق روائح الأزهار، و نختال فى رياض محفوفة بحياض و أنهار، و تتملّى بتلك الخمائل، و نتنزّه ما بين غصن معتدل إلى غصن مائل، و الصوادح تخطب على منابر أغصانها، و تبدى فنون نغماتها على أفنانها. (لابن خفاجة) :

و قد جال من جون الغمامة أدهملّه البرق سوط و الشّمال عنان

و ضمّخ ردع الشمس نحر حديقةعليه من الطلّ السّقيط جمان

و نمّت بأسرار الرّياض خميلةلها النّور ثغر و النسيم لسان

و ما ألطف قول ابن رشيق (*)، و قيل: النامى :

خليليّ هل للمزن مقلة عاشقأم النّار فى أحشائها و هى لا تدرى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۲۸ سحاب حكت ثكلى أصيبت بواحدفعاجت له نحو الرّياض على قبر

ترقرق دمعا فى خدود توشّحتمطارفها بالبرق طرزا من التّبر

فوشى بلا رقم و نسج بلا يدو دمع بلا عين و ضحك بلا ثغر

و أعجب لقول ابن نباتة :

قفا فاعجبا من هامل الغيث إنّهلأعجب شىء يعجب العين و الفكرا

يمدّ على الآفاق بيض خيوطهفينسج منه للثّرى حلّة خضرا

فأقمنا بهذا البندر ثلاثة أيام، ثم انتقلنا إلى بندر أعظم منه، و كان هذا فرضة لذاك، فسرنا فى الخور على الزورق بين ذينك الجبلين حتى وصلنا إليه، و هو قرية لطيفة يقال لها (راجابور)- براء مهملة و بعد الألف جيم ثم ألف فباء موحدة مضمومة فواو ساكنة فراء-، و فيها عمارة حسنة لمصطفى خان أعظم وزراء عادل شاه، و لم يكن فى تلك القرية عمارة سواها فنزلنا بها. و هذه القرية من أعمال (كوكن)- بكاف مضمومة فواو ساكنة فكاف أخرى مفتوحة فنون- و هو صقع عظيم ليس فى أرض الهند أكثر خراجا منه لحسن ربيعة فإن المطر يكون فيه ستة أشهر لا ينقطع ليلا و لا نهارا بخلاف سائر أرض الهند. فإنّ مدة المطر فيها لا تزيد على أربعة أشهر.

و رأينا بهذا البندر أشياء لم نكن نراها من قبل منها: الطائر المعروف بالطاووس و تكنّيه العرب أبا الوشى (و ترخيمه) طويس، و هو من الطير كالفرس عزا و حسنا، و فى طبعه العفّة و حب الزهو بنفسه و الخيلاء، و الإعجاب بريشه، و عقده لذنبه كالطاق لا سيما إذا كانت الأنثى ناظرة إليه. فإذا نظر فى أعطافه و رأى ألوانه المختلفة زهى بنفسه و تاه، و إذا نظر إلى ساقيه و جم لذلك

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۲۹

و انكسر نشاطه و زهوه فصاح صياح العويل لحزنه، و ذلك لدقّة ساقيه و نتوء عرقوبيه.

و ذكر الحكماء أنّه يعيش خمسا و عشرين سنة و هو أقصى عمره، و يبيض فى السنة مرّة واحدة اثنتى عشرة بيضة فى ثلاثة أيام، و

يحضنها ثلاثين يوما و يفرخ، و لكن لا تستكمل قوى أفراخه فى أقل من ثلاث سنين و يلقى ريشه مع سقوط ورق الشجر، و ينبت مع ابتداء نبات الورق.

و زعم قوم أنّ الذكر تدمع عينه فتقف الدمعة بين أجفانه فتأتى الأنثى فتطعمها فتلقح من تلك الدمعة. و ليس كذلك فإنّ سفاده يشاهده كثير ممن يعتنى به.

و هو مع حسنه يتشاءم به، و قلّما اتخذ فى دار إلّا و باد أهلها، و قد جرّب ذلك و هذا علة التشاؤم به . و ما ألطف قول الثعالبى صاحب اليتيمة:

طالع يومى غير منحوسفسقّنى يا طارد البوس

خمرا كعين الدّيك فى روضة كأنّها حلّة طاووس

فائدة حكيمة: أفاد صاحب الاشراق : إن اختلاف ألوان رياش الطاووس (مثلا) مستندة إلى رب نوع الطاووس، و إذا كان لكل نوع رب- جوهرا أو عرضا- لم يتصور ذلك و لم يكن ذلك كذلك، بل الأشبه الأقرب

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۳۰

بإشراقنا أن يكون على وجه آخر، و لعلّه أن الأسباب الفلكية أوجبت أن يكون الطاووس (بمزاجه و مادته تحت تدبير كواكب مختلفة، فالطاووس) لعلاقة تدبير الكواكب إيّاه يستفيض من أرباب أنواع مختلفة، و هى أرباب أنواع الجواهر و الأعراض استفاضات مختلفة بوجوه مختلفة مناسبة لائقة بتدبير الكواكب المدبرة بوجوه مخصوصة لمناسبة خاصة، خفيّة اللّميّة، جليّة الأنيّة.

انتهى، فتدبّر و اللّه المدبر .

فائدة: السيد محمد الطاووس (بالأف و اللام) بن اسحاق بن الحسن بن محمد بن داود - صاحب عمل النصف من رجب- بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين على عليهم السلام، لقّب بالطاووس لحسن صورته و حماشة قدميه. و هو الجد الثامن للسيد على صاحب مهج الدعوات و غيره و به يتصل نسبه هكذا، فهو على بن موسى بن جعفر بن محمد (بن محمد) بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد، و هو الطاووس بن اسحاق، و كان اسحاق يصلى فى اليوم و الليلة ألف ركعة، خمسمائة عن نفسه و خمسمائة عن والده، و هو أول من ولى النقابة بسوراء .

و طاووس بن كيسان فقيه الحرم، كان اسمه ذكوان فلقّب طاووس-

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۳۱

بدون أداة التعريف- لأنه كان طاووس القرّاء و العلماء، و قيل: إنّ طاووسا اسمه، و له ترجمة فى ابن خلكان .

و رأينا فى هذا البندر من الباغى الخضر ما لا يحصى. واحدتها ببغا (بثلاث باآت موحدات، أولاهنّ و ثالثتهنّ مفتوحتان، و الثانية ساكنة، و بالغين المعجمة) و هى هذا الطائر المعروف بالدرة (بدال مهملة مضمومة) كذا ضبطها فى العباب ، و ضبطها السمعانى فى الأنساب بباءين (بفتح الأولى و إسكان الثانية) و قال: لقّب بها أبو الفرج الشاعر لفصاحته، و قال القضاعى :

للثغة كانت فى لسانه.

قال الشيخ داود الضرير الأنطاكى فى تذكرته: و هى ألوان، أجوده الأخضر، فالأحمر، فالأصفر. و أردؤه الأبيض و هو أكبرها، يجلب من الصين، و هو طير لطيف الشكل حادّ المخلب، فإن مال فمه إلى حمرة فهو أسرع تعلما للكلام، و لسانه كلسان الإنسان فيه مقاطع الحروف، و يخاف فيتعلّم إذا هدّد.

و متى غذى الفستق، و [الأرز] و القرطم أسرع تعليمه، و هو أشد الطيور تضرّرا بالبرد، و إذا خرج من بلاده لم تزدوج ذكوره بإناثه، و لم يبض. انتهى.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۳۲

و يقال أنه أهدى لمعزّ الدولة ابن بويه فى أيامه درّة بيضاء، سوداء المنقار و الرجلين، على رأسها ذؤابة.

و الأخضر هو الموجود الآن، و هو يتناول مأكوله برجله كما يتناول الإنسان الشيء بيده. قال أبو اسحاق الصابى فى وصفها و تخلّص إلى مدح أبى الفرج الببغا:

أنعتها صبيحة مليحةناطقة باللّغة الفصيحة

عدّت من الأطيار و اللسانيوهمنى بأنها إنسان

تنهى إلى صاحبها الأخباراو تكشف الأستار و الأسرارا

سكّاء إلّا أنّها سميعةتعيد ما تسمعه طبيعه

زارتك من بلادها البعيدةو استوطنت عندك كالقعيده

ضيف قراه الجوز و الأرزو الضيف فى إتيانه يعزّ

تراه فى منقارها الخلوقى كلؤلؤ يلقط بالعقيق

تنظر من عينين كالفصّينفى النّور و الظّلمة بصّاصين

تميس فى حلّتها الخضراءمثل الفتاة الغادة العذراء

خريدة خدورها الأقفاص‌ليس لها من حبسها خلاص

تحبسها و ما لها من ذنبو إنّما الحبس لفرط الحبّ

تلك التى قلبى بها مشغوف‌كنيت عنها و اسمها معروف

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۳۳ يشرك فيها شاعر الزّمانالكاتب المعروف بالبيان

ذلك عبد الواحد بن نصريقيه ربّى حادثات الدّهر

فأجابه أبو الفرج بقوله:

من منصفى من محكم الكتّابشمس العلوم قمر الآداب

أمسى لأصناف العلوم محرزاو سام أن يلحق لمّا برّزا

و هل يجارى السابق المقصّرأم هل يبارى المدرك المغرّر

إلى أن قال فى وصفها:

ذات شغى تحسبه ياقوتالا ترتضى غير الأرزّ قوتا

كأنّما الحبّة فى منقارهاحبابة تطفو على عقارها

و من محاسن شعر أبى الفرج المذكور:

و مهفهف لمّا اكتست و جناتهخلع الملاحة طرّزت بعذاره

لمّا انتصرت على أليم جفائهبالقلب كان القلب من أنصاره

كملت محاسن وجهه فكأنّما اقتبس‌الهلال النّور من أنواره

و إذ ألحّ القلب فى هجرانهقال الهوى لا بدّ منه فداره

و له فى التشبيه و قد أبدع:

و كأنّما نقشت حوافر خيلهللنّاظرين أهلّة فى الجلمد

و كأنّ طرف الشّمس مطروف و قدجعل الغبار له مكان الاثمد

قال القاضى ابن خلكان فى ترجمة الفضل بن الربيع: ان أحمد بن يوسف الكاتب كتب إلى بعض إخوانه و قد ماتت له ببّغا و له أخ

كثير التخلّف يسمّى عبد الحميد:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۳۴ أنت تبقى و نحن طرّا فداكاأحسن اللّه ذو الجلال عزاكا

فلقد جلّ خطب دهر أتاكابمقادير أتلفت ببّغاكا

عجبا للمنون كيف أتتهاو تخطّت عبد الحميد أخاكا

كان عبد الحميد أجمل للموتمن الببّغا و أولى بذاكا

شملتنا المصيبتان جميعافقدنا هذه و رؤية ذاكا

قال الزمخشرى: إنّ الببغا تقول: ويل لمن كانت الدنيا همته .

غريبة: حكى الشيخ كمال الدين الأدفوى فى كتابه الطالع السعيد فى ترجمة محمد بن محمد النصيبينى القوصى الفاضل المحدث الأديب: إنّه أخبره أنّه [حضر] مرة عند عز الدين ابن البصراوى الحاجب بقوص، و كان له مجلس يجتمع فيه الرؤساء و الفضلاء و الأدباء، فحضر الشيخ على الحريرى و حكى: إنه رأى درّة تقرأ سورة يس، فقال القوصى: و كان غراب يقرأ سورة السجدة، فإذا وصل إلى محلّ السجود سجد فيقول: سجد لك سوادى، و اطمأنّ بك فؤادى. انتهى.

و أغرب القزوينى فى قوله: إن الببّغا لا تشرب الماء و هو غلط البتة، و أكثر قوتها ببلادها الموز، و قصب السكر، و اللّه أعلم.

و مما رأيناه بهذا البندر من الحيوانات الغريبة: سنانير الزباد، الواحد منها كالسنّور الأهلى لكنه أطول منه جثّة و ذنبا، و لونه إلى السواد أميل، و الزباد فيه شبيه بالوسخ الأسود اللّزج، ذفر الرائحة، يخالطه طيب حسن يوجد فى ابطيه، و فى باطن أفخاذه، و باطن ذنبه، و حوالى دبره. و لم يبرح معه جماعة يلاعبونه و يحرّكونه حتى يعرق فيسيل الزباد، فتمد له ملاعق الفضة و يؤخذ

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۳۵

و يسمّى هذا السنّور: الرباح (بفتح الراء المهملة و الباء الموحّدة المخفّفة).

و للجوهرى هنا و هم مشهور :

قال الدميرى: و الزباد طاهر، لكن قال الماوردى، و الروياني: إن الزباد لبن سنّور فى البحر يحلب، كالمسك ريحا و اللبن بياضا. يستعمله أهل البحر طيبا، و هذا يقتضى أن يكون حلالا، فإن قلنا بنجاسة لبن ما لا يؤكل ففى هذا و جهان. قال النووى: و الصواب طهارته و صحّة بيعه. لأنّ الصحيح جميع حيوان البحر طاهر يحلّ أكله و لبنه، هذا بعد تسليم أنه حيوان بحرى، و الصواب أنه برّى. فعلى هذا هو طاهر، لكنّهم قالوا: إنه يغلب فيه اختلاطه بما تساقط من شعره، فينبغى أن يحترز عما فيه شىء من شعره لأنّ الأصح نجاسة شعر ما لا يؤكل إذا انفصل عنه فى حياته غير الآدمى. انتهى من حياة الحيوان الكبرى .

قال الشيخ داود فى التذكرة: (أرفع أنواع الزباد) : (الشمطرى) الأسود الضارب إلى حمرة و لمعة. قلت: و الشمطرى: منسوب إلى شمطر من أعمال الهند. قال: و أردؤه الأبيض. و يعرف الجيّد منه بوجود طيور حمر فيه كالذباب الصغير، و إذا دلكت به اليد لم تدبق، و إن غسل بالماء لم تزل رائحته. قال: و هو حار فى الثانية رطب فى الأولى، أو معتدل. إذا شرب مع الشراب أذهب الغثى و الخفقان، و أوجاع فم المعدة. و مع الزعفران يزيل

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۳۶

الوسواس و الجنون و التوحّش و الماليخوليا، و يفرّح تفريحا عظيما، و يقوّى الذهن و الحواس، و يسهّل الولادة، مجرّب. و شربته إلى دانق، و أخطأ من جعله درهما. انتهى باختصار كثير.

و رأينا بهذا البندر أشجارا لم نكن نراها. منها: شجر الفلفل و هو أشبه ما يكون بشجر الدجر يلتفّ على شجرة أخرى، و قول الأطباء ممن لم يره أنّه كشجر الرمّان خلف. و الفلفل فيه كعناقيد العنب و هو أخضر، فإذا يبس اسودّ.

و الفلفل الأبيض شجر برأسه قطعا. و اختلفت أقوال الأطباء فيهما فى كون كليهما من شجرة واحدة، أو هما غيران؟ و الأصح ما ذكرناه

عن عيان.

و خواصهما مذكورة فى كتب الطبّ و كلاهما حار. و حكماء الهند تقول: إنه بارد و يكثرون استعماله فى الحمّى فينفعهم.

و منها شجر النارجيل، و هو كالنخل إلّا أنّ جذعه فى الغالب أمتن من جذع النخل، و سعفه كسعفه، غير أن سعف النخل أصلب منه و أقوى شوكة.

و قول الشيخ داود فى التذكرة: أنّ وجه الجريدة فيه إلى أسفل غير صحيح، بل جريدته كجريدة النخل، و الآفة من الراوى. و بالغ صاحب القاموس فى وصف طولها و لينها فقال: النارجيل: جوز الهند واحدتها بهاء، و قد يهمز.

و نخلته طويلة تميد بمرتقيها حتى تدنيه من الأرض لينا. و يكون فى القنو الكريم منها (ثلاث عشرة) نارجيلة، و لها لبن يسمّى الاطراق، و خاصّيّة الزنخ منها: إسهال الديدان، و الطرىّ: باهىّ جدّا. انتهى. و شجره يثمر بعد سبع سنين، و يبقى مائة عام و أكثر، و هو يزرع ثمرا لا قضبا، و له منافع كثيرة مذكورة فى مظانها.

و منها شجر الفوفل و هو طويل جدّا حسن الساق معتدل القامة لا يرى فيه اعوجاج أصلا، و ساقه كلّه شديد الخضرة من أسفله إلى أعلاه، و لا يكاد يعلوه المرتقى إلّا بجهد شديد للينه، و هو شبيه بالنخل و شجر النارجيل، إلّا أنّ هذا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۳۷

رفيع الساق جدّا بالنسبة إليهما، و هو يحمل كبائس فيها الفوفل داخل قشر صلب، عليه طبقات ليفيّة كالنارجيل، و لا يستعمل فى جميع الأرض، و لا يحمل إلى سائر الأقطار (إلّا فوفل هذا الصقع المسمى بكوكن) و إن وجد فى سائر بلاد الهند إلّا أنّه ردىء جدا لا يستعمل، و إنّما يتخذ شجره فى البساتين للنظر إلى ساقة و حسن قامته.

و منها: شجر الأنبا، و هو العنب المعروف الآن (بفتح العين المهملة و سكون النون). و فى القاموس: الأنبج (كأحمد) و تكسر باؤه: ثمرة شجرة هندية (معرّب أنب) و هو شجر عظام، و كنّا رأينا ثمره باليمن و لم نر شجرة، و هو من محاسن ثمر الهند، يغذى غذاء حسنا، و يتفاوت فى بلاده حسنا ورداءة. قال الشيخ فى التذكرة: و هو حار فى الثانية يابس فى الثالثة، و قبل النضج بارد فى الأولى. يفتح الشهوة إن خلّل، و يقطع الطحال، و يفتّت الحصى. و المربّى يمنع الخفقان و الصداع البارد، و نواه يبيّض الأسنان، و يطيّب رائحة الفم، و هو كيف كان يغسل الأخلاط اللزجة، و يذهب البواسير.

و رماد شجره يحبس الدم، و قيل: إنّ الأخضر منه يمنع الشيب، و هو يضعف الكبد، و يصلحه الزبيب. انتهى. و إنّما تعرّضنا لذلك لقلّة من نبّه عليه.

و كتب إلىّ سيدى الوالد دام مجده، و كان قد أهدى إلىّ منه شيئا:

هو العنب لونا كالنّضار و لذّةكظلم العذارى و الرّحيق المصفّق

فكله هنيئا يا سلالة هاشمو لا زلت بالتّوفيق خير موفّق

فأجبته بقولى:

أتانا لذيذ العنب رطبا و يانعابطعم كطعم الخسروىّ المعتّق

و نظم كنظم الدرّ يزهو على الدمىذكىّ متى يتلى على السّمع يعبق

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۳۸ فشرّد همّا بين جنبىّ كامناو طاب به عيش الزّمان المرتّق

و أهدى الوالد إلى السيد الجليل الفاضل العلامة محمد بن عبد الحسين البحرانى عنبا فكتب إليه السيد قصيدة يصف فيها العنب أولها:

أحمد من أصعد كعب أحمدفى ذروة المجد و هام السّؤدد

بالعلم و الفضل و طيب المحتدو همّة تدوس فرق الفرقد

السيّد النّدب الجواد الأوحدمن لا يحاط وصفه بالعدد

همّته مصروفة فى مددىو لم تفارق يده قطّ يدى

فمن جزيل فضله المجدّدو لطفه بعبده محمّد

بليلة بها الزمان مسعدىقد أسفرت عن صبح يوم الأحد

إهداؤه العنب الذى مذاقهألذّ من وصل الحسان الخرّد

أحلى من السكّر فى الطّعم و إننستشهد الشّهد بذاك يشهد

لو قلت لم تحو الجنان مثلهطعما و لوما و شذا لم أبعد

قد كاد لطفا أن يذوب عندماتلمحه العين كذوب البرد

من نال شيئا منه فى زمانهكأنّما نال حياة الأبد

كأنّما الشمس إذا ما طلعتقد كسيت من لونه المورّد

ترى إذا رأيته شمس الضّحىبازغة فى كرة الزّبرجد

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۳۹ قد جاءنا من دوحة الجود التىأثمارها ما برحت كالعسجد

و هى قصيدة طويلة كلّها على هذا النمط اقتصرنا منها على ما تعلّق به الغرض.

و من محاسن شعر السيد المذكور ما كتبه إلى الوالد من شيراز المحروسة بعد فراقه له سنة سبعين و ألف:

لولا مضايق أحوال وقعت بهالم تبق لى سبدا يوما و لا لبدا

لما جرى بشكاة الدّهر لى قلمو لا جمعت عليه إصبعا أبدا

و الحرّ ما زالت الأقدار تقحمهشدائد الدّهر حتى يفقد الجلدا

ما زلت فى موقف الإخلاص منتصباو فى مجاهدة الأعداء مجتهدا

و كنت عندك فى قرب و منزلةفليت شعرى ما بعد البعاد بدا

لا زال عمرك بالتّأييد متّصلاو عضد عزّك بالتأييد معتضدا

و من الأشجار التى رأيناها بالهند شجر التانبول، و يقال له: التامول، و التنبل. و هو ضرب من اليقطين كاللّوبيا ينصب له قعيد فيرتقى فيه و إلّا فيرتقى على الشجر، و ورقه كورق الأترج سبط رقيق فيه حرافة .

قال الشيخ فى التذكرة: و رائحته قرنفلية، و أجوده الرقيق السبط الطيّب الرائحة، الشديد إذا قطع، و هو حار فى الثانية، أو الأولى، يابس فى أول الثالثة. يقوم مقام الخمر فى كل ما لها من الأفعال النفسية و البدنية، و الهند تعتاض به عنها. و هو يشدّ الحواس، و يقوّى اللثة و المعدة و الكبد، و يفتّ الحصى، و يدرّ الفضلات، و يفتح السدد، و يجوّد الحفظ و الفهم، و يذهب النسيان و يحمّر الشفة و الأسنان جدا إذا أطيل مضغه. و الناس يستعملونه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۴۰

بالجير و الفوفل إلى سبع ورقات كلّ مرة معها ربع درهم من كلّ من المذكورين، و قد يربّى فيعظم نفعه جدا، و يزيد فى العقل، و ينشّط و يذهب الكسل. و الإكثار منه يثقل الرأس، و يصدع المحرور، و يصلحه السكنجبين، و شربته إلى مثقال. انتهى بنصّه.

قلت: و لا يستعمله أهل الهند و غيرهم إلّا بشىء من الكلس المبلول.

قال المسعودى: إذا مضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع الفوفل شدّ اللثة و قوى عمود الأسنان، و طيّب النكهة، و شهّى الطعام، و بعث على الباه، و حمّر الأسنان كأحمر ما يكون من حبّ الرمان، و أحدث فى النفس طربا و أريحيّة، و قوّى البدن و ثارت من النكهة روائح طيبة. و الهند تستقبح- خواصّها و عوامها- من أسنانه بيض، و تجتنب من لا يمضغ ما وصفنا. انتهى.

و منها: قصب السكّر و هو بالهند نوعان، أبيض و أسود، فالأبيض ألطف و أكثر ماء و أطول عقدا، و الأسود أصدق حلاوة. و كلاهما

كقصب الذرة إلّا أنّه أغلظ و أطول غالبا، و ليس له حبّ و إنما يغرس قضبا. و ظنّ بعض كبار الأطباء المتقدمين أنّ السكر رطوبات كالمنّ سقط على هذا القصب فيجمع و يطبخ، و الحال أنه عصارة القصب.

قال فى التذكرة : و أجوده المصرى، ثم الهندى الغليظ الغضّ الكثير الماء الصادق الحلاوة الطويل العقد. و هو حار فى الأولى رطب فى الثانية يهضّم و يفتّح السدد، و يلطّف الدم، و هو أشدّ ملاءمة من السكر.

و ما أحلى قول الشيخ شهاب الدين ابن [أبى] حجلة :

أمسيت فى قصب الجزيرة مغرماو بقدّة العسّال كالولهان

عيدانه لولا حلاوة مائهاشبّهته فى الشّكل كالمرّان

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۴۱

و لابن حجّة قصيدة ملغزا فيه منها قوله:

يلذّ قبيل العصر فى الظّهر رشفهاو برد لماها من أليم الجوى يبرى

و فى أوّل الأعراف تروى من الظّماو تضرم نيران الجوى و هى فى العصر

و أنشد الصفدى فى الجزء الثامن من تذكرته لغيره ملغزا فيه:

و ذى هيف كالغصن رنّحه الصّبايفوق القنا الخطّى بغير سنان

له ولد كلّ البرايا تحبّهو تشتاقه إن عزّ منه تدانى

و أعجب ما فيه يرى النّاس أكلهحلالا قبيل العصر فى رمضان

و رأينا بهذا البندر عينا جارية و ماؤها فى غاية الحرارة، يتصاعد منه الدخان، فيقال: إنها تمرّ على معدن الكبريت فيفيدها هذه الحرارة، و لقد كنا نشمّ منها رائحة الكبريت.

و قد روى فى الأثر كراهية استعمال هذا الماء الحار. روى عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم عن الاستشفاء بالحميات، و هى العيون الحارة التى تكون فى الجبال التى توجد فيها روائح الكبريت فإنّها من فوح جهنم. و عنه (ع) قال: أنّ نوحا (ع) لما كان فى أيّام الطوفان دعا المياه فأجابته إلّا ماء الكبريت و الماء المرّ. و أمّا خاصيّة ماء الكبريت فإنه يطلق أولا ثم يعقل، و هو يعقب الحكّة و الجرب شربا، و يمنع منهما غسلا، و يقال: أن بجبل بالأندلس عينين إحداهما باردة و الأخرى حارة و المسافة بينهما شبر.

و أغرب من ذلك ما ذكره المسعودى عن صاحب المنطق: أنّ ببعض المواضع عيونا حامضة يستعمل ماؤها كما يستعمل الخلّ، و ذكر: أنّ العلّة فى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۴۲

هذه المياه أنّ الأرضين المختلفة مثل مواضع الشب، و المواضع النارية و الرمادية إذا خالطت الماء أفادته طعوما مختلفة على قدر اختلافها و أعداد طعومها. انتهى.

و من الغرائب ما رأيناه بهذا البندر، و هى عين على قلّة جبل تنبع و تجرى فى السنة ثلاثة أيام ثم تغور و تنقطع، و كانت أول دخولنا البندر منقطعة، ثم بعد إقامتنا هنالك شهرين قيل: نبع ماؤها فقصدناها للتفرج، و قصدتها الهنود للعبادة. و كنا قصدناها قبل ذلك لما وصفت لنا فرأيناها غائرة و مجراها يابسا.

و قد اتخذت الهنود عندها حياضا، و لما نبع الماء امتلأت تلك الحياض، و هو ماء عذب أبيض برّاق. و يحكى مثل هذا كثير إلّا أن للعيان موقعا ليس للسماع.

فيقال: أن بالقرب من نهر أذربيجان نهرا يجرى فيه الماء سنة ثم ينقطع ثمانى سنين ثم يعود فى التاسعة. و قيل أنه ينعقد حجرا ثم

يستعمل منه اللّبن و يبنى به.

و يقال: أنّ فى تلك الأرض بحيرة تجفّ فلا يوجد فيها سمك و لا طين سبع سنين، ثم يعود الماء و السمك و الطين.

و يقال: أنّ نهر صقلان يجرى فيه الماء يوما واحدا فى كلّ أسبوع، ثمّ ينقطع سنة أيّام، فسبحان الفعّال لما يريد.

فائدة: كلّ ماء يجرى فهو نهر، و حيث ينبع فهو عين. و حيث يكون معظم الماء فهو بحر.

قال بطليموس: إن بهذا الربع المسكون مائتى نهر من خمسين فرسخا إلى ألف فرسخ و كلّها تبتدئ من الجبال و تنتهى إلى البحار.

قيل: و ليس فى الأنهار أطول من نهر النيل، و ليس فى العالم ما يسمى بحرا و نهرا سواه، و قد كثرت أقاويل الناس فيه، و أطالوا الكلام عليه، و هو يظهر من تحت جبل القمر (بلفظ أحد النيرين) و إنما سمى بذلك لما يظهر من تأثير القمر فيه عند زيادته و نقصانه من النور و الظلام فى البدر و المحاق.

ذكر أنّ جماعة صعدوا هذا الجبل ليحيطوا خبرا بمبدأ النيل، فرأوا وراءه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۴۳

بحرا عجاجا أسود كالليل يشقّه نهر أبيض كالنهار و هو النيل.

و يقال: أنّ أناسا صعدوه فجعل كلّ واحد منهم يضحك و يصفّق، و يلقى نفسه إلى ماوراء الجبل، فرجع البقيّة خوفا من أن يصيبهم مثل ذلك، فيقال:

أنّهم رأوا حجر الباهت، و هو نوع من المغناطيس فى لون المرقشيشا يتلألأ حسنا، إذا رآه الإنسان ضحك حتى يموت لا يمسك عنه البتّة، و لا أن يستتر عنه بعد أن يكون قد رآه. ثمّ إن وقع عليه الفرفير - و هو طائر فى شكل عصفور الشوك الذى يقال له السمانى، أسود له طوق أحمر و عيناه حمراوان و رجلاه كذلك- أبطل فعله لوقته، و رآه الإنسان من غير ضرر، و هذا الحجر كثير الوجود بأرض تبت (بضم التاء). و زعموا أنّ أهلها يرونه فلا يضرهم كثير ضرر، و الغريب الطارىء على بلدهم كلما تقع عينه عليه يندفع فى الضحك الدائم. فالفعل الأول و هو الضحك عند رؤيته لمناسبة و ميل فى هذه الخاصيّة، و الثانى و هو عدم الضحك عند وقوع ذلك الطائر عليه بسبب عارض.

و من نوادر الحكايات أن المتوكّل لما قبض على بختيشوع أصابوا له فيما أصابوا من أعلاق الجواهر و نفائس الطرائف حجرا فى درج مختوم بختمه، فدعوا غلامه فسألوه عن الحجر فقال: لا أخبركم أو يضمن لى أمير المؤمنين أن ينفذنى إلى ملك الروم، فليس لى بعد مولاى حاجة فى العراق، فحلف له المتوكل بأيمان مغلّظة أنه يبذرقه إلى ما هناك، فقال: هذا حجر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۴۴

إذا (قيس) به الشعر حلقه و استغنى فاعل ذلك عن النورة، و الحلق بالمواسى، فدعوا برجل على ساعده شعر كثير فأمرّوا الحجر على شعره فلم يبق على ساعدة شعرة واحدة، ففرح المتوكل، و أمر بالخادم أن يبذرق إلى بلاد الروم. فقال الخادم: أمّا إذا وفى لى سيدى بالبذرقة فإنّ هذا الحجر يحتاج أن يطرح كل سنة عند طلوع الشعرى العبور فى دم تيس حار. فبذرقوا بالخادم، فلما وصل، و طلعت الشعرى العبور و وقد الهجير طرحوه فى الدم فبطل عمله.

فكان حلق هذا الحجر الشعر من العضو الذى عليه، و جذبه إلى نفسه حتى ينفصل عنه، و يلتصق به لمشاكلة طبيعيّة، و ذهاب ذلك بدم التيس لشدّة المنافرة و المغايرة، و مثل هذا كثير.

و رأينا بهذا البندر معبدا عظيما للّه نود فيه أصنام من ذهب و فضة مصوّرة على صورة الإنسان و صور الحيّات، و قد صوّر حولها من الصخر المنحوت أصنام كثيرة، فمنها صور بقر، و صور رجال و نساء. و هذا المعبد بين عظيم منحوت كله من الصخر الأسود تقصده كفرة الهنود من الآفاق و تنذر له النذور، و رأيناهم يسجدون للأصنام التى فيه، و السرج فيه ليلا و نهارا لا تطفأ، و له خدم و حجّاب و أتباع. و بجنبه نهر عظيم يخرّ من شاهق فى بئر لا يعلم قرارها و هى ملآنة يمرّ الماء عليها بين جبلين عليهما من أنواع الأشجار و الأزهار

ما يجلّ عن الوصف، ثم ينصب الماء إلى البحر. و حكى لنا أهل تلك البلاد أنّ بعض الوزراء أراد أن يعلم عمق هذه البئر التى يمرّ عليها هذا النهر، فأنزل جماعة من الغاصة فلم يخرج منهم أحد، و لا يعلم ما صاروا إليه، و كثير من جهلة الهنود يعتقد فى هياكلهم هذه القدم، و أمّا علماؤهم فيزعمون أنّها تقرّبهم إلى اللّه زلفى.

قال المسعودى: كان كثير من أهل الهند و الصين و غيرهم من الطوائف يعتقد أنّ اللّه عزّ و جل جسم، و أنّ الملائكة أجسام، و أن اللّه تعالى و ملائكته

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۴۵

احتجبوا بالسماء فدعاهم ذلك إلى أن اتخذوا تماثيل و أصناما على صورة البارى تعالى عن ذلك علوا كبيرا، و بعضها على صورة الملائكة مختلفة القدود و الأشكال، و منها على صورة الإنسان، فعبدوها و قرّبوا لها القرابين، و نذروا لها النذور لشبهها عندهم بالبارى تعالى عن ذلك، فأقاموا على ذلك برهة من الزمان و جملة من الأعصار، حتى نبههم بعض حكمائهم على أنّ الأفلاك و الكواكب أقرب الأجسام المرئيّة إلى اللّه تعالى، و أنّها حيّة ناطقة، و أن الملائكة تختلف فيما بين اللّه و بينها، و أن كلّ ما يحدث فى هذا العالم فإنه على قدر ما تجرى به الكواكب عن أمر اللّه، فعظّموها و قرّبوا لها القرابين لتنفعهم، فمكثوا على ذلك دهرا، فلما رأوا الكواكب تخفى بالنهار و فى بعض أوقات الليل لما يعرض فى الجو من السواتر أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناما و تماثيل بعدد الكواكب المشهورة. فكلّ صنف منهم يعظم كوكبا منها، و يقرّب لها نوعا من القربان خلاف ما للآخر. على أنّهم إذا عظّموا ما صوّروا من الأصنام تحركت لهم الأجسام العلوية السبعة بكلّ ما يريدون. و بنوا لكلّ صنم بيتا و هيكلا مفردا، و سمّوا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب. و قد ذهب قوم إلى أنّ البيت الحرام يكون على مرور الدهر معظّما فى سائر الأعصار لأنه بيت زحل، و أنّ زحل شأنه البقاء و الثبوت، فما كان له فغير زائل و لا داثر، و عن التعظيم غير حائل. و ذكروا أمورا أعرضنا عن ذكرها لشناعة أمرها. ثم ذكر المسعودى انحرافهم عن هذا المذهب إلى غيره من المذاهب ممّا يطول ذكره.

و بالجملة فإن الهنود لهم مذاهب و معتقدات مختلفة لا يدركها الحصر، و قد رأينا منهم من يعبد النيّرين، و منهم من يعبد الأشجار، و منهم من يعبد الأنهار، و منهم من يعبد الأصنام. و قد ذكر الشهرستانى فى الملل و النحل جملة من مذاهبهم قال:

و من عبدة الأصنام (المهاكلكة، لهم صنم يدعى مهاكال) له أربعة أيد

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۴۶

كثير شعر الرأس سبطه، و بإحدى يديه ثعبان عظيم فاغر فاه، و بالأخرى عصا، و بالثالثة رأس، و اليد الرابعة قد رفعها. و فى أذنيه حبّتان كالقرطين و على جسده ثعبانان عظيمان قد التفّا عليه، و على رأسه اكليل من عظام القحف، و عليه من ذلك قلادة. يزعمون أنه عفريت يستحق العبادة لعظم قدره، و استحقاقه الخصال المحمودة المحبوبة، و المذمومة، من الإعطاء و المنع، و الإحسان و الإساءة، و إنه المفزع لهم فى حاجاتهم. و له بيوت عظام بأرض الهند يعتفيها أهل ملته فى كلّ يوم ثلاث مرات يسجدون له و يطوفون به. و لهم بموضع آخر صنم يقال له صنم المعبود، عظيم على صورة هذا الصنم، يأتونه من كلّ موضع، و يسجدون له هناك، و يطلبون حاجات الدنيا، حتى أن الرجل يقول له فيما يسأل: زوّجنى فلانة، و اعطنى كذا، و منهم من يأتيه يقيم عنده الأيام و الليالى لا يذوق شيئا يتضرع إليه و يسأله الحاجة، حتى ربما يتفق هذا. انتهى.

و الهنود أقسام مختلفون، و أصناف متباينون، لكلّ فرقة مذهب و معتقد عدا ما للأخرى، يعرف ذلك من دخل بلادهم و شاهد عباداتهم.

لقد طفت فى تلك المعاهد كلّهاو سيّرت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلّا واضعا كفّ حائرعلى ذقن أو قارعا سنّ نادم

و ذكر جماعة من أرباب التواريخ: أن السلطان محمود بن ناصر الدولة لمّا فتح بلاد الهند فى سنة عشر و أربعمائة كتب كتابا إلى

بغداد يذكر ما فتح اللّه على يديه من بلاد الهند، و أنه كسر الصنم المشهور بسومنات، و ذكر فى كتابه أنّ هذا الصنم عند الهنود يحيى و يميت و يفعل ما يشاء، و يحكم ما يريد و يبرئ، و ربّما كان يتّفق- لشقوتهم- برء عليل يقصده فيوافقه طيب الهواء، و كثرة الحركة فيزيدون به افتتانا، و يقصدونه من أقاصى البلاد رجالا، و ركبانا. و من لم يصادف منهم انتعاشا احتجّ بالذنب و قال: أنه لم يخلص له

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۴۷

الطاعة فلم يستحق منه الإجابة. و يزعمون أنّ الأرواح إذا فارقت الأجسام اجتمعت لديه على مذهب أهل التناسخ و ينشئها فيمن شاء. و أن مدّ البحر و جزره عبادة له على قدر طاعته. و كانوا بحكم هذا الاعتقاد يحجّونه من كلّ صقع بعيد، و يأتونه من كلّ فجّ عميق، و يتحفونه بكلّ مال نفيس. و لم يبق فى بلاد الهند و السند- على تباعد أقطارها، و تفاوت أديانها- ملك و لا سوقة إلّا و قد تقرّب إلى هذا الصنم بما عزّ عليه من أمواله و ذخائره، حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية فى تلك البقاع، و امتلأت خزائنه من أصناف الأموال. و فى خدمته من البراهمة ألف رجل يخدمونه و ثلثمائة رجل يحلقون رؤوس حجاجه و لحاهم عند الورود عليه، و ثلثمائة رجل و خمسمائة امرأة يغنون و يرقصون عند بابه، و يجرى من الأوقاف المصدرة له لكل طائفة من هؤلاء رزق معلوم.

و كان بين المسلمين و بين القلعة التى فيها الصنم مسيرة شهر فى مفازة موصوفة بقلة الماء و صعوبة المسالك و استيلائهم على طرقها. و سار إليها السلطان محمود فى ثلاثين ألف فارس سوى الرجّالة و المتطوعة مختارا لهم من عدد كثير، و أنفق عليهم من الأموال ما لا يحصى، فلمّا وصلوا إلى القلعة وجدوها حصنا منيفا ففتحوها فى ثلاثة أيّام، و دخلوا بيت الصنم و حوله أصنام الذهب، و المرصّع بالجواهر عدّة كثيرة محيطة بعرشه، يزعمون أنّها الملائكة. فأحرق المسلمون الصنم فوجدوا فى أذنه نيفا و ثلاثين حلقة، فسألهم السلطان محمود عن معنى ذلك فقالوا: كل حلقة عبادة ألف سنة، فكلما عبدوه ألف سنة علّقوا فى أذنه حلقة. و قد ذكر المؤرخون من أخبار هذا الصنم شيئا اقتصر بعضهم على هذا المقدار و فيه الكفاية.

و أسلم فى هذه الوقعة نحو عشرين ألفا، و قتل من الكفار نحو خمسين ألفا. و كان السلطان محمود قد استصفى نواحى الهند إلى حيث لم تبلغه فى الإسلام راية، و لم تتل به قطّ آية، و وقائعه و حروبه مذكورة فى تاريخ أبى نصر العتبى الذى ألّفه للسلطان المذكور. و سنذكر من أخبار الهند جملا فيما

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۴۸

سيأتى إذا أفضت النوبة إليه إن شاء اللّه تعالى.

فائدة: أول من غيّر جين اسماعيل من العرب: عمرو بن لحى من خزاعة، فبعثهم على عبادة التماثيل، و ذلك أنّه سار إلى البلقاء من أعمال دمشق من أرض الشام فرأى العمالقة تعبد الأصنام، فسألهم عنها فقالوا: هذه أرباب نتخذها. نستمطرها فتمطرنا، و نستنصرها فتنصرنا. فطلب منها صنما فدفعوا إليه هبل، فسار به إلى مكة فنصبه على الكعبة و دعا الناس إلى تعظيمه و عبادته ففعلوا ذلك، ثمّ استكثروا من الأصنام، و استبدّت كلّ قبيلة، و قبيلتين بصنم، فكانت لقريش و بنى كنانة العزّى، و حجّابها بنو شيبة . و لثقيف اللّات و حجابها بنو مغيث ، و كانت مناة للأوس و الخزرج.

قال الواقدى: كان ودّ على صورة رجل، و سواع على صورة امرأة، و يغوث على صورة فرس، و نسر على صورة حصان، و يعوق على صورة فيل.

انتهى.

و كان جملة ما حول البيت من الأصنام ثلثمائة و ستين صنما فكسرت كلّها يوم الفتح، و الحمد للّه ربّ العالمين.

و على ذكر الصنم فما ألطف قول أبى الحسن السرى الرفاء فى العذار .

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۴۹ صنم شغفت بحبّهفعذرت من عبد الصّنم

أحببته فحملت عنأجفانه بعض السّقم

شعر ألمّ بعارضيهفزاد عاشقه لمم

و السّيف يحسن فى الحلىو البدر يشوّق فى الظّلم

و الطّرس أحسن ما يكونإذا جرى فيه القلم

و من محاسن شعر السرى المذكور قوله من أبيات يدعو بها صديقا له و من ديوانه نقلت:

و قد أضاءت نجوم مجلسناحتّى اكتست غرّة و أوضاحا

لو جمدت راحنا اغتدت ذهباأو ذاب تفّاحنا اغتدى راحا

فائدة: أرخ ابن خلكان وفاة السرى المذكور سنة أربع و أربعين و ثلثمائة (و نقل عن الخطيب البغدادى فى تاريخه أنه قال: فى سنة نيف و ستين و ثلثمائة) . انتهى.

قلت: و عندى أنّ هذين القولين كليهما غير صحيح، لأنى رأيت له فى ديوانه مرثية فى أبى اسحاق ابراهيم الصابى المشهور يقول فيها :

و رأيت ابراهيم مثل سميّهصبرا غداة غدا إلى الإحراق

و الصابى توفى سنة أربع و ثمانين و ثلثمائة من غير خلاف فليحرر.

و مما اخترته من شعر السرى قوله من قصيدة يمدح بها سيف الدولة:

كلينى إلى المهريّة القود إنّنىسآخذ من أيدى الخطوب قيادى

فما تعبى إلّا لتجديد راحةو لا سهرى إلّا لطول رقاد

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۵۰

و من شعره الذى تناقلته الركبان قوله:

يلقى النّدى برقيق وجه مسفرفإذا التقى الجمعان عاد صفيقا

رحب المنازل ما أقام فإن سرىفى جحفل ترك الفضاء مضيقا

رجع: و ما زلنا راتعين بين تلك الرياض الوريفة، مرتبعين من ذلك خصبه و ريفه، و الربيع قد خلع على الأرض أثوابه، و فتح من الأنس للزائر أبوابه، فتجلّى الروض بوجه وسيم، و صحّ الهوى و اعتلّ النسيم، و الرياض مفترّة المباسم، و الرياح معطّرة النواسم، و الغصون قدود، و الورد خدود، و الزهر مبلول، و النهر حسام مسلول.

نهر يهيم بحسنه من لم يهمو يجيد فيه الشّعر من لم يشعر

فكأنّه و كأنّ خضرة شطّهسيف يسلّ على بساط أخضر

و كم من روضة تختال فى خلع الغمام، و ترتاح أغصانها إلى سجع الحمام، قد التحفت حللا محضّرة، و جعلت نوّارها للبدر غرّة و للشمس طرّة.

و حديقة مطلولة باكرتهاو الشمس ترشف ريق أزهار الرّبى

يتكسّر الماء الزّلال على الحصىفإذا غدا بين الرّياض تشعّبا

فاستقبلنا العيش فى هذا القطر جديدا، و حلّينا منه للزمان جيدا، نتبع اليوم بالأمس، و نلحق البدر بالشمس، و نحن فى أمان من أخوان الزمان.

لا تبعدنّ و إن طال الغرام بهاأيام لهو عهدناها و ليلات

ما أمكنت دولة الأفراح مقبلةفانعم و لذّ فإنّ العيش تارات

قبل ارتجاع اللّيالى كلّ عاريةفإنّما لذّ الدّنيا إعارات

خذ ما تيسّر و اترك ما وعدت بهفعل الأديب و فى التّأخير آفات

هذا و لولا ما يعتنّ بالبال لتذكّر الوطن من البلبال لأنشدت فى هذه القرية قول القائل من غير فريۀ:

رحلۀ ابن معصوم المدنى، ص: ۱۵۱ وجدت بها ما يملأ العين قرّۀو يسلى عن الأوطان كلّ غريب

و لكن إذا عنّ التذكار أذكى لواعج الهموم و الأفكار (فنبارى تلك الحمائم شجونا و نجارى تلك الغمائم شؤونا) :

و حنينى إذا تصدّى لنفسىصدّ لهوى عن ارتياد ارتياحى

علّم الورق حزنها فهى فى الأوراقتتلوه فى نواح النّواح

لا يردّ الجوى اغتباط اغتباقمن حنينى و لا اصطبار اصطباح

فتنهّل غمائم الغموم، و تهمى سحائب الهوم، و ينكدر من العيش ما صفا، و أنشد (كأن لم يكن بين الحجون إلى الصّفا) .

و ما سمعت الحمام فى فنإلّا و خلت الحمام فاجانى

ما اعتضت مذ غبت عنهم بدلاحاشا و كلّا ما الغدر من شانى

كيف سلوّى أرضا نعمت بهاأم كيف أنسى أهلى و جيرانى

و كانت إقامتنا بهذا البندر ثلاثۀ أشهر إلّا عشرۀ أيام، و ذلك مدّۀ ذهاب البشير إلى الوالد و عوده. فخرجنا منه يوم الأحد لاثنتى عشرۀ ليلۀ بقيت من صفر سنۀ ثمان و ستين و ألف. و لا حاجۀ بنا إلى إثبات أسامى المنازل التى أتينا عليها فى طريقنا هذا لاستعجامها و استبهامها. و ما يتعلّق به الغرض نذكره إن شاء اللّه تعالى.

فسرنا ثلاثۀ أيام فى أرض تباهى زهر السماء بأزهارها، و مجرّتها بأنهارها و نورها بنورها، و سحابها برحابها. لا يمتدّ الناظر إلّا إلى يانع ناضر، و لا تقع العين إلّا على نهر و عين.

رحلۀ ابن معصوم المدنى، ص: ۱۵۲ ذهب حيثما ذهبنا و درّحيث درنا و فضّۀ فى الفضاء

حيث انتهينا إلى عقبۀ يسفّ عن مرتقاها العقاب، و يخفّ عند ارتقاء ذراها أشدّ العقاب. لا مطمع لراق فيها إلّا على قدمه، و لو أفضى إلى إراقۀ دمه. فأنخنا تحتها ليلۀ، و كلّ قد شمّر لصعودها ذيله، فما إنجاب الليل إلّا و ارتقيناها كانحدار السيل، فاقتعدنا مع الشمس ذروتها، و امتطينا صهوتها، و رأينا فيها من سيول الماء، و عيون موادها غيوث السماء، ما لا انصبابها دوىّ كالرعد القاصف، أو الرياح العواصف، و شاهدنا منها ما يخالف العادات، و تفتقر رواته إلى الشهادات. فإن نفس قلّتها أرض متساويۀ الطول و العرض تمتد إلى جميع تلك الأقطار، و لا يحتاج معها إلى هبوط و انحدار. فسبحان المتفرّد بالاقتدار. و كانت هذه البقعۀ منقطع أعمال (كوكن) و مبتدأ أعمال (الدكن). فألفينا الربيع قد قشع عن هذا القطر سحابه، و الشتاء عمّ شعابه و رحابه. فسرنا و قد أرجف بان المسالك شاغرۀ، و أمراء هذا الملك متشاجرۀ، و ذلك لموت ملكهم و قيام ابنه مقامه، فاستحوذ كلّ على ما تحت يده، و استبدّ بعدّته و عدده، فاستقبلوا ادبارا وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً . و لم نزل نبثّ العيون فى تلك الأقطار لتجنب مقاحم الأخطار، و إن كان معنا من العسكر عدد، إلّا أنّه لا يفى للقيام إلى أمير يدعى الملك بمدد.

و رأينا فى بعض المنازل فيلا- لبعض العمال و لم نكن نراه قبل ذلك، فعجبنا من عجيب خلقته، و غريب صورته، و عظيم جثته، فسبحان مبدع العالم باقتداره، و مدبر الأشياء على مشيئته و اختياره. و العرب تكنى الفيل أبا الحجاج، و أبا مزاحم، و أبا الحرمان، و الفيلۀ: أمّ شبل. قال بعضهم ملغزا فيه:

ما اسم شىء تركيبه من ثلاثهو ذو أربع تعالى الإله

رحلۀ ابن معصوم المدنى، ص: ۱۵۳ قيل تصحيفه و لكن إذا ماعكسوه يصير لى ثلثاه

قال المسعودى: و تزعم الهنود أنّ كلّ ذى لسان فأصل لسانه إلى داخل و طرفه إلى خارج، إلّا الفيل فإن طرف لسانه إلى داخل و أصله إلى خارج.

قالوا: و لولا أن لسانه مقلوب ثم لقّن الكلام لتكلّم. و الهند تشرفه و تفضّله على سائر الحيوانات لما اجتمع فيه من الخصال المحمودة، من علوّ سمكه، و عظم جثّته، و بديع منظره، و طول خرطومه، و سعة أذنه، و طول عمره، و ثقل جسمه، و خفّة وطئه، و قلّة اكتراثه لما يوضع على ظهره. و إنّه مع كبر هذا الجسم و عظم هذه الصورة يمرّ بالإنسان فلا يحسّ بوطئه، و لا يشعر به حتى يغشاه لحسن خطوه و استقامة مشيه. و هو إذا اغتلم كثر شرّه و صعبت رياضته، و ربّما قتل كلّ من يلقاه فى حال اغتلامه. و فيه من الفهم ما يقبل التأديب، و يفعل ما يأمره به سائسه من السجود للملوك و غير ذلك من الخير و الشر فى حالتى السلم و الحرب. و هو ذو حقد شديد، ربّما تعرّض لمن سبّه فى وجهه.

قلت: و لقد أخبرنى شخص أن فيلا- صغيرا وقف على دكان خيّاط و عبث به فغرز الخياط الابرة فى خرطومه، فتركه و مضى ثم عاد إليه و قد ملأ خرطومه و حلا فنفخ به فى دكان الخياط، فأتلف عليه ما أصاب من الثياب، و هذا من غريب ما يحكى عن فهمه و فطنته و شدّة حقده . و حكى أرسطو: أن فيلا ظهر أنّ عمره أربعمائة سنة، و اعتبر ذلك بالوسم. و إذا دخلت البعوضة أذن الفيل قتلته، فهو لم يزل يذبّ عن أذنه ليلا و نهارا. و ما أحسن قول أبى الفتح البستى (*):

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۵۴ لا يستخفّنّ الفتى بعداوةأبدا و إن كان العدوّ ضئيلا

إنّ القذى يؤذى العيون قليلهو لربّما قتل البعوض الفيلا

و من العجيب أن الفيل مع هذه الأوصاف التى نقلناها قليل الجرى جدّا يسبقه الإنسان إذا سابقه، و لا أشك فى كون الحكاية التى ذكرها أبو نعيم فى الحلية- فى ترجمة أبى عبد اللّه القلانسى- موضوعة، حيث قال فيها: إن الفيلة سارت به فى ليلة مسيرة ثمانية أيام. و لا يصح ذلك البتة . و قد ذكر من لم ير الفيل فى حليته أوصافا أكثرها غير صحيح.

منها: أن خرطومه مصمت، و ليس كذلك، فإنّه مجوّف إلا أنّه لا ينفذ و إنما هو وعاء إذا ملأه من طعام أو شراب أولجه فى فمه، لأنّه قصير العنق لا ينال ماء و لا مرعى.

و منها أن صياحه ليس على مقدار جثته، لأنّه كصياح الصبى، و الحال أنّ صوته هائل قريب من رغاء البعير، إلا أنّه أمدّ منه صوتا.

و منها قولهم: أنّه لا يبرك، و قد شاهدنا بروكه.

و منها قول القزوينى أن فرج الفيلة تحت ابطها، فإذا كان وقت الضراب ارتفع و برز للفحل حتى يتمكن من إتيانها، و هذا غلط البتة، فإنّها كسائر أناثى الحيوانات أولات الأربع.

و منها قولهم: إن صياحه من خرطومه، و ليس كذلك، و إنّما يصيح من حلقه. و قد ذكر من اعتنى بأخبار الحيوان من أخباره شيئا كثرا، و الاختصار بنا أولى.

و وصف بعض العرب الفيل فقال: لا ظهر فيركب، و لا ضرع فيحلب.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۵۵

و أحسن ما سمعت به فى تشبيهه قول العلامة شهاب الدين أحمد بن فضل اللّه فى رسالته (يقظة الساهى) و هو معنى غريب مستطرف:

هذا هو الفيل الذىيبدو العجيب لنا به

ليل قد افترس النّهارفبان فى أنيابه

طريفة: ذكر الطرطوشى و غيره: أن الفيل قدم دمشق فى زمن معاوية بن أبى سفيان، فخرج الناس لينظروه و لأنّهم لم يكونوا رأوا الفيل قبل ذلك، و صعد معاوية سطح القصر للفرجة فحانت منه التفاتة فرأى مع بعض حظاياه فى بعض حجر القصر رجلا، فنزل مسرعا إلى الحجرة و طرق بابها، فقيل من؟

قال: أمير المؤمنين، ففتح الباب- إذ لا بد من فتحه طوعا أو كرها- فدخل معاوية فوقف على رأس الرجل و هو منكس رأسه و قد خاف خوفا عظيما، فقال له معاوية: ما الذى حملك على ما صنعت من دخول قصرى، و جلوسك مع بعض حرمى، أما خفت نقمتى،

أما خشيت سطوتى؟ أخبرنى يا ويلك ما الذى حملك على ذلك؟ فقال: يا أمير المؤمنين حملنى على ذلك حلمك. فقال له معاوية: أرأيت إن عفوت عنك تسترها علىّ فلا تخبر بها أحدا؟ قال: نعم، فعفا عنه و وهب له الجارية و ما فى حجرتها، و كان شيئا له قيمة عظيمة.

انتهى .

و على ذلك يحكى أنّ معاوية قال لعمرو بن العاص: إنّى لأحبّ أن تكون فىّ خصال، قال: و ما هنّ يا أمير المؤمنين؟ قال: أحبّ أن لا يكون جهل أعظم من حلمى، و لا ذنب أكبر من عفوى، و لا عورة إلّا و أنا أسعها بسترى،

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۵۶

و لا فاقة إلّا سددتها بجودى، و لا قلب إلّا ملكته بعزى، و لا نفس إلّا علوتها بقهرى، و لا يكون زمان أطول من أناتى.

فتبسّم عمرو، فقال معاوية: لم تبسّمت؟ فإنى أعلم أنّك إن قلت خيرا أضمرت شرّا، قال: نعم تمنيت الربوبية. قال معاوية: فاسترها علىّ.

انتهى.

من (خلق الإنسان) للعلامة النيسابورى .

و قلت أنا فى وصف الفيل و هو قريب من قول ابن فضل اللّه المتقدم، إلّا أنّ بين التشبيهين مغايرة:

يا حبّذا الفيل الذى شاهدتهو شهدت منه ما نمى لى ذكره

فكأنّه و كأنّ أبيض نابهليل تبلّج للنّواظر فجره

و ذكر بعضهم أن ابن بابك و هو عبد الصمد بن منصور بن الحسن الشاعر المشهور لما وفد على الصاحب بن عباد و أنشده مدائحه فيه طعن بعض الحاضرين عليه، و ذكر أنه منتحل، و أنه ينشد قصائد قد قالها ابن نباتة السعدى فأراد الصاحب بن عباد أن يمتحنه فاقترح عليه أن يقول قصيدة يصف فيها الفيل على وزن قول عمرو بن معد يكرب :

أعددت للحدثان سابغةو عدّاء علندا

فقال:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۵۷ قسما لقد نشر الحيابمناكب العلمين بردا رحلة ابن معصوم المدنى ؛ ص۱۵۷

و تنفسّت يمنيّةكى تضحك الزّهر المندّى

إلى أن قال:

و مساجل لى قد شققتلدائه فى فىّ لحدا

لا ترم بى فأنا الذىصيّرت حرّ الشّعر عبدا

بشوارد شمس القياديزدن عند القرب بعدا

و ممسّك البردين فىشبه النّقاشية و قدا

فكأنّما نسجت عليهيد الغمام الجون جلدا

و إذا لوتك صفاتهأعطاك مسّ الرّوع نقدا

فكأنّ معصم غادةفى ماضغيه إذا تصدّى

ذكرت بقوله (تصدّى) بيتين لطيفين للأديب المهتار من شعراء هذا القرن، و هما فى مليح فقير الحال، و قد أجاد فى الاقتباس:

تصدّ و كم تصدّى منك كفّلمن لم يدر قدرك يا مفدّى

فصدّك عن أولى (أدب) و أمّامن استغنى فأنت له تصدّى

عاد شعر ابن بابك فى وصف الفيل:

و كأنّ عودا عاطلافى صفحتيه إذا تبدّى

يحدو قوائم أربعايتركن بالتّلعات وهدا

و إذا تخلّل هضبةفكأنّ ظلّ اللّيل مدّا

ثم أتبع ذلك بالمديح فاستحسنها الصاحب، و لام الطاعن عليه على كذبه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۵۸

و ادعائه أنّه انتحل شعر غيره. فقال: يا مولانا الصاحب هذا واللّه معه ستون فيليّة كلّها على هذا الوزن لابن نباته، فضحك منه.

(و كان قد برز أمر الصاحب لابن بابك و غيره من الشعراء الذين يحضرونه أن يصفوا الفيل على هذا الوزن. فمن قصيدة لأبى الحسن الجوهرى و قد أطنب فى وصفه) :

فيلا كرضوى حين يلبسمن رقاق الغيم بردا

مثل الغمامة ملّئتأكنافها برقا و رعدا

رأس كفلّة شاهق كسيت من الخيلاء جلدا

فتراه من فرط الدّلالمصعّرا للنّاس خدّا

يزهى بخرطوم كمثل الصّولجان يردّ ردّا

متمدّد كالأفعوانتمدّه الرّمضاء مدّا

أو كمّ راقصة تشيربه إلى النّدمان وجدا

أو كالمصلّل شدّ جنباهإلى جذعين شدّا

و كأنّه بوق يحرّ (م)كه لينفخ فيه جدّا

يسطو بساريتى لجينيحطمان الصّخر هدّا

أذناه مروحتان أسندتاإلى الفودين عقدا

عيناه غائرتان ضئ (م)قتا لجمع الضّوء عمدا

فكّ كفوّهة الخليجيلوك طول الدهر حقدا

تلقاه من بعد فتحسبهغماما إذ تبدّى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۵۹ متنا كبنيان الخورنقما يلاقى الدّهر كدّا

ذنبا كمثل السّوط يضربحوله ساقا و زندا

يخطو على أمثال أعمدةالخباء إذا تصدّى

أو مثل أميال نضدنمن الصّخور الصمّ نضدا

متورّدا حوض المنئ (م)ة حيث لا يشتاق وردا

متملّكا فكأنّهمتطاول ما لا يؤدّى

متلفّعا بالكبرياء كأنّه ملك مفدّى

أذكى من الإنسان حتّىلو رأى خللا لسدّا

لو أنّه ذو لهجةوفّى كتاب اللّه سردا

و من قصيدة لأبى محمد الخازن :

و كأنّما خرطومهراووق خمر مدّ مدّا

أو مثل كمّ مسبل أرخته للتّوديع سعدى

و إذا التوى فكأنّه الثعبان من جبل تردّى

فكأنّما انقلبت عصاموسى غداة بها تحدّى

و من شعر ابن بابك (*) بيت من قصيدة فى غاية الرقة و هو:

و مرّ بى النّسيم فرقّ حتّى كأنّى قد شكوت إليه ما بى

و من لطيف شعره أيضا قوله :

و أغيد معسول الشّمائل زارنى على فرق و النّجم حيران طالع رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۶۰ فلمّا جلا صبغ الدّجى قلت حاجب من الصّبح أم قرن من الشّمس لامع

إلى أن رنا و الصّبح رائد طرفه كما راع ظبيا بالصّريمة رائع

فنازعته الصّهباء و الليل دامس رقيق حواشى البرد و النّسر واقع

عقار عليها من دم الصّبّ نفضة و من عبرات المسهام (فواقع)

يدير إذا سحّت عيونا كأنّها عيون العذارى شقّ عنها البراقع

معوّدة غصب العقول كأنّما لها عند ألباب الرّجال ودائع

فبتنا و ظلّ الوصل دان و سرّنا مصون و مكتوم الصّبابة ذائع

إلى أن سلا عن ورده فارط القطا و لاذت بأطراف الغصون السّواجع

فولّى أسير السّكر يكبو لسانه فتنطق عنه بالوداع الأصابع

قال صاحب اليتيمة: قرأت للصاحب فصلا فى ذكره فاستملحته و هو، (و أما ابن بابك و كثرة غشيانه بابك، فإنّما تغشى منازل الكرام، و المنهل العذب كثير الزحام).

و كانت وفاته فى سنة عشر و أربعمائة ببغداد. و شعره طبقة عالية، و لعمرى انّ الطاعن عليه قد أغرب (فى قوله، و أدّى به الحسد له إلى ما لا يتوهمه أحد، و لكنّ سورة الحسد تقحم إلى أفظع من هذا) .

و هذا الصاحب بن عباد المذكور مع غزارة فضله، و سجاحة خلقه قيل: أنّه كان أشدّ الناس حسدا لأهل الفضل و الأدب، و على هذا خيطت شواكل الفضل و أقراب العلم. فكان يعمل فى أوقات العيد و مواسم النيروز شعرا و يدفعه إلى رجل و يقول له: قد نحلتك هذه القصيدة فامدحنى بها فى جملة الشعراء، و كن الثالث من المنشدين. فيفعل الرجل ذلك، فيقول له عند سماعه شعره فى نفسه: أعد يا فلان فإنك مجيد محسن، أحسنت يا أبا فلان قد

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۶۱

صفا ذهنك، و زادت قريحتك، و تنقحت قوافيك، فلازمنا تخرّج الناس، و تهب لهم الذكاء، و تحوّل الكودن عتيقا و المحمّر جوادا. ثم لا يصرفه عن مجلسه إلّا بجائزة سنيّة. و إنّما يفعل ذلك ليغايظ الجماعة من الشعراء و الفضلاء، لأنّهم يعلمون أنّ ذلك الرجل لا يزن بيتا، و لا يعرض مصراعا، و لا يذوق عروضا.

و قال يوما: من فى الدار؟ فقيل: أبو القاسم الكاتب، و ابن ثابت، فعمل فى الحال بيتين و قال لإنسان بين يديه: إذا أذنت لهذين فادخل بعدهما بساعة و قل: قد قلت بيتين فإن رسمت لى إنشادهما أنشدت. و ازعم أنّك بدهت بهما، و لا تجزع من تأفيفى بك، و لا تفزع لنكيرى عليك. و دفع البيتين إليه، و أمره بالخروج إلى الصحن. و أذن للرجلين حتى وصلا، فلما جلسا و أنسا دخل الرجل، و أخذ يتلمّظ يرى أنّه يعرض شعرا ثم قال: يا مولانا قد حضرنى بيتان فإن أذنت أنشدت، قال: أنت أنشأت؟ أنت أخرق سفيه سخيف لا تقول شيئا فيه خير، اكفنى أمرك و شعرك. قال: يا مولاى هى بديهتى فإن كسرتنى ظلمتنى، و على كلّ حال فاسمع، فإن كانا بارعين و إلّا

فعاملنى بما تحب، فالعبد عبدك و الأمر أمرك. قال: أنت لجوج هات. فأنشد:

يا أيّها الصّاحب تاج العلىلا تجعلنّى نهزة الشّامت

بملحد يكنى أبا قاسمو مجبر يعزى إلى ثابت

فقال الصاحب: قاتلك اللّه لقـد أحسـنت و أنت مسـىء، قال أبو القاسم فكدت أتفقّأ غيظا لأنى علمت أنّها من فعلاته المعروفة، و كان ذلك الجاهل لا يعرض بيتا.

و لما توفى الصاحب رحمه اللّه تعالى رثاه أكثر شعراء عصره (و وقفت على

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۶۲

أكثر مراثيهم فى تاريخ غريب. فما اخترته منها قول) أبى عيسى المنجم :

و اللّه و اللّه ما أفلحتم أبدابعد الوزير بن عبّاد بن عبّاس

إن كان منكم جليل فاجلبوا أجلىأو كان منكم رئيس فاقطعوا راسى

و قول أبى محمد الخازن (*)، :

يا كافى الملك ما وفّيت حقّك منمدحى و إن طال تمجيد و تأبين

هذى نواعى العلى قد قمن نادبةمن بعد ما ندبتك الخرّد العين

تبكى عليك العطايا و الصّلات كماتبكى عليك الرّعايا و السّلاطين

قام السّعاة و كان الخوف أقعدهمو استيقظوا بعدما نام الملاعين

لا تعجب الناس منهم إن هم انتشروامضى سليمان فانحلّ الشّياطين

ما متّ وحدك لا بل كلّ من ولدتحوّاء طرّا بل الدّنيا بل الدّين

و رثاه الرضى (*) بقصيدة لأميّة عدّتها مائة و اثنا عشر بيتا مثبتة بكمالها فى ديوانه يقول فيها:

قالوا و قد فجئوا بنعشك سائرامن ميّل الجبل العظيم فمالا

و تبادروا عطّ الجيوب و عاجلواعضّ الأنامل يمنة و شمالا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۶۳ ما شقّقوا إلّا كساك و ألّمواإلّا أنامل نلن منك سجالا

و لنعد إلى ما نحن بصدده:

و مررنا بعد قطعنا عشر مراحل بقلعة (بيجابور)- بكسر الباء الموحدة، و سكون الياء المثناة من تحت، و جيم و بعد الألف باء موحدة أعجميّة و بعد الواو راء مهملة- و هذه القلعة هى دار ملك عادل شاه ملك تلك الأقطار، فمررنا عليها و لم نجنح إليها، و كان برز إلينا أمر مولانا السلطان خلّد اللّه ملكه بذلك.

فنزلنا بقرية بالقرب منها، فى بستان الملك المذكور، فيه عمارة عظيمة، و بركة ماء كأنّها قطعة من السماء، و ما ألطف قول ابن تميم فى البركة:

لقد قابلتنا بالعجائب بحرةمكمّلة الأوصاف فى الطّول و العرض

كأنّ الذى يرنو إليها بطرفهيرى نفسه فوق السّما و هو فى الأرض

و للقاضى أحمد بن عيسى المرشدى فيها أيضا:

ألا انظر إلى هذا الصّفاء ببركةتقول لمن قد غاب عنها من الصحب

لئن غبت عن عينى و كدّرت مشربىتأمّل تجد تمثال شخصك فى قلبى

كان القاضى أحمد المذكور من علماء مكة المشرّفة، و أكابر أدبائها البارعين نظما و نثرا. توفى لخمس خلون من ذى الحجة الحرام

سنة سبع و أربعين و ألف على ما أخبرنى به الوالد، و أنشدنى له:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۶۴ قصر ابن عقبة لا زالت مواصلةمنّى إليك التّحايا نسمة السّحر

و لا عدتك غوادى الرّيح تسحب فىرحابك الفيح ذيل الطلّ و المطر

كم لذّة فيك أرضيت الغرام بهايوما و أرغمت أنف الشّمس و القمر

و هذه الأبيات من قصيدة له فائقة نظمها فى دار ابن عقبة بقرية السلامة من الطائف و كتبها عليها.

و كان الشريف مسعود بن ادريس والى مكة المشرفة حلّى شدادا لناقته، فأمر القاضى المذكور أن ينظم بيتين ليكتبهما عليه، فقال و أبدع فى التورية:

أفق الشّداد بدت بهشمس الخلافة و الهلال

و من العجائب جمعهليث الشّرافة و الغزال

و الهلال، و الغزال فى اصطلاحهم اسمان لجزءين من الشداد.

رجع: فأقمنا بهذه القرية أياما، و قد قام لنا ملكها بالضيافة فيها قياما.

دخلنا على أنّ المقام بليلةفطابت لنا حتّى أقمنا بها عشرا

ثم ارتحلنا نقطع تلك المراحل و المنازل ما بين نجد طالع و غور نازل فمررنا على (كلبرجا) و كانت إحدى منازلنا، و فيها مدفن العلّامة بدر الدين الدماميني شارح التسهيل، و المغنى ، و هو:

محمد بن أبى بكر بن عمر بن أبى بكر بن محمد بن سليمان بن جعفر بن

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۶۵

يحيى بن حسين بن محمد بن أحمد بن يوسف بن على بن صالح بن ابراهيم، بدر الدين القرشى المخزومى الاسكندرى المالكى، و عرف بالدماميني. قال السخاوى ولد سنة ثلاث و ستين و سبعمائة بالاسكندرية، و سمع بها من البهاء ابن الدماميني. و شيوخه بالقاهرة: السراج ابن الملقن، و المجد اسماعيل الحنفى، و بمكة: القاضى أبو الفضل النويرى. و مهر فى العربية و الأدب، و شارك فى الفقه و غيره بسرعة إدراكه، و قوّة حافظته، و درّس بالاسكندرية فى عدة مدارس، و ناب عن ابن التنسى فى الحكم، و تصدّر بالأزهر لإقراء النحو. و دخل دمشق، و حجّ و رجع إلى بلده. و ترك النيابة و ولى الخطابة مع إقباله على الاشتغال، و إدارة دولاب متّسع للحياكة و غير ذلك إلى أن وقف عليه مال كثير.

فاحترقت داره، و فرّ من غرمائه إلى جهة الصعيد فتبعوه و أحضروه إلى القاهرة.

فقام معه التقى ابن حجة، و أعانه كاتب السر ناصر الدين ابن البارزى حتى صلح حاله. و حضر مجلس المؤيد، و عين لقضاء المالكية بمصر، فرمى بقوادح لم تبعد عن الصّحة. و استمرّ بها إلى أن سار إلى الحج سنة تسع عشرة و ثمانمائة. و منها إلى اليمن فى أول سنة عشرين، و درّس بجامع زبيد نحو سنة فلم يرج له بها أمر، فركب البحر إلى الهند، فأقبل عليه أهلها كثيرا و عظّموه و أخذوا عنه، و حصّل دنيا عريضة، و كان أحد الكملة فى فنون الأدب. أقرّ له الأدباء بالتقدّم فيه، و بإجادة القصائد و المقاطع و النثر، معروفا بإتقان الوثائق مع حسن الخطّ. و صنّف نزول الغيث، انتقد فيه أماكن من شرح لامية العجم للصلاح الصفدى المسمى: بالغيث الذى انسجم، و قرّظ له أئمة عصره فأمعنوا. و له تحفة الغريب فى حاشية مغنى اللّبيب، و هما حاشيتان يمنية، و هندية. و قد أكثر من تعقّبه فيها المتقى الشمنى، و شرح البخارى- و جلّه فى الاعراب و نحوه-. و شرح التسهيل، و الخزرجية فى العروض، و له [جواهر] البحور فى العروض أيضا، و الفواكه البدرية من نظمه، و مقاطع الشرب، و غير ذلك. و قرّظ سيرة المؤيّد لابن ناهض.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۶۶

مات فى شعبان سنة سبع و عشرين و ثمانمائة بكلبرجا، و يقال: أنّه سم فى الأنبج و مات من سمه بعده بيسير. و فى معجم العسقلانى

كذلك، إلّا أنه فى أنباء سنة ثمان و عشرين. انتهى من الضوء اللامع بنصّه.

قلت: و من مؤلفاته المشهورة: المنهل الصافى فى شرح الوافى، و رأيت له بالهند عين الحياة: مختصر حياة الحيوان للدميرى، و قد أخلّ به إخلالا كثيرا.

و لما دخل الهند طارحه نحاتها فمنى منهم بالداء العياء، حتى أنّهم ألّفوا كتابا فى المسائل التى سألوه عنها و لم يجب فيها.

و من ألغازه التى نظمها بالهند سائلا نحاتها قوله:

أيا علماء الهند لا زال فضلكممدى الدّهر يبدو فى منازل سعده

ألمّ بكم شخص غريب لتحسنوابإرشاده عند السّؤال لقصده

و ها هو يبدى ما تعسّر فهمهعليه لتهدوه إلى سبل رشده

فبسأل ما أمر شرطتم وجودهلحكم فلم تقض النّحاة بردّه

فلمّا وجدنا ذلك الأمر حاصلامنعتم ثبوت الحكم إلّا بفقده

و هذا لعمرى فى الغرابة غايةفهل من جواب تنعمون بسرده

و الجواب: ان هذا الأمر هو العلمية اشترطت فى الاسم الذى يجمع جمع تصحيح، و لا خفاء فى أن العلم إذا جمع زالت العلمية ضرورة. إن تثنية العلم و جمعه يقتضى إخراجه عن كونه علما إذ يصير نكرة، لأن العلم إنما يكون معرفة على تقدير أفراده لموضوعه، لكونه لم يوضع علما إلّا مفردا، فهو دالّ على الوحدة. و التثنية و الجمع يدلان على التعدد. و الوحدة و التعدد متضادتان، فيؤول الأمر إلى أنه ما يشترط وجوده شرط للإقدام على الحكم، و يفقد عند ثبوت ذلك الحكم.

و كان دخول البدر الدماميني الهند فى دولة الملك أبى الفتح أحمد شاه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۶۷

بن محمد بن السلطان مظفّر شاه ملك كجرات، و برسمه ألّف شرح التسهيل و المغنى، و المنهل، و اختصر حياة الحيوان. و كلّ تأليف ألفه فى الهند ذكره فى ديباجته، و فيه يقول:

إمام أحاديث العلى عنه أسندتفبادر لكى تروى لأحمد مسندا

حياة لمظلوم هلاك لظالمفبالبأس و الاحسان أشقى و أسعدا

فكم من عفاة نحوه قد تردّدتعلى أنّه فى برّهم ما تردّدا

و لمتحو أخبار السّلاطين غايةمن الرّفع إلّا كان فى الحال مبتدا

لقد وزن الأفعال بالعدل دائماو عرّف أسبابا تنجّى من الرّدى

فلم ينصرف عن رتبة الفضل إذ أتىبوزن و تعريف أبانا عن الهدى

و تلك رأيناها لأحمد سنّةفعد لحماه تشهد العود أحمدا

و هذا الملك هو الذى عمّر أحمد آباد، و هى بلدة مشهورة من أعمال الهند. و كان ابتداؤه فى تعميرها سنة ستّ و عشرين و ثمانمائة، و كان قيامه بالسلطنة بعد جدّه مظفر المذكور سنة ثمان عشرة و ثمانمائة. و توفى سنة سبع و أربعين و ثمانمائة. و قد بادت ملوك كجرات الآن، و احتوى على ملكهم غيرهم و اللّه الباقى.

و أكثر شعر البدر الدماميني (*) محتو على محاسن التورية، فمنه قوله:

يا عذولى فى مغنّ مطربحرّك الأوتار لمّا سفرا

كم تهزّ العطف منه طرباعندما تسمع منه وترا

و قوله:

قلت له و الدّجى مولّو نحن فى مجلس التّلاقى

قد عطس الصّبح يا حبيبىفلا تشمّته بالفراق

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۶۸

و قوله:

غنّى على العود شاد سهم ناظرهأمسى به قلبى المضنى على خطر

رنا إلىّ و جسّت كفّه و ترافراحت الرّوح بين السّهم و الوتر

و قوله:

قم بنا نركب طرف اللّهوسبقا للمدام

و اثن يا صاح عنانىلكميت و لجام

و قوله فى الشهاب الفارقى:

قل للّذى أضحى يعظّم حاتماو يقول ليس لجوده من لاحق

إن قسته بسماح أهل زمانهأخطا قياسك مع وجود الفارقى

و من قوله فى الاكتفاء:

أقول لصاحبى و الرّوض زاهو قد بسط الرّبيع بساط زهر

تعال نباكر الرّوض المفدّىو قم نسعى إلى ورد و نسرى

و أنشد له السيوطى فى بغية الوعاة قوله ملغزا فى كادى :

و ما شىء له نشر ذكىّلعاطره إلى الطّيب انتساب

تروح له على رجليك تمشىو تقلبه (يداك) فما الجواب؟

قال : و قد نظمت جوابهما بديها لما أنشدتهما بثغر الاسكندرية فى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۶۹

رحلتى إليها فقلت:

و مذ سمعت بهذا اللّغز أذنىأتانى من تفضّله الجواب

فذا طيب إذا صحّفت منهأخيريه له فى الخبث باب.

المراد من (أخيريه) الدال المهملة تصحّف بالمعجمة، و الياء المثناة تصحّف بالباء الموحّدة فيكون منه (كاذب). و لا شكّ أنّ له فى الخبث بابا.

و على ذلك فمن نوادر الأكاذيب مما يتعلّل به و يجرى مجرى الفكاهة ببعض الهزل، و إحجام النفس عن الجدّ، كما قيل :

أفد طبعك المكدود بالجدّ راحةيجمّ و علّله بشىء من المزح

و لكن إذا أعطيته ذاك فليكنبمقدار ما تعطى الطّعام من الملح

ما حدّث الصاحب بن عباد عن الوزير أبى محمد المهلبى: أنّ بعض الأحداث من بغداد من أولاد أرباب النعم فارق أباه مستوحشا، و خرج إلى البصرة، و كان فى الفتى أدب و ظرف. فدخلها و قد انقطع به الحال، و تحيّر فى أمره، فسأل عمّن يستعان به من أهلها من الفضلاء، فوصف له نديم لأمير كان بها فى ذلك الوقت من المهالبة، فقصده و عرض عليه نفسه، و عرّفه أمره.

فقال: أنت من أصلح الناس لمنادمة هذا الأمير، و هو من أحوج الناس إليك إن صبرت منه على خلّة، فقال: و ما هى؟ قال: هو رجل

مشغوف بالكذب لا يصبر عنه و لا يفيق منه، و لا بدّ لك من تصديقه فى كلّ شىء يقوله، و كلّ كذب يختلقه لتحظى بذلك عنده، و إن لم تفعل ذلك لم آمنه عليك، فقال الفتى: أنا أفعل ذلك، و احتذى رسمك فيه و لا أتجاوزه.

فوصفه هذا النديم لصاحبه، فقال: لا يكون يغداديّا يسىء الأدب،

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۷۰

فضمن عنه حسن الأدب و إقامة شروط الخدمة. و استحضره فحضر، و أعجب به و خلع عليه، و حملت له صلة من ثياب و دراهم و غيرها، و وضع بين يديه مائدة و واكله، و أحضره فى مجلس أنسه، و هو فى أثناء ذلك يأتى بالعظائم من الكذب فيصدّقه. إلى أن قال مرّة و قد أخذ الشراب من الفتى: إنّ لى عادة فى كلّ سنة أن أطبخ قدرا كبيرا وقت ورود حاج خراسان أدعوهم و أطعمهم جميعهم من تلك القدر الواحدة. فتحيّر الفتى و قال: و أىّ شىء هى هذه القدر؟

باديـة العرب، دهنـاء بنى تميم، بحر القلزم؟ فغضب الأمير و أمر بتمزيق الخلع عليه، و ردّ الصلة إلى الخزانة، و طرده فى بعض اللّيل. و أقبل على النديم يعنّفه و يلومه. و عاد الفتى إلى باب النديم و بات عليه إلى أن أصبح، و عاد الرجل إلى منزله فدخل عليه و اعتذر بالسكر، و ضمن أن لا يعود لمثل ذلك. فاستوثق منه النديم ثم عاد إلى صاحبه و حسّن أمره و قال: أنّه كان بعيد عهد بالشراب فلم تتحمله قوّته، و عمل النبيذ فيه عملا لم يشعر معه بشىء مما جرى، و أنّه بكّر إلىّ يزعم أن اللّصوص عند عوده إلى مبيته عارضوه و أرادوا أن يأخذوا منه صلة الأمير فمانعهم عن ذلك فمزّقوا عليه خلعة الأمير.

فرسم الأمير إعادته إلى المجلس، و أضعف له فى اليوم الثانى الجائزة، و زاد فى الخلعة و الكرامة، و جعل الفتى يتقرّب بأنواع التقرّب إليه، و إذا كذب الأمير صدّقه و حلف عليه. إلى أن جرى ذكر الكلاب الزيتيّة الصغار فقال الأمير: قد كان عندى منها عدّة فى غاية الصغر، حتى أنّى كنت آمر بأن تلقى فى المكحلة، و كان لى مضحك أعبث به فآمر أن يكحل من تلك المكحلة إذا نام و سكر، و كان إذا أصبح و أفاق من سكره يرى تلك الكلاب و هى تنبح فى عينيه، و لا يقدر عليها لصغرها. قال: فقام الفتى و خلع الثياب المخلوعة عليه، و ترك الجائزة و عدا عريانا و قال: لا صبر لى على كلاب تنبح فى أجفان العين، اعمل بى ما شئت و عاد إلى بغداد .

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۷۱

و ورد على الصاحب، و قبله على ابن العميد شيخ حسن الهيئة و الشيبة، مقبول الشارة و البزّة، يرجع إلى فضل كثير و تفنن فى العلوم، و يقول شعرا جيّدا، و لكنه كان مشغوفا بالكذب و كانت له أوابد و عجائب يحدّث بها عن نفسه و لا يتحاشى.

فممّا حكى أنّه قال: سلكت طريقا بالروم فى شدّة البرد، فلما ارتفع النهار سمعنا فى الهواء أصواتا مختلفة، و كلاما عاليا و لم نر أحدا، فإذا قوم كانوا سلكوا ذلك الطريق قبلنا فى الليل، و جمدت أصواتهم من شدّة البرد فى الجوّ، فلما حمى النهار و طلعت الشمس على الأصوات الجامدة ذابت فكنّا نسمعها، و واحد يقول: اشدد الرحل، و آخر يقول: اسرج الدابة مما يجانس من كلام جماعتهم. و ذكر أنّه وجد فى هذه الطريق حبلا أسود فشدّ به رحله، فلما طلعت عليه الشمس تقطّع و طار و سقط رحله على الطريق، و انّ ذلك من اجتماع خطاطيف كثيرة أصابها البرد و أدخل كل واحد رأسه فى است الآخر و صارت على هيئة الحبل، فلما مسّها حرّ الشمس طارت. انتهى من (خلق الإنسان) للعلامة النيسابورى.

و رأينا بالهند نوعا من الكادى الأصفر، و هو أذكى رائحة من الأبيض، لا يشكّ من رآه و لم يعرف ذلك أنّه مضمّخ بزعفران. و قد استفيد ممّا مرّ من كلام السيوطى أن الكادى بالدال المهملة، و هو خلاف المشهور. و ذكره فى القاموس فى مادة (كذا)- بالذال المعجمة- و اللّه أعلم.

رجع: وزرنا بكلبرجا هذه ضريح السيد محمد المشهور بكيسو دراز، أى طويل اللمّة، و هو أحد الصوفية المشهورين، و السادة المباركين تقصده ملوك الهند للزيارة و تنذر له النذور، و على ضريحه قبّة عظيمة معلّق فيها عقود لآل ثمينة، يقال: انّ بعض التجار كان فى البحر فأشرفت سفينته على الغرق فنذر أن أنجاه اللّه تعالى أن يعلّق على ضريح السيد هذه اللآلئ و كانت معه، فأنجاه اللّه

تعالى و وفّى بنذره. و كانت وفاة السيد المذكور سنة خمس و عشرين و ثمانمائة.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۷۲

و على ذلك فما ألطف قول أبى الفتح البستى:

تنازع الناس فى الصّوفى و اختلفوافيه و ظنّوه مشتقّا من الصّوف

و ليس أنحل هذا الاسم غير فتىصافى فصوفى حتّى لقّب الصّوفى

و قد اختلف فى مأخذ هذا الاسم و الوصف به. قال أبو نصر السراج :

إنّما قيل لهم الصوفيّة نسبة إلى ظاهر اللّبسة، إذ كان لبس الصوف دأب الأنبياء و الأولياء و الصديقين و عباد اللّه المخلصين، فنسبوا إليه، حتى يكون ذلك اسما مجملا- عاما مخبرا عن جميع أوصاف التنسّك و آداب التعبد، إذ لو كان الاسم ببعضها لم يكن ذلك البعض بأولى من غيره فوصفوا باللّبسة الظاهرة.

و قال بشر بن الحارث : هو من صفا قلبه للّه.

و قد قربت عباراتهم عن الصفوة على مخرج اسمهم فقالوا: هو من صفّا نفسه عن كدورة المخالفات، و قالوا: هو من صفت للّه معاملته، و صفت له من اللّه كرامته.

و سئل محمد بن على أستاذ الجنيد عن التصوف فقال: التصوّف جملته أخلاق كريمة طهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام.

و قال أبو الحسن الثورى: التصوف فى الحقيقة هو الخلق، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد فى التصوّف. و قيل: أنّه سئل عن التصوف فأنشد:

عرى و جوع و حفاو ماء وجه قد عفا

و ليس إلّا نفسيخبر عمّا قد خفا

قد كنت أبكى طربافصرت أبكى أسفا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۷۳

و قيل: التصوف هو أن يستعذب البلاء و لا يسأل كشفه، و يستحلى العناء و لا يبغى صرفه، و أنشد :

لست أشكو هواك يا من هواهكلّ يوم يروعنى منه خطب

مرّ ما مرّ بى من أجللك حلوو عذابى فى مثل حبّك عذب

و قيل: التصوّف صيرورة الأهواء هوى، و الهموم همّا، و أنشد:

سرت فى سواد النّفس حتى إذا انتهىبها السّير و ارتادت حمى القلب حلّت

فو اللّه ما فى القلب شىء من الهوىلأخرى سواها أكثرت أم أقلّت

و كلامهم فى ذلك يطول. و من املاء المولى الأعظم قطب الدين الشيرازى : التصوف فى زماننا عبارة عن متابعة التيوس [اللحيانية] و تقوية النفوس الشهوانية، و الرقص بالحركات الميلانية، و الانسلاخ من جميع الأخلاق الإنسانية، و مخالفة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى جميع الوظائف الإيمانية. انتهى.

و كتب بعض الأفاضل لعلّ فى قوله: فى زماننا، دفعا لما يفهم من مذمتهم على الاطلاق. و على ذلك فما ألطف قول القاضى أحمد بن عيسى المرشدى (*):

صوفيّة العصر و الأوانصوفيّة العصر و الأوانى

فاقوا على فعل قوم لوطبنقر زان لنقر زان

و بالجملة فالحال الآن كقولة من قال:

لقد هزلت حتّى بدا من هزالهاكلاها و حتّى استامها كلّ مفلس

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۷۴

نقل القرطبى عن أبى بكر الطرطوشى (*) أنه سئل عن قوم يجتمعون فى مكان يقرؤن شيئا من القرآن، ثم ينشد لهم منشد شيئا من الشعر فيرقصون و يطربون و يضربون بالدف و الشبّابة ، هل الحضور معهم حلال أو لا؟.

فأجاب: مذهب السادة الصوفية، ان هذا بطالة و جهالة.

(قال العلامة الدميرى فى حياة الحيوان الكبرى: و قد رأيت أنه أجاب بلفظ غير هذا و هو أنّه قال: مذهب الصوفية بطالة و ضلالة و جهالة، إلى آخر كلامه). و ما الإسلام إلّا كتاب اللّه و سنة نبيه صلى اللّه عليه و سلّم، و أما الرقص و التواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حوله و يتواجدون، فهو دين الكفار، و عباد العجل. و إنّما كان النبى صلى اللّه عليه و سلم يجلس مع أصحابه كأنّ على رؤوسهم الطير مع الوقار. فينبغى للسلطان و نوّابه أن يمنعوهم من الحضور فى المساجد و غيرها، و لا يحلّ لأحد يؤمن باللّه و اليوم الآخر أن يحضر معهم، و لا يعينهم على باطلهم. هذا مذهب مالك و الشافعى و أبى حنيفة و غيرهم من أئمة المسلمين. انتهى.

و لنعد إلى ما نحن بصدده. ثم لم نزل نصل المسير بالسرى، و نفترع الآكام و الذرى، حتى طوينا جملة تلك المراحل، و قطعنا الخصب منها و الماحل، فكان آخر منزل نزلناه، و أمطنا فيه شعث السفر و أزلناه: قصرا لبعض خدام مولانا السلطان، يشتمل على بستان يملأ العين قرّة و يسلى عن الأوطان. مستحكم الأركان و القواعد، قد استدار به نهر استدارة القلب بالساعد، يختال من روضه فى حلّة مفوّفة بالأزهار، مطرّزة بالجداول و الأنهار. فبتنا به ليلة نراقب فيها تشمير الليل ذيله، فلما أسفر الفجر عن صبح يوم الجمعة المبارك بقدرة اللّه تعالى و تبارك، لثمان بقين من شهر ربيع الأول

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۷۵

قضى اللّه بانقضاء مدة هذا السفر المطوّل، فسرنا و قد استقبلتنا المواكب ما بين راجل و راكب حتى وافينا قلعة (كلكنده) نصر اللّه صاحبها و جنده، و هى دار الملك الخطير، و مقرّ المنبر و السرير، و غاية الجهة التى قصدناها، و نهايتها التى أردناها فوردناها، فكانت محطّ رحالنا و إليها مطارح آمالنا.

و اجتمعنا بالوالد فى ذلك اليوم اجتماعا لم يخطر ببال فى يقظة و لا نوم، فأقرّ اللّه به العين، و أراح من مشاق السفر و متاعب البين، و بها ألقينا عصا الترحال، و الحمد للّه على كلّ حال.

و من الغريب أن بعض الفضلاء الذين بحضرة الوالد أرّخ اجتماعنا هذا بقوله (تمّ سرور اللّقاء) فكان واللّه كذلك فأنا لم نر بعد ذلك اليوم يوم سرور خاليا من بواعث الهموم و الشرور، بل لم تنتج الأعمال إلّا خلاف مطمح الآمال، و آلت الحال إلى قول من قال:

يا ضيعة الأمل الذى وجّهتهطمعا إلى الأقوام بل يا ضيعتى

و سرى السّفائن ينثنى بصدورهاموج كأسنمة الجمال الجلّة

يا دهر حسبك قد أصبت مقاتلىما زلت تطلب بالمقادر غرّتى

مالى أحيل على سواك بما جنىقدر على قدر و أنت بليّتى

هذا و إنّما أعجلنا هذا الكلام فى هذا المقام ليستدل على الآخر بالأول، و يستغنى بالمختصر عن المطوّل، فاللّبيب تكفيه الإشارة، و الغبى لا يفهم بصريح العبارة، على أنى أقول بعد هذا المنقول:

و ثمّ أمور ليس يمكن كشفهاشكايتها عزّت فواجبها الكتم

و قد أسلفت فى الديباجة ما قضيت به الحاجة، فحبس العنان عن هذا المدى، أولى عند أولى الهدى. فطوبى لمن عقل لسانه و كفّه، و

أطلق بـالخير بنـانه و كفّه، فمن فرّط فى التحفّـظ أسف على مـا فرط منه من التلفّظ. عصـمنا اللّه بالمراقبـة لصون اللسان عما يـدنى من الإساءة و ينئى عن الإحسان، فإنه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۷۶

السميع البصير و إليه المصير.

و هذه نبذة من شعر الوالد الأعظم تزهى زهوّ الدر المنظّم. قال دام مجده فى الحماسة :

إلى كم تقاضانى الظّبا و هى ضاميهو تشكو العوالى جوعها و هى طاويه

و تشجى الجياد الصّافنات صهيلهامتيّم وقعات على الدّم طافيه

فمن مبلغ عنّى نزارا و يعرباأولئك قوم أرتجيهم لما بيه

حماة كماة قادة الخيل فى الوغىضراغم يوم الرّوع تلقاك ضاريه

بها ليل فى البأساء يوم تناضلإذا ما التقى الجيشان فالعار آبيه

ثيابهم من نسج داود سبّغاو أوجههم تحكى بدورا بداجيه

سموا لدراك المجد و الثأر و العلىو روّوا قناهم من دما كلّ طاغيه

و ساروا على متن الخيول و سوّروابذى شطب عضب و سمراء عاليه

علاء لهم لم يبرحوا فى حفاظهمدى الدّهر و الأزمان عنه محاميه

فهم سادة الأقوام شرقا و مغرباو برّا و بحرا و القروم المباهيه

فلا غرو إن كان النبىّ محمّدإليهم لينمى فى جراثيم ساميه

به كسروا كسرى و فلّوا جموعهلكثرتها فى العدّ لم تدر ما هيه

و نافوا على الأطواد عزّا و رفعةو زادوا على الآساد بأسا و داهيه

بلاغا صريحا واضحا كاشفا لهقناع المحيّا فليلبّين داعيه

و إيّاهم و الرّيث عن نصر خدنهمو لا يأمنوا الدنيا فليست بصافيه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۷۷ و قل لهم يسرون فوق جيادهمخفايا كما تمشى مع السّقم عافيه

و قال :

نصل الهوى من قلب ذى الوجدو سلا المتيّم عن لقا هند

و عدت عن الآرام نيّتهو غدت غوايته إلى رشد

و تبدّل التقوى عن الأهوالرجا ثواب اللّه ذى المجد

و نضا الصّبا عنه غوايتهفاستقبل الأيّام بالزّهد

فتراه لا يصبو إلى دعدكلّا و لا منها إلى وعد

لكن ثنى نفسا مولّهةعن كلّ أمر مهلك مرد

أضنته ذكرى أزمن سلفتبالجزع أو بالبان من نجد

إذ كان فيها جمع اخوتهدهرا و لمّا يرم بالبعد

اخوان صدق حائزى كرمأهل الفواضل منجع الوفد

من كلّ غطريف تراه إذاحمى الوغى كالخادر الورد

حاوى المعالى سيّد فطنطبّ بهتك الجوشن السّرد

و عقيد كلّ كتيبة طرقت‌ليلا و فارس خيلها الجرد

و مغيرها وقت الضّحى أمماتنبو عن التّعداد و الحدّ

خفّاق ألوية على الأعداحمّال كلّ ملمّة تردى

صبح الجبين تراه ذا بهرتحت التّريكة نيّر يهدى

كم من يد بيضاء قلّدهاجيد الرّجال بنعمة تلد

و عفا عن الذّنب القطيع و كم‌أعطى عطا يربو على العدّ

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۷۸ حلو الجنى مرّ مذاقتهيوم الوغى للفارس الصّلد

ما زال صفوا ورده عسلاللوفد إن جاؤا بلا وعد

أهفو إلى مرآه أنّ به‌نيل المنى و منابت السّعد

و عوارفا و معارفا عرفت‌أبد الدّهور و غاية القصد

لهفى على وقت به حسن‌أيّامه أعياده عندى

فى كلّ حين لى بعقوتهأنس أنيق زاهر الخدّ

حيث الصّبا عقّت تمائمهعنّى و أصحابى أولو ودّى

لم ألق غير ذوى الصّفا أحدافكأنّنى فى جنّة الخلد

و أنشدنى دام مجده لنفسه إجازة فى المحبرة:

محبرة الحبر الّذى من يردبحاره ينهل بماء الحياه

بألسن الأقلام تتلو لنامن داؤه الجهل فإنّى دواه

و لبعضهم فى المعنى:

هذى دواة للسّخا و العطاتقّنها المجد بماء الحياه

قد فتحت فاها و قالت لنامن مسّه الفقر فإنى دواه

و أنشدنى الوالد لنفسه و هو ذو قافيتين:

طابة طابت بشرب الظّبى [زاهى الخدّ] معسول الشّفاه (اللّمى)

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۷۹

يا له من منهل عذب يزيل الكرب بل يروى الظّماه (الظّما)

و أنشدنى لنفسه أيضا:

تراءى كظبى خائف من حبائل‌يشير بطرف ناعس منه فاتر

و قد ملئت عيناه من سحب جفنه‌كنرجس روض جاده و بل ماطر

و كتب بهما إلى مولانا و شيخنا محمد الشامى مع رقعة صورتها:

يا مولانا عمّر اللّه بالفضل زمانك، و أنار فى العالم برهانك. سمحت للعبد قريحته فى ريم هذه صفته بهذين البيتين، فإن رأى المولى أن يجيزهما و يجيرهما من البخس، فهو المأمول من خصائل تلك النفس، و إن رآهما من الغث فليدعهما كأمس، و لعل الاجتماع بكم فى اليوم هذا بعد الظهر قبل العصر لنحثّ كؤوس المحادثة ما راق بعد العصر. و المملوك كان على جناح ركوب، بيد أنه كتب هذه البطاقة بسرعة و أرسلها إلى سوق أدبكم العامرة التى ما برح إليها كلّ خير مجلوب.

فأسبل السّتر صفحا إن بدا خلل‌تهتك به ستر أعداء و حسّاد

فكتب مولانا الشيخ بهذين البيتين بديهة، فعين اللّه على تلك الفطرة النبيهة:

و لربّ ملتف بأجياد المهانحوى و أيدى العيس تنفث سمّها

لم يبك من ألم الفراق و إنّمايسقى سيوف لحاظه ليسمّها

ثم نظم معنى بيتى الوالد فقال:

و لقد يشير إلىّ عن حدق المهاو الرّعب يخفق فى حشاه الضّامر

أسيان يفحص فى الحبال كأنّهظبى تخبّط فى حبالة جازر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۸۰ غشّت نواظره الدّموع كأنّهاماء ترقرق فى متون بواتر

رقّت شمائله ورقّ أديمهفتكاد تشربه عيون النّاظر

و قال الشيخ أحمد الجوهرى (*) معارضا:

و ظبى غرير بالدّلال محجّبيرى أنّ فرض العين ستر المحاجر

رمانى بطرف أسبل الدّمع دونهلئلّا أرى عينيه من دون ساتر

و قلت أنا فى سنة ثمان و ستين و هو أوّل شعرى:

ألا ربّ ظبى كالهلال جبينهرمانى بسهم من جفون فواتر

يشير بطرف و هو يرتاع خيفةكما ارتاع ظبى خوف كفّة جازر

و عيناه مملوءان دمعا كنرجس‌عليه سقيط الطلّ ليس بقاطر

و مما أنشدنيه الوالد لغيره، قول القاضى تاج الدين المالكى (*) و هو المبتكر لهذا المعنى:

بدا البرقع الشّرقى كالشّفق الذى‌على فرقه لاح الهلال بلا فرق

و أبدى عجيبا فى عجيب لأنّهأرانا هلال الأفق يبدو من الشّرقى

و قال القاضى أحمد بن عيسى المرشدى (*) معارضا:

و خود كبدر التمّ فى جنح مصون‌حماها عن الأبصار برقعها الشّرقى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۸۱ سوى طرّة مثل الهلال بدت لناعلى شفق و الفرق كالفجر فى الأفق

فقلت هلال لاح و الفجر طالع‌من الأفق أم لاح الهلال من الشّرق

و قوله أيضا فى المعنى:

بالبرقع الشّرقى تحت‌المصون الباهى الجمال

أبدت لنا شفقا و ليلالاح بينهما هلال

و نظم المعنى الشيخ شرف الدين العصامى (*) فقال مع زيادة وجه آخر فى التورية:

و خود من الأعراب لمّا تلثّمت‌ببرقعها الشّرقىّ فى معشر العشق

و شرّق خدّيها الحياء بحمرةأرتنا هلال الأفق يبدو من الشرق

و للنظر فى هاتين البيتين مجال.

و أنشدنى الوالد للقاضى تاج الدين المذكور فيما يكتب على هياكل الصدور:

غنيت بحلية حسنهاعن لبس أصناف الحلى

و بدت بهيكلها البديع‌تقول شاهد و اجتل

تجد المحاسن كلّهاقد جمّعت فى هيكلى

و قد زاحمه على سبكه هذا جماعة من معاصريه، منهم السيد أحمد بن مسعود بن حسن ابن أبى نمى بن بركات فقال:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۸۲ للّه ظبى سربه‌يزهو به فى المحفل

قنص الأسود بقالب‌قيد الأوابد هيكل

و له الجوار المنشئات‌جوى الحشاشة للخلى

من كلّ رؤد لحظها‌يزرى بحدّ المنصل

مشتاقها من ثغرها‌و أثيثها فى مشكل

ما قال فى ظلمائها‌يا أيّها اللّيل انجل

فاق الغوانى حاليات‌عاطلا فى هيكل

و غدا ينصّ به فأزرى‌الحلى بالنّصّ الجلى

و منهم القاضى أحمد بن عيسى قال و أجاد :

أنا ربّة الحسن الجلى‌لمؤمّلى المتأمّل

صدرى و وجهى منية‌للمجتنى و المجتلى

فالحظ بديع محاسنى‌من تحت أنواع الحلى

تجد المحاسن و الحلىّ (م)جمالها من هيكلى

و منهم القاضى شرف الدين بن السيد عمر الحسينى المالكى الخلوتى القاضى بمكة المشرفة قال:

أفدى كعوبا ذات حسن ناهداقد صاغها البارى بأجمل هيكل

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۸۳ خطرت بهيكل قدّها و بهيكل‌فى جيدها الباهى السّنى المتهلّل

بين الغوانى المبدعات بحسنها‌و جمالها مهدى الجمالة للحلى

و تقول عجبا بينهن ورقة‌هل هيكل فى الحسن يحكى هيكلى

و أنشد الوالد لنفسه فى المعنى :

خود جلا الأنوار نور جبينها‌و الفرع منها كالبهيم الأليل

تزهو بجيد الرّيم إلّا أنّه‌هاد إلى الوجه المنير الأجمل

قالت لصبّ قد تزايد وجده‌من صدّها بتعزّز و تدلّل

أنا نزهة الأبصار ذاتا فاجتل‌منّى محاسن قد حواها هيكلى

و له أيضا فى المعنى:

خود جلالى وجهها‌بدرا منيرا معتلى

قالت لمدنف هجرها‌بتعزّز و تدلّل

أنا نزهة الألباب ذاتا‌و البها بى يعتلى

و محاسن الدّنيا جميعا‌قد حواها هيكلى

و أنشدنى لكثير عزّة :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۸۴ أقول لها عزيز مطلت دينى‌و شرّ الغانيات ذوو المطال

فقالت ويح غيرك كيف أقضى‌غريما ما ذهبت له بمال

و من أملائه زيد فى علائه، و عزاه للشريف أبى نمى بن بركات :

بشّرتنى بغلام‌حسن الوجه وسيم

قلت عزّى لا تهنّى‌ولد الشّيخ يتيم

و منه و هو لجدى الشيخ محمد المنوفى :

عتبت على دهرى بأفعاله الّتى‌أضاق بها صدرى و أضنى بها جسمى

فقال ألم تعلم بأنّ حوادثى‌إذا أشكلت ردّت لمن كان ذا علم

و منه و هو لأبى الحسين الجزّار (*):

أحمّل نفسى كلّ يوم و ليلةهموما على من لا أفوز بخيره

كما سوّد القصّار فى الشّمس وجههليجهد فى تبييض ثوب لغيره

و منه و هو من قصيدة لعربىّ من شهران :

و واللّه ما الثّوب الذى متقلّلعلى شرف ترمى الذّوارى بجانبه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۸۵ بأكثر من قلبى خفوقا و حيّناجميع و خوفى من تنائى عواقبه

قلت: ولى قريب من هذا المعنى من قصيدة امتدحت بها الوالد:

لقد كنت أبكى قبل أن أعرف النّوىمخافة بين و الخطوب هجود

فكيف و قد شطّ المزار و أصبحت‌أيادى النّوى تحدو بنا و تقود

و فى يوم الجمعة لليلة بقيت من شهر ربيع الأول استدعانا مولانا السلطان خلّد اللّه ملكه، و أجرى فى بحار النصر فلكه، للمثول بحضرته الشريفة، و الرقى إلى سدّته المنيفة (فاكتحلنا بتلك الغرّة الزهراء، و استضأنا بتلك الزهرة الغراء) و رأينا من ذلك الأفق المنير، و التاج و السرير نعيما و ملكا كبيرا، و خيرا و خيرا، و فضلا كثيرا.

رأيت امرءا ملء عين الزّمانيعلو سحابا و يرسو ثبيرا

مليكا شآى الكلّ لمّا بداندا أوّلا و عتادا أخيرا

إذا ما حللت حمى جودهرأيت نعيما و ملكا كبيرا

و هذا مكان درر من قصيدة الوالد التى أحكم نظامها، و أودعها من صفات هذا الملك الأعظم ما يزين به انتظامها حيث يقول :

(بكلّ تداوينا فلم يشف ما بناعلى أن قرب الدار خير من البعد

بلى ليس بعد الدّار يا صاح ضائراإذا كان عبد اللّه منتجع الوفد

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۸۶ شهنشاه شاه قطب شاه مليكناو والى ولاة الأمر مشرعة الرّفد

مليك سما فرع السّماكين راقياإلى رتبة علياء ذات علا نهد

مليك لدى الهيجاء تهنو لبأسهأسود الشرى هيهات ما صولة الأسد

مليك إذا ضاق الزمان توسّعتخلائقه الحسنى فجاءت على القصد

يسوم جميع العالمين نوالهفيوسعهم جودا ينوف على العدّ

تظلّ ملوك الأرض خاضعة لهفجبّارهم عند الملاقاة كالوغد

له هيبة قد ألبس اللّه وجههبهاء و نورا شاهدين على السّعد

هو الملك المنصور ذو الفخر و العلىو ربّ النّدى و الأمر و الحلّ و العقد

و قطب ملوك الأرض دام علاؤهو دمنا زمانا راتعى عيشه الرّغد

فأكرم بظلّ اللّه فى كلّ أرضهو نجل ملوك منتمين إلى جدّ

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۸۷

ذكر نسب المولى المذكور

هو الملك الأعظم و السلطان المعظّم عبد اللّه بن محمد قطب شاه بن محمد أمين بن ابراهيم قطب شاه بن سلطان قلى المشهور ببر املك قطب الملك، و هو أوّل من استبدّ بالملك و احتوى على الصقع الدكنى من الديار الهندية و ذلك سنة اثنتى عشرة و تسعمائة . و كان ملكا منصورا مظفرا، افتتح بسيفه سبعين قلعة، و كان يبارز بنفسه، فأصابته فى وجهه جراحات شانته، فكان يستر وجهه لذلك. توفى سنة خمسين و تسعمائة شهيدا بمواطاة ابن له عن تسعين سنة. و هو ابن أويس بن الأمير بيرقلى بن الأمير قرا يوسف بن قرا محمد- و هو الذى افتتح العراقين، و أذربيجان و احتوى على ذلك الصقع و كسر الأمير أبا بكر بن الأمير تيمور فى سنة تسع و ثمانمائة- ابن قرا تورسن بن قرا منصور.

و لا حاجة بنا إلى التطويل بذكر النسب كلّه لاستعجام الأسماء و افتقارها إلى الضبط. و هم من ملوك الترك التراكمة، و يتّصل نسبهم ببافث بن نوح عليه السلام. و كان أوّل من أسلم منهم آغز خان بن قراخان و الملك فيهم منه إلى يافث بن نوح موروث بطنا عن بطن.

ملوك هم الأنياب للملك و السّوىإذا نسبوا كانوا الزّوائد أو عدّوا

تولّوا فأفضى ملكهم لمحجّبتصادم تيجان الملوك إذا يبدوا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۸۸ تأخّر عصرا فاستزاد من العلى كما زاد بالتأخير ما ترقم الهند

أدام اللّه أيام ولايته الشريفة، و خلّد أعوام عدالته المنيفة، و لا زال النصر لافّا بلوائه، و الظفر حافّا بفنائه، ما اتّصلت عين بنظر، و أذن بخبر.

من قال آمين أبقى اللّه مهجتهفإنّ هذا دعاء يشمل البشرا

و كان جلوسه الشريف على سرير الملك المنيف يوم الخميس لأربع عشرة خلون من جمادى الأولى سنة خمس و ثلاثين و ألف، و له من العمر ثلاث عشرة سنة، و ذلك بعد وفاة والده المرحوم فى السنة المذكورة.

لقد خطبت شمس الخلافة بدرهافقارنها فى الأوج الطّالع السّعد

و أصبح عطلا جيد من رام عقدهاسواه و أضحى يستضىء به العقد

تفرّد طود الملك بالمجد جامعامزاياه فهو الجامع العلم الفرد

مع اللّه الممالك فى سلك ملكه، و جعل أقطار الأرض جارية فى حوزته و ملكه و أيّد دولته المشرقة الليالى و الأيام إلى قيام الساعة، و ساعة القيام.

و اجتمعت فى حضرة الوالد بجماعة من الأعيان، و رؤساء العصر و الأوان. ممن حلّى بهم الدهر جيده، و ملكهم الفضل طارفه و تليده، فاكتحل برؤياهم جفنى القريح، و هبّت بعرف ريّاهم لكتابى هذا أطيب ريح.

فمنهم العلامة الوحيد، القدوة الفهّامة الفريد، أعلم العلماء الأعلام، و عمدة العظماء الفخام، إمام المنظوم و المنثور، حامل لواء علميهما المأثور، الأستاذ الأعظم و الملاذ الأنبل الأفخم، مولانا الشيخ محمد بن على بن محمود بن يوسف بن ابراهيم الشامى لا زال فى أعلى المراتب سامى. و هو الإمام الذى ألقت إليه العلوم مقالدها، و قلّدته الفهوم طارفها و تالدها، فأضحت بسنى أنواره ساطعة، و بشبا أفكاره قاطعة، فهو يتحلّى مع فضله الوافر و صبحه السافر، بأدب يعقد عليه الخنصر على ما يكشف من أبهامه، و يقرطس شواكل الغرض بصوائب سهامه. و أقلّ ما يعدّ من مأثوره جمعه بين منظوم الأدب و منثوره، و وصفه بأنّه إذا نثر أخجل العقود فى النحور، و إذا نظم استنزل الدرارى من الأفلاك و استخرج الدرر من البحور، و ما وراء ذلك من

رحلة ابن معصوم المدنی، ص: ۱۸۹

أفانين العلوم، فهو لدى كلّ علم من البديهى المعلوم، و هو الذى أوضح لى من الشعر طرائقه، و عرّفنى (سائغه و رائقه) ، و عنه أخذت علمى النحو و البيـان، و بعض أبواب الفقه و الحسـاب، فعـادت علىّ بركات أنفاسه، و لاحت لى لوامع نبراسه، و حقّ لى أن أنشـد بين يدى هذا المرشد:

و لو لم ألق غيرك فى اغترابىلكان لقاؤك الخطر الجزيلا رحلة ابن معصوم المدنى ؛ ص۱۸۹

قد أثبت من غرر كلامه و درر نظامه ما يستنشق له ريّا، و يباهى به عقد الثريّا. فمن ذلك ما أنشدنيه شفاها و هو قوله:

رفّت شمائله فقلت نسيمو زكت خلائقه فقلت شميم

قصر الكلام على الملام و إنّماللّحظ فى وجناته تكليم

شرقت معاطفه بأفواه الصّباو جرى عليه بضاضة و نعيم

قد كاد تشربه العيون لطافةلكنّ سيف لحاظه مسموم

و من بديع شعره، و سحر بيانه أو بيان سحره:

إذا أبصرت شخصك قلت بدريلوح و أنت إنسان العيون

جرى ماء الحياة بفيك حتّىأمنت عليك من ريب المنون

و قوله من قصيدة فريدة:

طارت بلبّك حيث طار بها الهوىو رقاء قطّع نوحها الأكبادا

غنّتك أحوج ما تكون إلى البكاهل تحسنين لواجد إسعادا

و مزيّف للحبّ عندى قال لىو العيس تقدح للفراق زنادا

ما بال قلبك لا يقرّ قرارهأحلاله طعم الهوى فازدادا

أمسك فؤادك إن مررت على اللّوىفأجبت هل أبقى الفراق فؤادا

خفّض عليك من الملام فإنّنىعوّدت قلبى حبّهم فاعتادا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۹۰

و قوله من أخرى :

و قد جعلت نفسى تحنّ إلى الهوىحلا فيه عيش من بثينة أو مرّا

و أرسلت قلبى نحو تيماء رائدااإلى الخفرات البيض و الشّدن العفرا

تعرّف منها كلّ لمساء خاذلهى الرّيم لولا أنّ فى طرفها فترا

من الظّبيات الرّؤد لو أنّ حسنهايكلّمها أبدت على حسنها كبرا

و آخر إن عرّفته الشّوق راعنىبصدّ كأنّى قد أبنت له وترا

أناشد فيه البدر و البدر غائرو أسأل عنه الرّيم و هو به مغرى

و أسترشد الشّعرى العبور و قلّماتبين لنا عن ليل طرّته الشّعرى

فما ركب البيداء لو لم يكن رشاو لا صدع الدّيجور لو لم يكن بدرا

لحاظ كأنّ السّحر فيها علامةتعلّم هاروت الكهانة و السّحرا

و قدّ هو الغصن الرّطيب كأنّماكسته تلابيب الصّبا ورقا نضرا

رتقت على الواشين فيه مسامعاطريق الرّدى منها إلى كبدى و عرا

أعاذلتى- و اللوم لؤم- ألم تریحشاشتى الحرّى و مقلتى العبرى

و أذنى لا تصغى إلى متكلّم كأنّ بها عن كلّ لائمة وقرا

بفيك الثّرى ما أنت و النّصح إنّمارأيت بعينيك الخيانة و الغدرا

و ما للصّبا- يا ويح نفسى من الصّبا-تبيت تناجى طول ليلتها البدرا

تطارحه- و القول حقّ و باطل-أحاديث لا تبقى لمستودع سرّا

و تلقى على النّمام فصل ردائهافيعرف للأشواق فى طيّها نشرا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۹۱ يعانقها خوف النّوى ثمّ تنثنىتمزّق من غيظ على قدك الأزرا

ألمّا ترى بأن النّقا كيف هذهتحيل بعطفيها حنوّا على الأخرى

و كيف و شى غصن إلى غصن هوىو من رشأ يوحى إلى رشأ ذكرا

هما عذلانا فى الهوى غير أنّنىعذؤت الصّبا لو تقبلين لها عذرا

هبيها- فدتك النّفس- راحت تسرّهإليها فقد أبدته و هى به سكرى

على أنّها لو شايعت كثب النّقاو شيح الخزامى إنّما حملت عطرا

و من نظمه الذى هو أبهى من نظم العقود، و أشهى من سلافة العنقود قوله:

آه يا غصن النّقا ما أميلكجلّ يا غصن النّقا من عدّلك

قد قضى لى بتباريح الجوىمن قضى بالحبّ لى و الحسن لك

أكل الحبّ فؤادى بعد مالاك منّى ما تمنّى و علك

هلك الشامىّ وجدا و أسىما يبالى يا حياتى لو هلك

قلّ لى فيك غراما و جوىقلّل اللّه عذولا قلّلك

حكم اللّه لفؤادىّ علىنسخة الشّيب و تسويد الحلك

أتراهم قد دروا أىّ دمهرق الواشى على تلك الفلك

يا غراب البين لا كنت و لاكان واش دبّ فيهم و سلك

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۹۲ أخذوا منّا و أعطوا ما اشتهواما كذا يحكم فينا من ملك

جرت فى الحكم على أهل الهوىلا تخف فالأمر للّه و لك

ليت شعرى أمليك فى الورىأنت يا إنسان عينى أم ملك

حكم الدّهر علينا بالنّوىهكذا تفعل أدوار الفلك

(فلقد راق لى هذا النظم فنظمت عليه و قلت مستعينا باللّه) :

آه يا حبل النّوى ما أطولكقطع اللّه زمانا وصلك

حكمت بالبعد أسباب النّوىو قضى فينا بما شاء الفلك

ذبت يا قلب غليلا بعدهمو بهم ما كان أروى غللك

كم و كم من أمل نلت بهمحيث لم تقض اللّيالى أملك

ليت دهرا كان أغراك هوىبهم قد كان يوما عذلك

أيّها النّائى على وجد بنابعد ما حاز فؤادى و ملك

أعجل اللّه زمانا أعجلكأترى نا ضرّه لو أمهلك

ذبت واللّه غراما و أسىمن فراق شاك قلبى و سلك

هل ترى بعد التّنائى و النّوىرجعة يحيا بها من قد هلك

أن تعد يوما على حكم الهوىتجد القلب كما قد كان لك

و أنشدته يوما و قد أنشدنى شيئا من شعره.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۹۳ ما نفشة السّحر إلّا شعرك السّامىيا من علا كلّ نشّار و نظّام

لأنت أفصح من لاقيت من يمنو من شآم على الاطلاق يا شامى

فأجاب بديهة:

رفعت يا ابن نظام الدّين أعلامىنوّهت باسمى و إن كنّيت بالشّامى

لم ألتفت فى حماكم بين أقوامىإلّا رأيت الغنى خلفى و قدّامى

ثم كتب إلىّ بهذه الأبيات المعمورة:

خبّرتنا الحظوظ أن سوف يحيابعلىّ ميت النّوال و يحيى

فهما ما هما من المجد غصنادوحة قد زكت نماء وفيّا

ما بدا لى أبوهما النّدب إلّاو رأيت الغنى يلوح عليّا

بهم يستقى الغمام و يمرىدرّه الجود لا بنوء الثريّا

ما رجوت النّوال إلّا أشارتراحتا أحمد إلىّ أليّا

علّمتنى هبات أحمد كيف الجودحتى وهبت ما فى يديّا

عفت حتى المؤآة رغبة ألّاتبصر العين غير مرآه حيّا

حبّذا أنتم ملوكا إذا هبّتشمال و قام سوق الحميّا

و من بديع مديحه قوله فى الوالد من قصيدة:

و إنّ فى الشّعرات البيض لو علموانورا لعينى و نوّارا على عودى

بيض و سود إذا ما استجمعا حسناحسن البياض على أحداقها السّود

كم للزمان و لا أخشى بوائقهمن ضنّة و لعين الملك من جود

عفّ الشبيّبة ميمون النّقيبة منصورالكتيبة مأمون المواعيد

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۹۴ أخلاق أحمد فى تقوى أبى حسنو حسن يوسف فى ملك ابن داود

لا يحسن الشعر إلّا فى مدائحهكالدرّ أحسن ما يبدو على الجيد

و مما أنشدنيه لغيره قول السيد أحمد الصفوى الدمشقى :

صه يا حمام فلست المشوقو لا بات حالك فيها كحالى

فما من تباكى كما من بكىو دمع الأسى غير دمع الدّلال

قلت: و هو من قول مهيار الديلمى :

أبكى و تبكى غير أنّ الأسىدموعه غير دموع الدّلال

و أنشدنى لصدقة الشامى:

فى خدّه عرق بداذا حمرة لصفائه

هذا يصدّق قولهمالماء لون إنائه

و أنشدنى للأمير الخطير، و الهمام الكبير الأمير منجك :

دنوّا فقد أوهى تجلّدى البعدو وصلا فقد أدمى جوانحى الصّدّ

أجنّ غراما فيك خيفة كاشحو من مدمعى و دق و من كبدى و قد

و بى فوق ما بالنّاس من لاعج الهوىو لكن أبى أن يجزع الأسد الورد

فيا من يبين الرّشد فيمن أحبّهمتى يلتقى الحبّ المبرّح و الرّشد

تلاعبت بالأشواق حتى لعبن بىو ما كنت أدرى أنّ هزل الهوى جدّ

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۹۵ بليت بقاس لا يرقّ فؤادهعلىّ و ها قد رقّ لى الحجر الصّلد

أعانى به ما يعجز الدّهر بعضهو أحمل ما قد كلّ عن حمله الجهد

و أدفع عنه النّفس و هى عصيّةو هل يمكن الظمآن عن مورد ردّ

إذا جئته يوما لبثّ شكيّةأروح بأشجان على مثلها أغدو

تهدّدنى من مقلتيه إذا رناقواضب مما يطبع اللّه لا الهند

حداد يلوح الموت فى صفحاتهامواض لها فى كلّ جارحة غمد

أشاق إذا ما عنّ فى القلب ذكرهأطرب ما بات اللّسان به يشدو

و منهم السيد الجليل، الأيّد المثيل ، المتفرع من دوحة الرسالة و النبوة، المترعرع من سرحة البسالة و الفتو، نور حدقة الفضل و السيادة نور حديقة المجد و السعادة، ذو الجلالة التى شاع صيتها فى الآفاق، والإبالة التى انعقد عليها الاجماع و الاتّفاق. السيد الشريف ، السند الحنيف: عمّار بن الملك الحى، و لقد كان يجمعنى و اياه مجلس والدى فنتلاقى ملاقاة الأجسام و الأرواح، و نتصافى مصافاة الماء و الراح، و هو كهل شبّت بالظرف شمائله، و زرّت على شخص العرف غلائله. يغدو و يروح بجسم كلّه روح.

و قد رأيت جماعة من أبناء جنسه فلم أر من يدانيه فى جوده و بأسه. أمّا جوده فضرّة البحار، و أمّا بأسه فأشهر من الشمس فى رائعة النهار، و ناهيك بمن تحدّر من سلالة أكابر، و رقاه أسرّة و منابر، و ربّما كانت تجمعنا حلبة أدهم و كميت، أو بيت شعر لم يتحكّم عليه لو، و لا ليت، فنتنقّل من متن جواد إلى شرح بيت، و لا أنسى قوله و قد سابقته قبل موته بأيّام قلائل غدت لفوته و لم

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۹۶

يدر أنّ المنايا تسابقه، و غمرها السابح لاحقه، تحته مهر كلف به كلف أبى محجن بالحميّا، أو ابن أبى ربيعة (*) بمحبوبته الثريّا. قريب الرياضة سريع الإفاضة، فقال لى و هو يركضه: إن هلك فمنك عوضه، فكان هو الهالك، و لو أمكن لكنت عوضه من المهالك. و له شعر يفعل بالألباب فعل السحر، أثبت منه أحلى من جنى النحل، و أجدى من ندى القطر فى البلد المحل. فمن ذلك قوله و هو ممّا كتبه إلى الوالد:

زرت خلّا صبيحة فحبانىبسؤال أشفى و أرغم شانى

قال لما نظرت نور محيّاهو نلت المنى و كلّ الأمانى

كيف أصبحت كيف أمسيت ممّاينبت الحبّ فى قلوب الغوانى

فتحرّجت أن أفوه بما قدكان منّى طبعا مدى الأزمان

يا أخا المجد و المكارم و الفضلو من لا أرى له اليوم ثانى

أدرك ادرك متيّما فى هواكمقبل تسطو به يد الحدثان

و ابق و اسلم منعّما فى سرورما تغنّت ورق على غصن بان

فأجابه الوالد بقصيدة طنانة مطلعها:

ليت شعرى متى يكون التدانىمن بلاد بها الحسان الغوانى

يقول فيها:

كلمات لكنّها كالدّرارىو سطور حوت بديع المعانى

قد أتت من أخ شقيق المعالىفائق الأصل غرّة فى الزّمان

صافى الودّ صافى القلب قرم كعبه قد علا على كيوان

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۹۷ ذاكرا فيها تزايد شوقو ولوعا به مدى الأزمان

ففهمت الذى نحاه و لكنليت شعرى يدرى بما قد دهانى

أنا قيس فى الحبّ بل هو دونىلا جميل حالى و لا نجل هانى

يا أخا العزم- قد سلمت- فوجدى

طافح زائد بغير توانفلحتفى أبصرت من قد رمانى

و عناء تصيّد الغزلانإن تشا شرح حال صبّ كئيب

فلقد قاله بديع البيان

(مرضى من مريضة الأجفانعلّلانى بذكرها علّلانى)

و كنت أول دخولى هذه البلاد كتبت إليه بقصيدة ضمّنتها التبرم من الاغتراب و البعاد، أقول فيها من المديح:

أرى فؤادى و إن ضاقت مسالكهبمدح نجل رسول اللّه جذلانا

عمّار أبنية المجد الذى رفعتآباؤه الغرّ من ناديه أركانا

السيّد الماجد النّدب الشّريف و منعلا على ذروة العلياء مذ كانا

فأجابنى بقصيدة أولها:

يا من تذكّر حلّانا و جيراناو صار يمسى سمير النّجم سهرانا

صاد إلى مورد قد كان يالفهعذب به يشتفى من كان و لهانا

له به مرتع طابت مواردهو اليوم بالهند يا للّه ما حانا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۹۸ يا ماجدا حاز سبقا فى القريض و فىنهج البلاغة حتى فاق أقرانا

أحسنت لا زلت فى أمن و فى دعةجزاك ربّك بالاحسان إحسانا

و حقّ جدّك أنّ العين فى غرقو القلب فى حرق وجدا لما آنا

عليك بالصّبر يا مولاى معتصماأنّ النّفيس غريب حيثما كانا

كذا اللّيالى عهدناها مبدّلةبالقرب بعدا و بعد الوصل هجرانا

فلا رأيت مدى الأيّام حادثةمن الزّمان و لا همّا و أحزانا

و منها:

قد ضاق صدرى بما أبديت من كمدمن لاعج البين ليت البين لا كانا

لكنّ لى أملا فى اللّه خالقناو حسن ظنّى متى ندعوه أولانا

أن يجمع الشّمل فى تلك البقاع و أنيروى غليل صد ما زال حرّانا

بحقّ آبائك الغرّ الكرام و منغدوا لنا عن جميع النّاس أعوانا

و من شعره قوله مذيّلا بيت أبى زمعة جدّ أمية بن أبى الصلت و مادحا الوالد:

(اشرب هنيئا عليك التّاج مرتفقافى رأس غمدان دارا منك محلالا)

تسعى إليك بها هيفاء غانيةميّاسة القدّ كحلا الطّرف مكسالا

إذا تثنّت كغصن البان من ترفو إن تجلّت كبدر زان تمثالا

كأنّها- و أدام اللّه بهجتها-تكوّنت فى محيّا دهرنا خالا

و كيف لا و هى أمست فيه ساحبةبخدمة السيّد المفضال أذيالا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۱۹۹ ذاك الذى جلّ عن تنويه تسميةشمس علت هل ترى للشمس أمثالا

الباسم الثغر و الأبطال عابسةو الباذل المال لم يتبعه أنكالا

عار من العار كاس من محامدهلا يعرف الخلف فى الأقوال إن قالا

إن قال أفحم ندب القوم مقولهأوصال أخجل ليث الغاب إن صالا

علا به النّسب الوضّاح منزلةعن أن يماثل إعظاما و إجلالا

خذها ربيبة فكر طالما حجبتلولا علاك و ودّ قطّ ما حالا

و اسمح بفضلك عن تقصير منشئهاو حسن بشرك لم يبرح لها فالا

ثم الصّلاة على أزكى الورى نسباو آله الغرّ تفصيلا و إجمالا

قلت: و لقد رأيت هذا المادح ساحبا أذيال العزّ و الجلال بحضرة ممدوحه هذا السيّد المفضال و قد أنزله بأعزّ مكان، و أحلّه محلّ ابن ذى يزن فى رأس غمدان. حتى وعده بوعد شام من و ميض بارقة السعد. فلم يلبث أن استوفى ملء مكياله، و أهابت به دواعى آجاله، فوافت المسكين منيّته قبل أن تقضى أمنيّته. و هكذا خلق الدهر العرام . و كم حسرات فى نفوس كرام.

و كانت وفاته يوم الجمعة لعشر بقين من شوال سنة تسع و ستين و ألف، روّح اللّه روحه، و نوّر برحمته ضريحه، و قلت أرثيه:

لنا كلّ يوم رنّة و عويلو خطب يكلّ الرأى و هو صقيل

بكيت لو أنّ الدّمع يرجع ميّتاو أعولت لو أجدى الحزين عويل

لحا اللّه دهرا لا تزال صروفهتطول علينا دائما و تعول

علام و فيما قد أصاب مقاتلىو غادرنى هامى الدّموع أعول

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۰۰ و حمّلنى خطبا تضاءلت دونهو ما أنا قدما للخطوب حمول

بموت كريم ماجد و ابن ماجدله العزّ دار و العلاء مفيل

فتى قد عنت يوم الهياج له القناو راح الحسام العضب و هو ذليل

بكاه القنا الخطّىّ علما بأنّه كسير و أنّ المشرفىّ كليل

فمن للعوالى بعد كفّيه و النّدىو من فى صفوف النّاكثين يجول

و من بعده للسّيف و الضيف و العلىو من بعده للمكرمات كفيل

ربيب علا شحّ الزّمان بمثلهو كلّ زمان بالكرام بخيل

و لما نعى النّاعى به ضاق بى الفضاو راخت دموعى الجاحدات تسيل

و هيهات أن تأتى النّساء بمثلهو يخلف عنه فى الأنام بديل

سأبكيك يا عمّار ما ناح طائرو ما ندبت بعد الرّحيل طلول

مصابى و إن طوّلته عنك قاصرو دمعى و إن أكثرت فيك قليل

سلكت و أسلكت الأسى فى حشاشتىممرّ سبيل ما سواه سبيل

لك اليوم فى قلبى مكان مودّةو دادك فيه ما حييت نزيل

فإن هاطلات السّحب شحّت بسقيهاسقاك من الجفن القريح هطول

عليك سلام اللّه منى تحيّةمدى الدّهر ما غال البريّة غول

و بيت أبى زمعة الذى ذيّله السيد المذكور و هو من قصيدة له يمدح بها معد يكرب بن سيف بن ذى يزن لما انتقذ ملك اليمن من الحبشة بالجيوش

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۰۱

التى بعثها معه كسرى، و جاءه الوفود من العرب تهنئه، و فيهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، و خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب، و أبو زمعة المذكور. فدخلوا عليه و هو فى أعلى قصره المعروف بغمدان بمدينة صنعاء، و هو مضمّخ بالعبير و سواد المسك يلوح فى مفرقه، و سيفه بين يديه، و على يمينه و يساره الملوك و أبناء الملوك، و أبناء المقاول . فتكلّمت الخطباء و نطقت الزعماء و قد تقدّمهم عبد المطلب بن هاشم فقال:

أن اللّه جلّ جلاله قد أحلّك أيّها الملك محلا رفيعا صعبا منيعا، شامخا باذخا، و أنبتك نباتا حسنا طابت أرومته، و عزّت جرثومته، و ثبت أصله و بسق فرعه فى أكرم معدن، و أطيب موطن فأنت- أبيت اللعن- رأس العرب و ربيعها الذى يخصب، و أنت أيّها الملك ذروة العرب التى إليها تنقاد، و عمودها الذى عليه العماد، و معقلها الذى تلجأ إليه العباد، سلفك خير سلف، و أنت لنا منهم خير خلف. فلن يخمل ذكر من أنت سلفه، و لن يهلك من أنت خلفه، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزأة. فقال له الملك: و أيّهم أنت أيّها المتكلّم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. قال: ادن، فدنا.

ثم أقبل عليه و على الوافدين فقال لهم: مرحبا و أهلا، و ناقة و رحلا، و مستناخا سهلا، و ملكا ربحلا، يعطى عطاء جزلا. قد سمع الملك مقالتكم، و عرف قرابتكم، و قبل وسيلتكم. فأنتم أهل الليل و أهل النهار، و لكم الكرامة ما أقمتم و الحباء إذا ظعنتم. ثم قام أبو زمعة جدّ أمية ابن أبى الصلت فأنشد :

ليطلب الوتر أمثال ابن ذى يزنريّم فى البحر للأعداء أحوالا

أتى هرقل و قد شالت نعامتهفلم يجد عنده النّصر الذى سالا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۰۲ ثم انتهى عند كسرى بعد تاسعةمن السّنين يهين النّفس و المالا

حتّى أتى ببنى الأحرار يحملهمتخالهم فوق متن الأرض أجبالا

من مثل كسرى شهنشاه الملوك له[أو مثل و هرز يوم الجيش إذ صالا]

للّه درّهم من فتية صبرما إن رأيت لهم فى النّاس أمثالا

بيض مرازبة غلب جحاجحةأسد تربّب فى الغيظات أشبالا

يرمون عن شدف كأنّها غبطفى زمخر يعجل المرميّ إعجالا

لا يضجرون و إن كلّت بوارقهمو لا ترى منهم فى الطّعن ميّالا

أرسلت أسدا على سود الكلاب فقدأمسى شريدهم فى الأرض ملّالا

فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقافى راس غمدان دارا منك محلالا

ثمّ اطّلى المسك إذ شالت نعامتهمو أسبل اليوم من برديك إسبالا

تلك المكارم لا قعبان من لبنشيبا بماء فعادا بعد أبوالا

و واقعة ابن ذى يزن و ذهابه إلى قيصر، و عوده إلى كسرى لمّا لم ينجده قيصر، و انجاد كسرى له، و محاربته للحبشة مشهورة و مسطورة فى كتب التواريخ، فمن أحبّ الوقوف عليها فليطلبها من مظانها.

و كنت كتبت إلى الوالد فى يوم بسط فيه بساط السرور، و نشرت به مطارف الأنس و الحبور و اكتنفه الانبساط و الهنا، و حفّ به البشر من هنا و هنا، (والدست مملوء بسنى طلعته) الشريفة، و الوقت مكلوء بعليا رتبته المنيفة،

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۰۳

و قد عمرت المغانى برنّات الأغانى:

(اشرب هنيئا عليك مرتفقا)بصوت شاد ودع شاذا و غمدانا

إن كان ألبست العليا ابن ذى يزن‌تاجا فقد ألبستك اليوم تيجانا

و على ذلك حكى أبو نصر بن خاقان فى كتابه قلائد العقيان فى ترجمة المعتمد بن عبّاد قال: أخبرنى ابن اقبال [الدولة] ابن مجاهد: أنه كان عنده فى يوم قد نشر من غيمة رداء ند، و اسكب من قطره ماء ورد، و أبدى من برقه لسان نار، و أظهر من قوس قزحه حنايا آس حفّت بنرجس و جلنار، و الروض قد نفث ريّاه، و بثّ الشكر لسقياه، فكتب إلى الطبيب الأديب [أبى] محمد المصرى:

أيّها الصّاحب الذى فارقت عينى‌و نفسى منه السّنى و السّناء

نحن فى المجلس الذى يهب الرّاحة‌و المسمع الغنى و الغناء

نتعاطى التى تنسّى من الرقّة‌و اللّذة الهوى و الهواء

فأته تلف راحة و محيّاقد أعدّا لك الحيا و الحياء

فوافاه و الفى مجلسه قد [اتلعت] ، أباريقه أجيادها، و أقامت فيه خيل السرور طرادها و أعطته الأمانى انطباعها و انقيادها، و أهدت الدنيا ليومه مواسمها و أعيادها، و خلعت عليه، [الشمس] شعاعها و نشرت فيه الحدائق أيناعها، فأديرت الراح، و تعوطيت الاقداح، و خامر النفوس الابتهاج و الارتياح. و أظهر المعتمد من ايناسه [ما استرقّ] به النفوس جلاسه. ثم

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۰۴

دعا بكبير فشرب به كالشمس عربت فى ثبير و عندما تناولها قام المصرى ينشد أبياتا تمثلها:

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفقابشاذ مهر ودع غمدان لليمن

فأنت أولى بتاج الملك تلبسه‌من هوذة بن علىّ و ابن ذى يزن

فطرب حتى زحف من مجلسه، و أسرف فى تأنّسه، و أمر فخلع عليه خلعة لا تصلح إلّا للخلفاء و أدناه حتى أجلسه مجلسه الأكفاء، و أمر له بدنانير عددا، و ملأ بالمواهب له يدا. انتهى.

قلت: و وقفت فى كتاب العقد لأحمد بن عبد ربه القرطبى أن البيتين الذين أنشدهما المصرى لشاعر من أهل الرى يقال له أبو زيد، دخل على عبد اللّه بن طاهر صاحب خراسان، فأنشده ايّاهما، فأمر له بعشرة آلاف درهم.

و من غريب ما يحكى عن عبد اللّه بن طاهر المذكور، ما ذكر أحمد بن اسرائيل السلمى قال: كنت مع طاهر بن الحسين بالرقة و أنا أحد قوّاده المختصّين به، فخرج علينا يوما و مشينا بين يديه، و هو يتمثّل هذه الأبيات :

عليكم بدارى فاهدموها فإنّهاتراث كريم ليس يخشى العواقبا

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه‌و أعرض عن ذكر العواقب جانبا

سأغسل عنّى العار بالسيف جالباعلىّ قضاء اللّه ما كان جالبا

قال: فدار حول الرافقة ثم رجع فجلس فنظر فى قصص و رقاع، و وقّع فيها بصلات أحصيت فكانت ألف ألف درهم. فلما فرغ نظر إلىّ

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۰۵

مستطعما الكلام فقلت: أصلح اللّه الأمير ما رأيت أنبل من هذا المجلس و أحسن، و دعوت له ثم قلت: لكنّه سرف، فقال: السرف من الشرف، فأردت أن أذكر الآية التى فيها «و الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا» فجاءت الآية الأخرى «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» ، فقال

لى: صدق اللّه العظيم و ما قلنا فكما قلنا. قال: ثم ضرب الدّهر ضربانه حتى اجتمعنا مع ابنه عبد اللّه فى ذلك القصر بعينه، فخرج علينا راكبا يتمثّل :

يا أيّها المتمنّى أن يكون فتىمثل ابن ليلى فقد خلّى لك السّبلا

انظر ثلاث خلال قد جمعن لهل سبّ من أحد أو سبّ أو بخلا

ثم دار حول الرافقة، ثم انصرف و جلس مجلسه و حضرناه، و أحضرت رقاع و قصص فجعل يوقع فيها و أنا أحصى حتى بلغت صلاته ألفى ألف و سبعمائة ألف، ثم التفت إلىّ مستطعما الكلام، فدعوت له و حسّنت أفعاله فقلت نعم أعزّ اللّه الأمير، السرف من الشرف، و كررتها. فقال: لم كرّرتها؟

فقلت أنى كنت أسقطت عند ذى اليمينين و قصصت عليه القصّة فما زال يضحك و يتعجب.

رجع: و منهم شيخ الإسلام، و علّامة العلماء و الأعلام، مالك زمام الفضائل، مرجع سائر الأفاضل، ذو الخصال التى تميّز بها عن الأعيان و الخلال التى عزت عن أن تعزّز بثان، رافع رايات الشريعة الشريفة، و حافظ آيات الذريعة المنيفة، من تطابقت على فضله الألفاظ و المعانى، و بلغت به

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۰۶

العلوم منتهى الآمال و غايات الأمانى: شيخنا و مولانا جعفر بن كمال الدين بن محمد بن سعيد بن ناصر بن جعفر بن على بن عبد اللّه بن سليمان بن عيسى البحرانى:

هو طود علم لا يبارى رفعةو محيط فضل لا يزال مديدا

علم إذا جارت صوائب غيرهأبدى لنا رأيا لديه سديدا

أحيا رباع المكرمات بفضلهمن بعد أن كانت مهامه بيدا

و إليه ألقى الفضل صعب زمامهو دنا له طوعا و كان بعيدا

كم حجّة فى الخلق شاد عمادهاكرها و أرضى العدل و التّوحيدا

لا- زالت كواكب هدايته تعمّ بضيائها الوجود و فرائد فوائده تخجل بنظامها جواهر العقود. و لعمرى أنّه الإمام الذى كشف قناع الفضائل و أوضح لها سبيلا، و الهمام الذى ارتشف من كؤوس المكارم كأسا مزاجها زنجبيلا.

قدم علينا الهند فى سنة تسع و ستين فعلقت منه يداى بالحبل المتين و قد أودعت من أنفاسه رحلتى ما أعده من نفائس نحلتى.

فمن ذلك ما كتبه لى بخطّه الشريف فى بعض تذاكرى، و قال لى لسان قلمه: كن شاكرى:

و قائلة سمعنا أنّ بكراله فضل على عمر و زيد

فقلت لها سماعك ليس شيئاو هذا مثل تسمع بالمعيدى

و لا يخفى أنّ هذا التعريض عقد للبّة القريض، و صريح عند أرباب البلاغة أنّه أعلى من التصريح. ثم هذا التلميح هو ما أجمع عليه أرباب البديع أنه المليح. و من نفائس حكمه قوله:

إن ترد إيلاد من زوّجتهفاتّخذ- وفّقت- زوجا صالحا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۰۷ إنّ ماء المزن عذب طعمهفإذا أسبخ أضحى مالحا

و من بدائع معانيه التى أعيت على المعنّى بالأدب و معانيه قوله فى تعزّ:

قرية من أعمال اليمن، و كان قد اجتمع بواليها السيد يحيى بن محمد بن القاسم الزيدى، فأحله بناديه، و أوجب عليه شكر أياديه:

تعزّ دار تناهت فى محاسنهافليس يوجد فى الدّنيا مضارعها

و حيث كان الفتى يحيى العزيز بهاعزّت فصارت على الماضى مضارعها

و كان قد عرض علىّ نسخة من اللّباب فأعدتها عليه و كتبت إليه:

يا أيّها المولى الذىأضحى بمجد مستطاب

ما كان ردّى للكتابو حقّ فضلك و الكتاب

إلّا لعلمك أنّهقشر و سمّى باللّباب

فاصفح بفضلك عن فتىقد ضلّ فى ليل الشّباب

و الشّيخ أولى من عفاعن ذنب غرّ فى التّصابى

فأجاب و أجاد:

يا ماجدا فى شعرهقد جاء بالعجب العجاب

أنّى لمثلى يستطيعلمثلكم ردّ الجواب

إذ أنتم بيت العلىبل أنتم لبّ اللّباب

و كلامكم خير الكلامو عندكم علم الكتاب

تبنى كما تبنى كهولكمأما جيد الشّباب

لكن تفضّلكم على أذلّشاردة الصّعاب

كم نعمة لكم و كممن منّة ملأت و طابى

أنا عاجز عن شكرهاحتّى اوسّد فى التّراب

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۰۸ و أنا المودّ على الحقيقةأينما اتّجهت ركابى

يحلو لدىّ على الهوىفيكم تجرّع كلّ صاب

و إذا رأيتم لى صلاحافهو لى عين الصّواب

هذا و إن رغمت بهآناف أقوام غضاب

دينى الذى منه افتخارىفى الورى و له انتسابى

و إليكم من مخلصأزكى دعاء مستجاب

و من فوائده: هذه المسائل الستيّة. قال: سئلت عن المسائل التى نظمها اليافعى محاجيا فأجبت عنها على تشعّب فنونها، و هى:

إلى أهل فقه و الفرائض و الأدبسؤال فقير مذنب يافعى النّسب

فأىّ مباح الفعل مضمون فاعلو محظور فعل ليس يضمن بالعطب

و أىّ معار ليس يغرم هالكاو عارية ليست تردّ لدى الطّلب

و مستعمل فى غير فرض و حكمةطهوريّة الماء الطّهور لها سلب

و للأمّ ربع المال فى أىّ صورةو لا عول و الباقى لزوج و خاب أب

و منصوب اعراب تراه معوّضابرفع و مرفوع تراه قد انتصب

و منصوبه حاكى لمجرور عكسهفهل من مجيب للجواب قد انتدب

يجب بجواب صائب فى جميعهاو مجموعها عشر بإحصاء من حسب

محاجاتها من قبل هذا نظمتهابروض علوم من رآها رأى العجب

يغرّد فى الأفنان زاهى فنونهاو يطرب قمريها لمن لا له طرب

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۰۹ إذا فى بحار خاض لجىّ بحرهالبيض المعانى ذو ارتياح لها خطب

فطالع لها إن كنت أهل فنونهالتعرف ما قولى إلى وصفها نسب

الجواب:

أما جواب الأولى: فالأكل من مال فى المخمصة قهرا.

و أما جواب الثانية: فقتل المشرك المستأمن فى دار السلام عمدا.

و أما جواب الثالثة: فالبالى بالاستعمال المأذون، حتى خرج من المالية بحيث يعدّ تالفا، أو هالكا، و عارية السفينة.

و أما جواب الرابعة: فالعارية الواجبة، كاستعارة الحبل ليتعلّق الغريق به قبل حصول الغرض منها، أو العارية الفاسدة، كعارية الصغير و المستعير:

و أما جواب الخامسة: فوضوء الصبى.

و أما جواب السادسة: فالمكاتبة إذا ماتت و قد أدّت نصف مكاتبتها، و تركت مالا و لها زوج، و أمّ، و أب ممنوع من الارث بإحدى الأسباب، و ليس لها ولد.

و أما جواب السابعة: فهو من وجوه: منها: (ما جاء على بعض اللغات فى رفع الفاعل و المفعول معا، و منها) ما جاء على نصب الفاعل و رفع المفعول عند ظهور المعنى، فى مثل قولهم: خرق الثوب المسمار، برفع الثوب و نصب المسمار، و قول الشاعر:

مثل القنافذ هدّاجون قد بلغتنجران أو بلغت سوآتهم هجر

بنصب السوآت و رفع هجر، و منها: مفعول أفعال القلوب إذا دخله الالغاء.

و أما جواب الثامنة: فإمّا على اللغة الأخرى فى نصب الفاعل و المفعول نحو قول الشاعر:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۱۰ قد سالم الحيّات منها القدماالافعوان و الشجاع الشجعما

و أما على المثال الثانى فى المسألة السابعة.

و أما جواب التاسعة: ففى جمع المؤنث السالم نحو: هندات، و مسلمات.

و أما جواب العاشرة: ففى جميع أقسام غير المنصرف. و الحمد للّه (وحده. انتهى بنصه و من خطه نقلت) .

و مما أنشدنى لغيره قول الشيخ عبد على بن ناصر الحويزى من مرثيه له فى السيد مبارك :

سفه توهّم ما أرقن من الظّبىأيدى القيون من الأشعّة جوهرا

هذا عمود الماء طلقا جارياوافاه ما صدع العلى فتكسّرا

و قد نظم هذا المعنى الوالد دام مجده فقال:

لا تحسبن سيف الشّريف المنتضىبدر العلى المسعود أسعد من مضى

هذا اللّعاب به جلاء من ذكاقين أجاد به المضارب و ارتضى

لكن لأمر هائل شنع جرىجرت المياه تكسّرا فهو الأضا

و نظمه شيخنا المذكور فقال:

لا تظنّ جوهر السّيف فيهمن جلا جاده القيون صقالا

بل لأمر من الأمور مهولصادف الماء فاستحال نمالا

و نظمته أنا فقلت:

لا تحسبنّ فرند صارمه بهوشيا أجادته القيون و جوهرا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۱۱ بل ذاك غيل الماء أزعجه الذىكسر النّدى فجرى به متكسّرا

ثم انتقلت إلى معنى آخر فى ظنى أنى لم أسبق إليه فقلت مادحا:

لا تحسبنّ فرند صارمه بهوشيا أجادته القيون فأبهرا

هذا ندى يمناه سال بمتنهفغدا يلوح بصفحتيه جوهرا

و أنشدنى للسيد الجليل ناصر بن سليمان القارونى :

أيا من يغالى فى القريب و يشترىقرابة إنسان بألف أباعد

تعال فإنّى- ليتنى لا قريب لى-أبيعك منهم كلّ ألف بواحد

و أنشدنى للسيد العلامة ماجد بن هاشم البحرانى (*) قدّس اللّه سرّه الشريف فى قارئ حسن الصوت:

و تال لآى الذكر قد وقفت بناتلاوته بين الضّلالة و الرّشد

بلفظ يسوق المتّقين إلى الخناو معنى يقود الفاسقين إلى الزّهد

و أنشدنى له أيضا، قال: و هو مما قاله بديهة، و ذلك أنّه كان يؤمّ و يخطب بشيراز فكان ينشىء لكل جمعة خطبة، فنسى ذات جمعة الخطبة التى أنشأها فارتجل خطبة و ختمها بهذه الأبيات:

ناشدتكك اللّه إلّا ما نظرت إلىصنيع ما ابتدأ البارى و ما ابتدعا

تجد صفيح سماء من زمرّدةخضراء فيها فريد الدّر قد رصعا

ترى الدّرارى يدانين الجنوح فمايجدن غبّ السّرى عيّا و لا ضلعا

و الأرض طاشت و لم تسكن فوقّرهابالراسيات التى من فوقها وضعا

فقرّ طائشها من بعدما امتنعاو انحطّ شامخها من بعدما ارتفعا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۱۲ و أرسل الغاديات المعصرات لهافقهقهت ملء فيها و اكتست خلعا

هذا و نفسك لو أمّ الخبير لهالا رتدّ عنها كليل الطّرف و ارتدعا

و ليس فى العالم العلوىّ من أثريحيّر اللّبّ إلّا فيك قد جمعا

و هذه الأبيات طبقة عالية لو كانت عن رويّة لكانت غاية، فكيف و هى عن بديهة و ارتجال. و مما أنشدنى قوله أيضا و هو معنى بديع:

من شيب رأسى بكت عينى و لا عجبتجرى العيون لوقع الثّلج فى القلل

و قوله (رحمه اللّه فى الجناس) :

و أحوى أطار القلب منّى و ما انطوىعليه جناحا مضرحىّ و لا نسر

عققنا العلى إن سامنا دلج السّرىإليه إلى أحقاف قاف و لا نسرى

و قوله فيه أيضا:

يعزّ جناب الظّبى إن قسته بهو ما هو منه فى سكون و لا نفر

فرتنا ظبى الأعداء إن قال قائلفروا كلّ جيب فى هواه و لا نفرى

و قوله فيه:

و ذى هيف ما الورد يوما ببالغمدى و جنتيه فى احمرار و لا نشر

برئنا من الاسلام إن سيم وصلهعلينا بما فوق النّفوس و لا نشرى

و قلت أنا فى هذه المادة:

و أهيف قد قدّ القلوب بقدّهو ما هو عن حدّى سنان و لا نصل

صلتنا لظى الهيجاء إن سامنا هوىعلى حبّه صلى النّفوس و لا نصلى

و قلت أيضا:

و مزر بضوء الشّمس لم تر وجههو لا ما ثلته فى علوّ و لا نبل

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۱۳ بلينا جوى إن رام منّا تدلّلابلاء نفوس فى هواه و لا نبلى

و ذكرت بقول السيد قدس سرّه (برئنا من الاسلام) حكاية لطيفة ذكرها الصلاح الصفدى فى شرح الرسالة قال: كان القاضى الخليجى عبد اللّه بن محمد ابن أخت علّويه المغنى تيّاها صلفا، تقلّد القضاء للأمين، و كان علّويه عدوّا له، فجرت له قضية فى بغداد فاستعفى من القضاء، و سأل أن يتولّى بعض الكور البعيدة، فولى قضاء دمشق، أو حمص. و لما تولى المأمون الخلافة غناه يوما علّويه بشعر الخليجى و هو:

برئت من الاسلام إن كان ذا الذىأتاك به الواشون عنّى كما قالوا

و لكنّهم لمّا رأوك غريّةبهجرى تواصوا بالنّميمة و احتالوا

فقد صرت أذنا للوشاة سميعةينالون من عرضى و لو شئت ما نالوا

فقال له المأمون من يقول هذا الشعر؟ قال: قاضى دمشق، فأمر المأمون بإحضاره، فأشخص و جلس المأمون للشرب، و أحضر علّويه، و دعا بالقاضى فقال له: أنشدنى الأبيات، فقال يا أمير المؤمنين هذه ابيات قلتها منذ أربعين سنة و أنا صبىّ. و الذى أكرمك بالخلافة و ورّثك ميراث النبوّة ما قلت شعرا منذ أكثر من عشرين سنة إلّا فى زهد أو عتاب صديق. فقال له: اجلس، فجلس، فناوله قدح نبيذ كان فى يده، فأرعد و بكى و أخذ القدح من يده و قال:

و اللّه يا أمير المؤمنين ما غيّرت الماء بشىء قط ممّا يختلف فى تحليله، فقال:

لعلك تريد نبيذ التمر، أو الزبيب فقال: و اللّه يا أمير المؤمنين لا أعرف شيئا من ذلك. فأخذ المأمون القدح من يده و قال: أما واللّه لو شربت شيئا من هذا لضربت عنقك، و لقد ظننت أنّك صادق فى قولك كلّه، و لكن لا يتولى لى القضاء رجل بدأ فى قوله بالبراءة من الاسلام، انصرف إلى منزلك، و أمر علّويه فغيّر هذه الكلمة و جعل مكانها (حرمت مكانى منك).

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۱۴

قال الصفدى: ما جرى للمأمون عفا اللّه عنه مع هذا القاضى المسكين على خلاف المعهود من حلمه و مكارم أخلاقه، و كان غير هذا الفعل أولى به و برئاسته، و لكن صان منصب القضاء و وفّره و أجلّه فعفا اللّه عنه. و أما القاضى الخليجى فقد اختلج فى خاطره من الوشاة ما أضرّ به عند محبوبته و عند الخليفة، و هذا من كهانة الشعر و مما يتّفق وقوعه للشاعر بعد مدّة مديدة. و أما علّويه فأعلّه اللّه و لا أعلى له كعبا، فقد أضرّ بحاله و عطّله من حلى القضاء.

انتهى .

قلت: (و ظنى أن السيد رحمه اللّه لو وقف على هذه الواقعة لم يفه بما قاله احتياطا، و لقد كان رحمه اللّه قاضيا فلا يأمن أن يرميه الدهر بمثلها) .

(و كانت وفاة السيد المذكور سنة ثمان و عشرين و ألف بشيراز، و كان أوحد أهل زمانه و أفضلهم على الاطلاق رحمه اللّه تعالى) .

و منهم الشيخ الكبير المستفز دون وقار فضله يلملم و ثبير، الجامع بين علمى الأديان و الأبدان، و المحرز من فنون العلم ما عزّ و دان، محيى مآثر الطبابة على نسق السلف الأول، و مذكى شهاب سمائها الخامد بما فسرّ منها

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۱۵

و أوّل، ذو الخطر السامى حسين بن شهاب الدين الشامى هو مع ما تحلّى به من الطبابة، له فى مراتب العلم أعظم بابه، فقد طوى أديمه من الفضل على أغزر ديمه، و أمّا الأدب فقد نسل إليه من كلّ حدب، و متى انفهقت لهاته بالشعر أرخص من عقود اللآلى كلّ غالى السعر. هذا إلى خلق فى المجون تستنير به اللّيالى الجون، جاعلا ذلك له شيمة، يستلّ لها من القلوب كلّ سخيمة.

قدم علينا الهند سنة أربع و سبعين فورد منهل أمله العذب المعين، و كان الوالد كثيرا ما يشتاق إلى لقيانه، لتحلى فرائده و عقيانه، و لما بلغ خبر وصوله قلت لشوقه إليه و ثنائه عليه:

جاء البشير مبشّرافأقرّ من بشراه عينى

وافى يقول أتى الحسينفقلت أهلا بالحسين

أهو الّذى حاز المكارمو العلى ملء اليدين

قالوا نعم هو ذاك منفاق الورى من غير مين

و قد أثبت له ما يستحلى جناه، و تستجلى حسناه، فمن ذلك قوله و هو من غرر القصائد التى امتدح بها الوالد :

تبدّت لنا و البدر للغرب جانحو كأس الكرى فى راحة الطّرف طافح

بحيث السّها ترنو بعين كليلةو إنسانها فى لجّة الجوّ سابح

و حيث النجوم الزاهرات كأنّماتوقّد منها فى الظّلام مصابح

كأنّ على الآفاق روض بنفسجو هنّ الظباء العيس فيها سوانح

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۱۶ فلمّا تجلّى نورها نسخ الدّجىفلا أعزل إلّا غدا و هو رامح

لك اللّه شمسا يكسف الشمس نورهاو بدرا لنور البدر فى اليمّ فاضح

كأنّ نجوم اللّيل ورق حمائمو فى كلّ جزء من محيّاك جارح

خليلىّ عوجابى على أيمن الحمىلعلّ سماحا بالوصال تسامح

سواء علىّ الموت أم شطّت النّوىبسمحاء أم حزّ الوريدين ذابح

تجنّبتها لا عن ملال و لا قلىو لكن مصاب يصدع القلب فادح

مصاب إذا أخفيته متّ لوعةو وجدا و إن أبديته فهو فاضح

و إن رمت أسلو حبّها حال دونهرسيس جوى ضمّت عليه الجوانح

قضى اللّه يا سمحاء بالبين بيننألا كلّ ما يقضى به اللّه صالح

حنانيك أنت البرء و الداء إنّمايفوز و يشقى فيك دان و نازح

لقد فتكت بى غارة منك شنّهاعلى القلب غاد فى هواك و رائح

فلا نفع إن شطّت بك الدار أو دنتو سيّان عندى فيك لاح و ناصح

سقى اللّه هاتيك المعاهد عارضامن المزن تمريه الرّياح اللّواقح

ليغدو بها نشر الخزامى كأنّمايخالطه من نشر دارين نافح رحلة ابن معصوم المدنى ؛ ص۲۱۶

كأنّ خدود الورد و الطلّ فوقهاخدود الغوانى فوقها الدّمع ناضح

كأنّ ابتسام الرّوض و الجوّ عابسمحيّا نظام الدّين و الدّهر كالح

همام إذا يمّمت أعتاب مجدهنأت عنك أحداث الزّمان الفوادح

يزيد على اللّألاء حرصا على النّدىكما أرهف السّيف اليمانىّ ماسح

مقيم بظلّ المجد حيث توطّدتأو اخيه مهما يبرح المجد بارح

إذا أظلمت شهب الكمال أنارهاو إن خمدت زند العلى فهو قادح

و إن ضنّت الأنواء جادت يمينهو إن منعت أهل النّدى فهو مانح

أحاتم أم كعب بن مامة مثلهأبى اللّه أنّ الفرق كالصّبح واضح

رحلة ابن معصوم المدنی، ص: ۲۱۷ و کلّ امرئ رام الغنی دون بابهفقد حجبت عنه المنی و المنائح

أقائسه بالبحر لا ینبغی لهو هل یستوی عذب فرات و مالح

و تزعم أنّ الغیث مثل یمینهو هیهات رشّاح القطار و طافح

هو البدر بدر التمّ لولا محاقههو الشمس لا بل منه فیها ملامح

إلی مثله عمدا و فی ظلّ مثلهتحثّ المهاری أو تراح الرّوازح

هو ابن رسول اللّه و ابن وصیّهفماذا عسی أن یبلغ القول مادح

فیا مستفید المال کیما یفیدهإذا غلّ فی الأزم الأکفّ الشّحائح

سأکسوک من مکنون نظمی [و شائعا]تناط بجید الدّهر منها و شائح

تدوم دوام الفرقدین علی المدیإذا لحقت بالمادحین المدائح

و قال یمدحه أیضا :

لک الخیر لا زید یدوم و لا عمروو لا ماء یبقی فی الدّنان و لا خمر

فبادر إلی اللّذات غیر مراقبفما لک إن قصّرت عن نیلها عذر

فإن قیل فی الشّیب الوقار لأهلهفذاک کلام عنه فی مسمعی وقر

و قالوا نذیر الشّیب جاء کما تریفقلت لهم هیهات أن تغنی النّذر

لئن کان رأسی غیّر الشّیب لونهفرقّة طبعی لا یغیّرها الدّهر

یقولون دع عنک الغوانی فإنّماقصاراک لحظ العین و النّظر الشّزر

و هل فیک للغید الحسان بقیّةو قد ظهر المکنون و ارتفع السّتر

و ما للغوانی و ابن سبعین حجّةو حلم الهوی جهل و معروفه نکر

رحلة ابن معصوم المدنی، ص: ۲۱۸ فقلت دعونی فالهوی ذلک الهویو ما العمر إلّا الیوم و العام و الشّهر

نشأت أحبّ الغید طفلا و یافعاو کهلا و لو أوفی علی المائة العمر

و هنّ و إن أعرضن عنّی حبائبلهنّ علیّ الحکم و النّهی و الأمر

أحاشیک بی منهنّ من لو تعرّضتلنوء الثریّا لاستهلّ لها القطر

ترقرق [ماء] الحسن فی نار خدّهافماء و لا ماء و جمر و لا جمر

فیا بعد ما بین الحسان و بینهالهنّ جمیعا شطره و لها الشّطر

برهرهة صفر الوشاح إذا مشتتجاذب منها الرّدف و العطف و الخصر

من البیض لم تغمس یدا فی لطیمةو قد ملأ الآفاق من طیبها نشر

تخرّ لها زهر الکواکب سجّداو تعنو لها الشّمس المنیرة و البدر

تخال بجفنیها من النّوم لوثةو تحسبها سکری و لیس بها سکر

و قالوا إلی هاروت ینسب سحرهاأبی اللّه بل من لحظها یؤخذ السّحر

تخالف حالی فی الغرام و حالهالها محض ودّی فی الهوی ولی الهجر

فیا ویح قلبی کم یقاسی من الهویو یا ویله کم لا ینهنهه الزّجر

علی أنّنی لا جازع إن تباعدتبها الدار أو عزّ التجلّد و الصبر

فمدح نظام الدّین دامت سعودههو القصد لا بیض الکواعب و السّمر

شريف له فى كلّ قلب مدينةعزيز له فى كلّ جارحة مصر

من النّفر البيض الألى شهدت لهمصدور العوالى و المهنّدة البتر

إذا عدّ أهل الفضل كأن أمامهمو إن عدّ أهل البذل كان له الفخر

نهوض بأعباء المكارم كلّهافإن ضاق صدر منهم رحب الصّدر

له تسعة الأعشار من رتب العلىو للنّاس منها ما بقى و هو العسر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۱۹ تجلّ عن الدّنيا- و إن جلّ قدرها-يمين ابن معصوم و نائله الغمر

و ما بى إلى نوء السّماكين حاجةو قد لامست كفّى أنامله العشر

فلا وعده خلف و لا البرق خلّبو لا جوده مطل و لا سيبه نزر

علقت إليه البحر لا أرهب الرّدىفصادفت بحرا لا يقاس به بحر

و أدركت من نعماه ما دونه الغنىفدامت لى النّعمى و دام له الشكر

لئن ملت يوما عن هواه لغيرهفلا كانت الدّنيا و لا وفر الوفر

فكفران ما أسدى إلىّ من النّدىهو الكفر لا بل دونه عندى الكفر

إذا أنكر الحسّاد سابق فضلهأقرّ له الركن اليمانىّ و الحجر

و ما قلت ما قد قلت إلّا تعلّلاو إلّا فماذا يبلغ النّظم و النّثر

و لا زال محروس الجناب مؤيّدامن اللّه ما دام السّماكين و النّسر

و قوله من قصيدة يمدح بها بعض الأكابر :

أشمس الضّحى لا بل محيّاك أجملو غصن النّقا لا بل قوامك أعدل

سفرت لنا حيث النّجوم كأنّهاكواعب فى سود المطارف ترفل

[و حيث الهزيع الآبنوسىّ] حالكك كأنّ الدجى ستر على الأرض مسدل

كأنّ الثريّا إذ (تراءت) لناظرىو شاح على جيد الظّلام مفصّل

كأنّ سهيلا و النّجوم تؤمّهنوافر ورق خلفها لاح أجدل

كأنّ السّها ذو صبوة غاله النّوىفأنحله و البين للصّبّ ينحل

فلمّا بدا مرآك شابت فروعهو قد كان مسودّ الغدائر أليل

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۲۰ [لعا] لعثارى كيف لا أبلغ المنىو أدرك شأوا نيله لا يؤمّل

و قد أدركتنى من أبى الجود نظرةفأشرق نجمى بعد ما كان يأفل

و للمجد فضل حيث كان و إنّهإذا كان فى زاكى الأرومة أفضل

كذا لدرّ يزهو حيث نيطت عقودهو لكنّه فوق التّرائب أجمل

و منهم الأديب الضارب بسهم لا يدرك له ضريب. حامل رايات النباهة، حافظ آيات الروية و البداهة، شيخ الأدب و فتاها، و مصطافها و مشتاها عفيف الدين عبد اللّه بن الحسين لا زال موفّى الشأن من الشين. هو و إن كان ثقفى الأصل إلا أنّه مثقف قناة النصل، له فى الأدب مكانة يعرفها من شاهد مكانه.

ما سما إلى صهوة منه إلّا امتطاها، و لا شدّ كتيبة ذهنه عليها إلّا سباها. ينظم الدرارى أسلاكا، و يجعل خاطره لها أفلاكا. لا يتكلّف نحو و عروض، بل بسليقة أبانت له السنن و الفروض. فمن ثمّ أخذ بمجامع القلوب وفق ما قيل :

حسن الحضارة مجلوب بتطريةو فى البداوة حسن غير مجلوب

و كم أنشد لسان حاله المطرب:

و لست بنحويّ يلوك لسانهو لكن سليقيّ يقول فيعرب

و قد أثبت له ما تغتبقه راحا، و تملأ بمواهبه راحا. فمن ذلك قوله يخاطب الوالد:

أبا هاشم سدت الأنام بباذخمن المجد مبنيّ على الحزم و الوفا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۲۱ خلقت نحيفا و المروءة و الذّكاتصوغ الفتى ماضى الضّرائب مرهفا

فما شرف الإنسان إلّا بقلبهمتى طاب ما واراه من شخصه كفى

و كنت كتبت إليه سنة تسع و ستين و هو من أول شعرى

يا ربيب النّدى و ترب المعالىو أديبا فاق الورى بالمقال

استمع لى- لا زلت- واصغ لقولىو أجبنى بما يخفّ ثقالى

فأنا اليوم منذ عامين صبّبغزال يفوق كلّ غزال

رقّ لى من جفاه كلّ عذولورثا لى من صدّه كلّ قالى

كلّما رمت رشفة من لماهصدّ عنّى و سامنى بالمحال

و أنا و الّذى أعلّ فؤادىبهواه لست الغداة بسالى

كيف و الوجد قد أباح اصطبارىو دموعى لمّا تزل فى انهمال

فافتنى- لا برحت- فتوى أريبفعساه يصغى و يرثى لحالى

و ابق و اسلم فى عزّة و علاءيا ربيب النّدى و ترب المعالى

فأجاب و أجاد:

يا هماما قد حاز طرف الكمالو تحلّى بالفضل و الافضال

و جوادا يلوح فى فلك المجدسناه يزرى بضوء الهلال

لا تنكّر من مطل ظبى كناسإنّما يعذب الهوى بالمطال

ربّما لاحظ الأغنّ لعذرو احتشام من خوف قيل و قال

الهوى غوره بعيد المناليا منى كلّ غادة مكسال

فاتّئد فى الأمور و استعمل الصّبرو راقب لغفلة العذّال

و اطّرح فى الكناس كفّة حبلإنّما تعلق الظّبا بالحبال

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۲۲ علّ تحظى منها بطيب الوصاليا هماما قد حاز طرف الكمال

و من شعره قوله:

ويح قلب المحبّ ماذا يقاسىكلّ قلب عليه كالصخر قاسى

يا جفونى أين الدّموع فقد أحرققلبى توقّد الأنفاس

جدّ وجدى بحبّ لاه و أودىبفؤادى تذكاره و هو ناسى

و قوله فى الجناس التام:

لقد صار لى مدمع بعدهميفيض على وجنتى كالعقيق

لتذكار أيّامنا بالحمىو تلك اللّيالى بوادى العقيق

و قوله مخاطبا لى و قد وافى الخبر بانتقال والدتى إلى جوار ربّها :

يا أيّها العلم النّدب الذى شهدتبفضله جملة السّادات و العلما

و من تملّك رقّ المكرمات فتىو شاد ركن العلى حلما و ما احتلما

لا تبتئس من زمان فرّ ناجذهو فوّق السّهم لما أن عدا فرمى

فالدّهر حرب و إن أبدى مسالمةلم يعط سلما و لم يبق امرءا سلما

فالحرّ إن نابه دهر بآزمةتعيى فإنّ الأسى فى فقد من علما

فصل فى ذكر جملة من أخبار الهند، و أحوالها و ما يتّصل بذلك من النكت و النوادر و أمثالها، حلّا لعقد البيان بتقييدها، و تبييضا لوجه الكتاب بتسويدها.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۲۳

ذكر أبو الحسن علىّ بن الحسين المسعودى فى كتابه مروج الذهب و معادن الجواهر قال: ذكر جماعة من أهل العلم و النظر و البحث الذين و صلوا الغاية بتأمل شأن هذا العالم و بدئه: أن الهند كانت (قديما كزمان الغرّة) التى كان بها الصلاح و الحكمة، فإنّه لما تجيّلت الأجيال و تحزّبت الأحزاب حاولت الهند أن تضمّ المملكة، و تستولى على الحوزة، و تكون الرئاسة فيها فقال كبراؤهم: نحن أهل البدء و فينا التناهى، و لنا الغاية و الصدور، و الانتهاء. و منا سرى الأب إلى الأرض فلا ينازعنا أحد موقفا، و لا عاندنا و أراد بنا الاغماض إلّا أتينا عليه و أبدناه، أو يرجع إلى طاعتنا، فأزمعت على ذلك، و نصبت لها ملكا و هو البرهمن الأكبر و الملك الأعظم، و الإمام المقدم. ظهرت فى أيامه الحكمة، و تقدّمت العلماء، و استخرجوا الحديد من المعادن، و ضربت فى أيامه السيوف و الخناجر، و كثير من أنواع المقاتل، و شيّد الهياكل و رصّعها بالجواهر المشرقة المنيرة، و صور فيها الأفلاك و البروج الاثنى عشر و الكواكب (و بيّن كيفيّة صورة العالم، و أورد أيضا بالصورة) أفعال الكواكب فى هذا العالم و احداثها للأشخاص الحيوانية، و بين حال المدبّر الذى هو الشمس، و أثبت كتابا فى براهين جميع ذلك، و قرّب إلى عقول العوام فهم ذلك، و غرس فى نفوس الخواص دراية ما هو أعلى من ذلك و أشار إلى المبدئ الأول المعطى سائر الموجودات وجودها، الفائض عليها بجوده. و انقادت له الهند و أخصبت بلادها، و أراهم مصالح الدنيا، و جمع الحكماء فأحدثوا فى أيامه كتاب السند هند و تفسيره دهر الدهور، ثم عمل منهما بعد ذلك الزيجات، و أحدثوا الأحرف التسعة المحيطة بالحساب الهندى. و كان أوّل من تكلّم فى أوج الشمس، و ذكر أنه يقيم فى كلّ برج ثلاثة آلاف سنة، و أنه إذا انتقل فى البروج الجنوبية انتقلت العمارة، فصار العامر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۲۴

غامرا و الغامر عامرا، و الشمال جنوبا و الجنوب شمالا، و رتب فى بيت الذهب حساب البدء الأول، و التاريخ الأقدم الذى عليه عمل الهند فى تاريخ البدءة و ظهورها فى أرض الهند و سائر الممالك. و لهم فى البدء خطب طويل.

و كان ملك البرهمن إلى أن هلك ثلثمائة و ستين سنة، و ولده يعرفون بالبراهمة إلى وقتنا هذا، و الهند تعظّمهم، و هم أعلى أجناسهم و أشرافهم، و لا يغتذون بشىء من الحيوان، و فى رقابهم- الرجال و النساء منهم- خيوط صفر مقلّدون بها كحمائل السيوف فرقا بينهم و بين غيرهم من أنواع الهند.

قلت: و ما ذكره باق إلى زماننا هذا، و لهم مذاهب تفرّدوا بها عن سائر ملل الهند.

قال : و كان قد اجتمع منهم فى قديم الزمان فى ملك البرهمن سبعة من حكمائهم المنظور إليهم منهم فى بيت الذهب. فقال بعضهم لبعض:

تعالوا حتى نتناظر فننظر ما قصّة العالم و ما سرّه؟ و من أين أقبلنا و من أين نمرّ؟

و هل خروجنا من عدم إلى وجود حكمة أو ضد ذلك؟ و هل خالقنا المخترع لنا و المنشىء لأجسامنا يستجلب بخلقنا منفعة؟ أم هل يدفع بفنائنا عن هذه الدار عن نفسه مضرّة؟ أم هل يدخل عليه من الحاجة و النقص ما يدخل علينا؟ أم هل هو غنى (من كلّ وجه عن

اقتنائه إيّانا و إبلائنا بعد وجودنا؟) .

فقال الحكيم المنظور إليه منهم: أترى أحدا من الناس أدرك الأشياء الحاضرة و الغائبة على حقيقة الادراك فظفر بالبغية و استراح إلى الثقة؟.

و قال الحكيم الثانى: لو تناهت حكمة البارى عزّ و جلّ فى أحد العقول كان ذلك نقصا من حكمته، و كان الغرض غير مدروك، و كان التقصير مانعا من الادراك.

و قال الحكيم الثالث: الواجب علينا أن نبتدئ بمعرفة أنفسنا التى هى أقرب الأشياء منا، و نحن أولى بعلمنا من أن نتفرغ إلى علم ما بعدنا.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۲۵

قال الحكيم الرابع: لقد ساء وقوع من وقع وقعا احتاج فيه (بنفسه) .

قال الحكيم الخامس: من ههنا وجب الاتصال بالحكماء الممدودين بالحكمة.

قال الحكيم السادس: الواجب على المرء المحبّ لسعادة نفسه ألّا يغفل عن ذلك لا- سيما إذا كان المقام فى هذه الدنيا ممتنعا و الخروج منها واجبا.

قال الحكيم السابع: أنا لا أدرى ما تقولون غير أنى أخرجت إلى هذه الدنيا مضطرّا، و عشت فيها حائرا، و أخرج منها مكرها.

فاختلف الهند من سلف و خلف فى آرائهم السبعة، و كلّ قد اقتدى بهم، و يمّم مذهبهم و تفرّعوا بعد ذلك فى مذاهبهم، و تنازعوا فى آرائهم، فالذى يقع الحصر من طوائفهم سبعون فرقة.

قال المسعودى: و قد تنوزع فى البرهمن، فمنهم من زعم أنّه آدم (ع) و أنّه رسول من اللّه عزّ و جل إلى الهند. و منهم من يقول أنّه كان ملكا على حسب ما ذكرنا- و هذا أشهر- و لما هلك البرهمن جزعت عليه الهند جزعا شديدا، و فزعت إلى نصب ملك آخر عليها من أكبر ولده، و كان ولىّ عهد أبيه الموصى عليه من ولده و هو (الناهور) ، فسار فيهم سيرة أبيه، و أحسن النظر لهم و زاد فى بناء الهياكل، و قدّم الحكماء و زاد فى مراتبهم، و حثهم على تعليم الناس الحكمة و بعثهم على طلبها. فكان ملكه إلى أن هلك مائة سنة. و فى أيامه علمت النرد و أحدث اللعب بها، و جعل ذلك مثالا للمكاسب و أنّها لا تنال بالكسب و لا بالحيلة فى هذه الدنيا، و إنّ الرزق لا يتأتى بالحذق.

و قد ذكر أن أردشير بن بابك أوّل من صنع النرد و لعب بها، و أرى تقلّب الدنيا بأهلها و اختلاف أمورها، و جعل بيوتها اثنى عشر بيتا بعدد الشهور، و جعل كلابها ثلاثين بعدد أيام الشهر، و جعل [الفصّين] مثالا للقدر و تقلبه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۲۶

بأهل الدنيا، و أن الإنسان يلعب فيبلغ بإسعاد القدر إيّاه فى مراده باللعب بها ما يريد، و أنّ الحازم الفطن لا يتأتى له ما يتأتى لغيره إلّا إذا أسعده القدر، و أن الأرزاق و الحظوظ فى هذه الدنيا لا تنال [إلّا] بالجدود.

ثم ملك (دامان بعد الناهور) فكان ملكه نحوا من مائة و خمسين سنة.

و لدامان سير و أخبار و حروب مع ملوك فارس، و ملوك الصين.

ثم ملك فور إلى أن هلك مائة و أربعين سنة.

ثم ملك بعده (دبشليم) و هو الواضع كتاب كليلة و دمنة الذى (نقله ابن) المقفع .

قلت: و قد ذكر أن أول من نقل كتاب كليلة و دمنة و جعله شعرا: أبان بن عبد الحميد الشاعر المشهور. و كان قد نقله للبرامكة و نظمه ليسهل حفظه، أوّله:

هذا كتاب أدب و محنهو هو الّذى يدعى كليله دمنه

فيه احتيالات و فيه رشدو هو كتاب وضعته الهند

قال المسعودى: و كان ملكه مائة و عشر سنين.

ثم ملك بعده (تلهيث) و صنعت فى أيامه الشطرنج فقضى بلعبها على

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۲۷

النرد، و بيّن الظفر الـذى ينال الحازم، و النكبـة التى تلحق بالجاهل، و حسب حسابها و رتّب لذلك كتابا للهند يتداولونه بينهم، و لعب بالشـطرنج مع حكمائه، و جعلها مصوّرة تماثيل مشكلة على صور الناطقين و غيرهم من الحيوانات مما ليس بناطق و جعلهم درجات و مراتب. و مثّل الشـاة بالمـدبّر الرئيس، و كـذلك ما يليه من القطع، و أقام ذلك مثالا للأجساد العلويـة التى هى الأجسام السـماوية من السبعة، و الاثنى عشر. و أفراد كـل قطعـة منهـا بكوكب، و جعلها ضابطـة للمملكـة، و إذا كاد عـدوّ من أعـدائه فوقعت منه حيلـة فى الحروب نظروا من أين [يؤتون] فى عاجل و آجل.

و للهند فى لعب الشـطرنج سرّ يرونه فى تضاعيف حسابها، و يتعلقون بذلك إلى ما علا من الأفلاك، و ما إليه منتهى العلّة الأولى فى أنّ مبلغ أعداد أضعاف الشطرنج:

ثمانية عشر ألف ألف ألف ألف ألف ألف.

و سبعمائة و أربعون ألف ألف ألف ألف ألف ألف .

و ثلثمائة و سبعون ألف ألف ألف ألف .

و تسعة آلاف ألف ألف ألف .

و خمسمائة ألف ألف.

و أحد و خمسون ألف و ستمائة و خمسة عشر.

و مراتب هذه الألوف الستة الأولى، ثم الخمسة التى هى ألف ألف

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۲۸

خمس مرات، ثم الأربعة، ثم الثلاثة، ثم الاثنان، ثم الواحد. لها عندهم معان يذكرونها فى الدهور و الأعصار، و تقتضيه سائر المؤثرات العلويّة فى هـذا العـالم لارتبـاط نفوس الناطقين بها. و لليونانيين و الروم و غيرهم من الأمم فى الشـطرنج كلام كثير و أنواع من اللعب بها. قد ذكر ذلك الشطرنجيون فى كتبهم ممن تقدم منهم كالصولى و العدلى و إليهما كان انتهاء اللعب بالشطرنج.

و ما أحسن قول الشيخ بدر الدين بن الصاحب فى الشطرنج:

تأمّل تر الشّطرنج كالدّهر دولةنهارا و ليلا ثم بؤسا و أنعما

محرّكها باق و تفنى جميعهاو بعد الفنا تحيا و تبعث أعظما

قال ابن حجة فى ثمرات الأوراق: و هذا يشبه قول القاضى الفاضل و قد أخرج له السلطان الملك الناصر خيال الظل ليفرجه عليه، فقام الفاضل عند الشـروع فى عمله، فقال له الناصـر: إن كان حراما فما نحضره- و كان حديث العهد بخدمته قبل أن يلى السلطنة- فما أراد أن يكـدّر عليه فقعـد إلى آخره، فلمـا انقضـى ذلك قال له الملك ناصـر: كيف رأيت ذلك؟ قال: رأيت موعظـة عظيمـة، رأيت دولا تأتى، و دولا تمضى، و لما طوى الازار إذا بالمحرك واحد. فأخرج ببلاغته هذا الجدّ فى هذا الهزل. انتهى.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۲۹

و قريب من هذا المعنى قول من قال :

رأيت خيال الظّلّ أكبر عبرةلمن كان فى علم الحقيقة راقى

شخوص و أشباح تمرّ و تنقضىو تفنى جميعا و المحرّك باقى

قال المسعودى: و كان ملك (تلهيث) ملك الهند إلى أن هلك ثمانين سنة، و فى بعض النسخ أنّه ملك مائة و ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده كورش فأحدث للهند آراء فى الديانات على حسب ما رأى من صلاح الوقت، و ما يحتمله من التكليف أهل العصر، و خرج من مذاهب من سلف. و كان ملك الهند هذا إلى أن مات عشرين و مائة سنة.

و لما هلك هذا الملك اختلفت الهند فى آرائها فتحزّبت الأحزاب، و تجيّلت الأجيال، و انفرد كلّ رئيس بناحية، فتملّك على أرض السند ملك، و تملك أرض القنوج ملك، و تملّك أرض [قشمير] ملك، و تملّك على (أرض المامكين) و هى الحوزة الكبرى ملك يسمّى (بلهر) و هذا أول ملك من ملوكهم سمّى بالبلهر فصارت سمة لمن ملك من الملوك فى هذه الحوزة إلى وقتنا هذا.

قال: و أرض الهند واسعة فى البرّ و البحر و الجبال، و ملكهم يتّصل بملك (الرانج) و هى دار مملكة المهراج ملك الجزائر، و هذه المملكة [فرز بين] مملكة الهند و الصين، و تضاف إلى الهند، و الهند متّصلة مما يلى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۳۰

الجبال بأرض خراسان، و السند إلى أرض التبت. و بين هذه الممالك تباين و حدوب، و لغاتهم مختلفة و آراؤهم غير متّفقة، و الأكثر منهم يقول بالتناسخ و تنقل الأرواح.

قال: و الهند فى عقولهم و سياساتهم و حكمتهم و ألوانهم و صفاتهم و صحة أمزجتهم و صفاء أذهانهم و دقة نظرهم بخلاف سائر السودان من الزنج و غيرهم و سائر الأجناس. و قد ذكر جالينوس: فى الأسود عشر خصال اجتمعت فيه و لم توجد فى غيره: تفلفل الشعر، و خفّة الحاجبين، و انتشار المنخرين، و غلظ [الشفتين] ، و تحديد الأسنان، و نتن الجلد، و سواد الحدق، و تشقّق اليدين و الرجلين، و طول الذكر، و كثرة الطرب. قال جالينوس: و إنّما غلب الأسود الطرب لفساد دماغه فضعف لذلك عقله. و لقد كان طاووس اليمانى صاحب عبد اللّه بن العباس لا يأكل من ذبيحة الزنجى و يقول: أنّه عبد مشوّه الخلقة. و بلغنا أن الراضى باللّه كان لا يتناول شيئا من أسود و يقول: أنه عبد مشوّه. فلا أدرى أقلّد طاووسا فى مذهبه أم لضرب من الآراء و النحل. و لقد صنّف الجاحظ كتابا فى فخر السودان و مناظراتهم مع البيضان .

قال: و الهند لا يملّك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة، و لا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلّا فى كلّ برهة من الزمان معلومة، لأنّ فى نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقا لهيبتها و استخفافا بحقّها. فالرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلّا بالتكبّر و وضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة.

قال: و رأيت فى بلاد سرنديب- و هى جزيرة من جزائر البحر- إذا مات ملكهم صيّر على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكر مستعدّة لهذا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۳۱

المعنى و شعره ينجر على الأرض، و امراة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه و تنادى: أيها الناس هذا ملككم بالأمس قد جاز فيكم حكمه، و قد صار إلى ما ترون من ترك الدينا، و قبض روحه ملك الموت بأمر الحىّ القديم الذى لا يموت، فلا تغترّوا بالحياة بعد، و تقول كلاما هذا معناه من الترهيب و التزهيد فى هذا العالم، و يطاف به شوارع المدينة، ثم يفصل أربع قطع و قد هيّء له الصّندل و الكافور و سائر أنواع الطيب فيطيّب و يحرق بالنار، ثم يذرّى رماده فى الرياح. و كذلك فعل أكثر الهند بملوكهم و خواصّهم لغرض يذكرونه، و نهج يتمنّونه فى المستقبل و الملك مقصور فى أهل البيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، و كذلك بيوت الوزراء و القضاة و سائر أهل المراتب لا تغيّر و لا تبدّل. و الهند تمنع من شرب الشراب، و يعنّفون شاربه لا على طريق التديّن، لكن تنزيها عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها و يزيلها عما وضعت له فيهم. و إذا صحّ عندهم عن ملك من ملوكهم شربه، استحقّ الخلع من ملكه، إذ كان لا يتأتى التدبير و السياسة مع الاختلاط. و ربّما يسقون الجوارى فيطربن بحضرتهم، فتطرب الرجال لطرب الجوارى. و للهند سياسات كثيرة. انتهى كلام المسعودى باختصار فى بعض المواضع.

و أقول: ما ذكره كان فيما سلف من الزمان و قديم العصر. و أما الآن فقد استولت ملوك الاسلام على كثير من أقطار الهند، و استحوذت على جملة من ممالكها. و أمّا أسامى الممالك التى ذكرها فلا تعرف الآن لتغير الملوك. فكلّ من عمّر منهم بلدة سماها باسمه و نسى اسمها الأول، فلا تكاد تعرف بلدة باسمها القديم إلّا نادرا، أو جزائر و أماكن شاحطة لم يدخلها ملوك الاسلام، و ذلك لسعة هذا القطر، و تباعد ما بين جهاته. و قد بلغنا الآن أنّ ملكا من الكفرة الهنود إذا ركب إلى بيت الأصنام مشى أمامه ثمانية آلاف فيل.

و قرأت فى كتاب لملك الهند إلى ملك سمرقند يفتخر فيه بسعة ملكه و يحدث بنعمة اللّه تعالى عليه، يقول فيه: و كفى ملكنا اتساعا أنه ربع الربع المعمور، واللّه أعلم بصحة ذلك.

و قطر الهند من الاقليم الثانى من الأقاليم السبعة.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۳۲

فائدة: الأقاليم السبعة: أوّلها أرض بابل، و خراسان، و فارس، و الأهواز، و الموصل، و أرض الجبال. و لهم من البروج: الحمل، و القوس و من الأنجم السبعة: المشترى .

و الاقليم الثانى: السند، و الهند، و السودان. و لهم من البروج:

الجدى، و من الأنجم السبعة زحل .

و الاقليم الثالث: مكة، و المدينة، و اليمن، و الطائف، و الحجاز و ما بينها. و لهم من البروج: العقرب، و من الأنجم السبعة: الزهرة.

و الاقليم الرابع: مصر، و افريقية، و البربر، و الأندلس و ما بينها. و لهم من البروج: الجوزاء، و من الأنجم السبعة: عطارد.

و الاقليم الخامس: الشام، و الروم، و الجزيرة. و لهم من البروج:

الدلو، و من الأنجم السبعة: القمر.

و الاقليم السادس: الترك، و الخزر، و الديلم، و الصقالبة. و لهم من البروج: السرطان، و من الأنجم السبعة: المريخ.

و الاقليم السابع: [الدبيل] ، و الصين. و لهم من البروج: الميزان.

و من الأنجم السبعة: الشمس. و اللّه أعلم.

و ذكر المسعودى فى معرض كلام له فى نهر الكنك و هو نهر الهند، و يمرّ بكثير من جبال السند. قال: و هو نهر حاد الانصباب و الجريان، عليه تعذب أكثر الهند أنفسها بالحديد، و تغرقها زهدا فى هذا العالم، و رغبة فى النقلة عنه، و ذلك أنّهم يقصدون موضعا فى أعالى هذا النهر المعروف، و هناك

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۳۳

جبال عالية، و أشجار عادية و رجال جلوس، و حدائد و سيوف منصوبة على ذلك الشجر، و قطع من الخشب. فتأتيهم الهند من الممالك النائية و البلاد القاصية، فيسمعون كلام أولئك الرجال المرتّبين على هذا النهر ما يقولون من تزهيدهم فى هذا العالم، و الترغيب فيما سواه. و يطرحون أنفسهم من أعالى تلك الجبال العالية على تلك الأشجار العادية، و السيوف و الحدائد المنصوبة، فيقطّعون قطعا، و يصيرون إلى هذا النهر أجزاء.

قال: و هنالك شجر من إحدى عجائب العالم و نوادره. و الغريب من شأنه أنّه يظهر فى الأرض أغصانا مشتبكة من أحسن ما يكون من الشجر و الورق و يستقيم فى الجوّ كأبعد ما يكون من طوال النخل، ثم [ينحنى] جميع ذلك منعكسا فيغوص فى الأرض مندسّا، و يهوى فى قعرها سفلا على المقدار الذى ارتفع فى الهواء و يسعى و ينثنى ما يغيب منه تحت الأرض و يتوارى تحت الثرى. فلولا أنّ الهند قد وكّلت بقطعه لطبّق على تلك البلاد، و غشى تلك الأرض.

قال: و الهند تعذّب أنفسها على ما وصفنا بأنواع العذاب، و قد تيقّنت أنّ ما ينالها من النعيم فى المستقبل مؤجلا، هو ما أسلفته و عذبت

أنفسها فى هذه الدار معجلا.

فمنهم من يصير إلى باب الملك فيستأذن فى إحراقه لنفسه. ثم يدور فى الأسواق و قد أجّجت له النار العظيمة عليها من قد وكّل بإيقادها، ثم يسير فى الأسواق و قدّامه الطبول و الصنوج و على [بدنه] أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه و حوله أهله و قرابته، و على رأسه اكليل من الريحان، و قد قشر جلدة من رأسه و عليها الجمر، و قد جعل عليها الكبريت و السندروس و هامته

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۳۴

تحترق، و روائح دماغه تفوح، و هو يمضغ ورق التانبول و حبّ الفوفل. فإذا طاف فى الأسواق و انتهى إلى تلك النار و هو غير مكترث لا يتغيّر فى مشيته، فمنهم من إذا أشرف على النار و قد صارت جمرا كالتلّ العظيم تناول بيده خنجرا فيضعه فى لبّته.

قال: و قد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند سنة أربع و ثلثمائة فرأيت رجلا من فتيانهم و قد طاف على ما وصفنا فى أسواقهم، فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقّه ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة و هو يتكلم، فقطع منها قطعة بالخنجر فدفعها إلى بعض أخوته تهاونا بالموت، و لذّة بالنقلة، ثم هوى بنفسه فى الناء. و إذا مات الملك من ملوكهم أو قتل، حرق كثير من الناس أنفسهم لموته.

و للهند أخبار عجيبة تجزع من سماعها النفوس، و أنواع المقاتل تألم عند ذكرها الأبدان و تقشعر منها الأبشار.

و ذكر أن الأغلب عليهم فى لعبهم القمار بالشطرنج و النرد على الثياب و الجوهر، و ربّما أنفذ الواحد ما معه فيلعب على قطع عضو من أعضاء جسمه، و هو أن يحضر لهم قدر من النحاس صغير على نار فحم فيها دهن لهم أحمر، فيغلى ذلك الدهن، و هو دهن مدمل للجراح و ماسك لسيلان الدم، و يجمعون خنجرا. فإذا لعب فى أصبع من أصابعه و قمر قطعها بذلك الخنجر و هو مثل النار، ثم غمس يده فى ذلك الدهن فكواها ثم عاد إلى لعبه. فإن توجه عليه اللعب فى قطع الأصابع و الكفّ ثم الذراع و الزند و سائر الأطراف و كل ذلك يستعمل فيه الكىّ بذلك الدهن و هو دهن عجيب يعمل من أخلاط و عقاقير بأرض الهند، و هو عجيب المعنى لما ذكرنا، و ما ذكرناه عنهم مستفيض من فعلهم.

قلت: أمّا أنواع تعذيبهم لأنفسهم فباق إلى زماننا هذا، فمن ذلك أنه إذا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۳۵

مات الرجل منهم و كان له زوجة جعلت له دائرة عظيمة من الحطب كالحظيرة فيوضع الرجل وسطها و ذلك قبل أن تؤجج، ثم تأتى زوجته و قد لبست أفخر ثيابها مضمّخة بالدهن المطيّب، و تحلّت بجميع حليها، و قد زفّها أهلها و قرابتها جميعا و غيرهم ممن هو على ملّتهم، فتقف عند زوجها فى وسط تلك الحظيرة و هى تمضغ ورق التانبول، و تتكلّم و تضحك غير مكترثة بالموت.

و قد ضرب لها وتدان فى تلك الحظيرة من الحطب فتربط رجلاها فيهما بسلسلتين من الحديد، ثم يصب الدهن على ذلك الحطب و تضرم النار و تؤجّج. فإذا اتقدت النار و لحقت المرأة رفعتها عن الأرض فيمنعها قيد رجليها عن أن تلقيها إلى خارج، فلم تزل ترتفع و تنحطّ حتى تفارق روحها بدنها.

و ذكر الشيخ البهائى (*) فى كشكوله : أنه استمرّت العادة فى أقاصى بلاد الهند على إقامة عيد كبير على رأس كلّ مائة سنة، فيخرج أهل البلد جميعا من شيخ و شاب و صغير و كبير إلى صحراء خارج البلد فيها حجر كبير منصوب. فينادى منادى الملك: لا يصعد هذا الحجر إلّا من حضر هذا العيد قبل هذا، فربّما جاء الشيخ الهرم الذى ذهبت قوّته و عمى بصره، و العجوز الشوهاء و هى ترجف من الكبر، فيصعدان على ذلك الحجر، أو أحدهما، و ربّما لا يجىء أحد و يكون قد فنى ذلك القرن بأسره. فمن صعد ذلك الحجر نادى بأعلى صوته: قد حضرت العيد السابق و أنا طفل صغير، و كان ملكنا فلان، و وزيرنا فلان، و قاضينا فلان، ثم يصف الأمم الماضية من ذلك القرن كيف طحنهم الموت و أكلهم البلى، و صاروا تحت أطباق الثرى. ثم يقوم خطيبهم فيعظ الناس و يذكر الموت، و غرور الدنيا و لعبها بأهلها، فيكثر فى ذلك اليوم البكاء، و ذكر الموت و التأسف على صدور الذنوب، و الغفلة عن ذهاب العمر. ثم يتوبون و

يكثرون الصدقات، و يخرجون من التبعات.

انتهى.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۳۶

و حكى المسعودى و غيره: أنّ الاسكندر لما ملك فارس و احتوى على ملكها و تزوّج بابنه ملكها سار نحو السند و الهند، و وطئ ملوكها، و حمل إليه الهدايا و الخراج، و حاربه (فورك) و كان أعظم ملوكها، و كانت له مع الاسكندر حروب، و قتله الاسكندر مبارزة، و بلغه أنّ فى أقاصى أرض الهند ملكا ذا حكمة و سياسة، و ديانة و إنصاف للرعيّة، و أنّه قد أتى عليه مئون من السنين، و أنه ليس بأرض الهند من فلاسفتهم و حكمائهم مثله يقال له: كند، و كان قاهرا لنفسه مميتا لصفاته من الشهوة و العصبية و غيرها، حاملا لها على خلق كريم، و أدب رائق. فكتب إليه كتابا يقول فيه: إذا أتاك كتابى هذا فإن كنت ماشيا فلا تلتفت، و إن كنت قائما فلا تقعد حتى تصل إلىّ و إلّا مزقت ملكك و ألحقتك بمن مضى من ملوك الهند. فلما ورد عليه الكتاب أجاب الاسكندر بأحسن جواب، و خاطبه بملك الملوك، و أعلمه أنه اجتمع قبله أشياء لم يجتمع عند غيره مثلها. فمن ذلك ابنة لم تطلع الشمس على أحسن صورة منها، و فيلسوف يخبرك بمرادك قبل أن تسأله، و طبيب لا تخشى معه داء و لا شىء من العوارض إلّا ما يطرأ من الفناء و الدثور الواقع بهذه البنية، و حلّ العقدة التى عقدها المبدع لها، و المخترع لهذا الجسم الحسّى المنصوب غرضا للحتوف و البلايا، و قدح إذا ملأته شرب منه عسكرك جميعه و لا ينقض منه شىء. و أنا منفذ جميع ذلك إلى الملك و صائر إليه. فلما قرأ الاسكندر الكتاب أنفذ إليه جماعة من حكماء اليونانيين و الروم، و قال لهم: إن كان صادقا فيما كتب به فاحملوا ذلك إلىّ و دعوا الرجل، و إن تبينتم الأمر على خلاف ذلك، و أنّه أخبر عن الشىء بخلافه فأشخصوه إلىّ. فمضى القوم و أظهر لهم الجارية، فلما رمقوها بأبصارهم فلم يقع طرف واحد منهم على عضو من أعضائها مما ظهر فأمكنه أن يتعدّى إلى غيره. فخاف القوم على عقولهم، ثم رجعوا إلى أنفسهم و قهر سلطان هواهم. ثم أراهم بعد ذلك ما تقدّم الوعد به و صرفهم،

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۳۷

و سيّر بالفيلسوف و الجارية و الطبيب و القدح، فلما وردوا على الاسكندر أمر بإنزال الطبيب و الفيلسوف، و نظر إلى الجارية فبهرت عقله، و أمر قيمة جواريه بالقيام عليها، ثم صرف همّته إلى الفيلسوف و إلى علم ما عنده و عند الطبيب.

فملأ قدحا من السمن و أرهقه حتى لم يبق للزيادة عليه مجال، و بعث به إلى الفيلسوف، فدعا بألف ابرة فغرس أطرافها فى السمن و أنفذها إلى الاسكندر.

فأمر الاسكندر بسبك الابر كرة و بعثها إليه، فسبكها و جعلها مرآة مصقولة و أعادها. فدعا الاسكندر بطست من ماء فطرح المرآة فيه حتى رسبت و أعادها، فجعلها طاسة طافية على الماء و أعادها. فملأها الاسكندر بالتراب و بعث بها إليه. فلما نظر الفيلسوف إليها تغيّر لونه و جزع، و تغيّرت صفاته، و أسبل دموعه على صحن خدّه و جعل يكثر شهيقه، و ظهر حنينه، و طال أنينه، و أقام بقية يومه غير منتفع بنفسه، ثم أفاق من تلك الحال و زجر نفسه و أقبل عليها كالمعاتب لها فقال: ويحك يا نفس ما الذى قذف بك فى هذه السدفة، و أصارك إلى هذه الغمة، و وصلك بهذه الظلمة، أنسيت و أنت فى النور تسرحين، و فى العلوم تمرحين. تنظرين بالضياء الصادق، تنفسحين فى العالم المشرق، أنزلت إلى عالم الظلم و المعاندة، و الغشم و المفاسدة، تخطفك الخواطف، و تهزّك العواصف، قد حرمت علم الغيوب، و الكون فى العالم المحبوب، و رميت بشدائد الخطوب، و رفضت كلّ مطلوب. أين مصادرك الطيّبة و راحتك القوية؟

حللت فى الأجساد، و قوى عليك الكون و الفساد، و اختلطت يا نفس بين السباع القاتلة و الأفاعى المهلكة، و المياه المالحة، و النيران المحرقة، و الرياح العاصفة، تسير بك الأعمار فى قرارات الأجسام، لا تشاهدين إلّا غافلا و لا ترين إلّا جاهلا، جيل قد زهدوا فى الخيرات، و رغبوا عن الحسنات. ثم رفع طرفه نحو السماء فرأى النجوم تزهر فقال بأعلى صوته: يا لك من نجوم سائرة، و أجسام

زاهرة، من عالم شريف طلعت، و لشيء ما وضعت، إنّك من عالم نفيس قد كانت النفس فى أعاليه ساكنة، و فى خزائنه قاطنة، و قد أصبحت عنه ظاعنة. ثم أقبل على رسول الاسكندر فقال: خذه و ردّه إلى الملك- يعنى التراب- و لم يحدث فيه حادثة.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۳۸

فلما وصل الرسول إلى الاسكندر أخبره بجميع ما شاهد، فتعجب الاسكندر من ذلك، فلما أن كان فى صبيحة تلك الليلة جلس الاسكندر جلوسا خاصا و دعا الفيلسوف، فلما أقبل رآه طويل الجسم رحب الجبين معتدل البنية فقال فى نفسه: هذه بنية تضاد الحكمة، و من كان كذلك فهو أوحد زمانه، فأحسّ الفيلسوف بذلك فأدار اصبع السبابة حول وجهه ثم وضعها على أنفه، ثم دنا مسرعا فحيّا الملك، فأشار إليه بالجلوس، و سأله عن وضع اصبعه على أنفه، فقال: فهمت ما خطر لك فأشرت إلى أنّه ليس فى الهند غيرى، كما أنّه ليس فى الوجه إلّا أنف واحد، قال: فما معنى غرز الابر فى السمن؟ قال:

فهمت أنّك تقول: علمت حتى لا- مجال للزيادة كما ملئ هذا الاناء، فأشرت إلى أن الكامل يقبل الكمال. قال: فما المراد من بسط الكرة؟ قال: فهمت أنّك تقول: قلبى قسا من سفك الدماء و اشتغل بهذا العالم فلم يقبل العلم، فأشرت إلى أنّ جلاء الصدأ ممكن كما صار من الكرة مرآة ترى الأجسام.

قال: فما المراد من جعلها طاسة طافية على الماء؟ قال: فهمت أنك تقول:

الأيّام قصيرة، و الأجل قريب، و لا يدرك العلم الكثير فى الزمن القليل، فأشرت إلى أن قطع المسافة الطويلة فى الأمد اليسير متيسّر كما طفت الراسبة على وجه الماء فى أسرع وقت. قال: فما بالك حين ملأت الإناء بالتراب لم تردّ الجواب؟ قال: فهمت أنك تقول: ثم الموت، فأخبرتك أنّه لا- حيلة فى ذلك. فقال الاسكندر: صدقت، و لا حسننّ إلى الهند لأجلك، و أمر له بجوائز كثيرة، فقال: لو أحببت المال ما أردت العلم فلست أدخل علمى ما يضادّه و ينافيه. ثم نصح الاسكندر بنصائح يأمره فيها بالعدل و الاحسان. فخيّره الاسكندر بين المقام عنده، و العود إلى وطنه، فاختار العود إلى وطنه فلحق بأرضه. و ما أحسن قول من قال:

و لو أنّ الغريب غدا مليكاو نال من العلى أقصى مراده

لبات و قلبه يصلى بنارلتربة أرضه و هوى بلاده

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۳۹

و للّه درّ القائل :

فيا وطنى إن فاتنى بك سابقمن الدّهر فلينعم لساكنك البال

فإن أستطع فى الحشر آتك زائراو هيهات لى يوم القيامة أشغال

و أما القدح فامتحنه من أدهقه بالماء و أورد عليه الناس فلم ينقصه شربهم منه شيئا، و كان معمولا بضرب من خواص الهند الروحانية [و الطبائع] التامة و غير ذلك من العلم مما تدعيه الهند. و قد قيل: أنه كان لآدم أبى البشر بأرض سرنديب من بلاد الهند، مبارك له فيه، فورث عنه و تداوله الأملاك إلى أن انتهى إلى الملك كند لعظم شأنه. و أمّا الطبيب فكان كما وصفه صاحبه.

و قرأت فى خلق الإنسان للعلامة النيسابورى : أن الملك كند المذكور رأى قبل مكاتبة الاسكندر له بمائة سنة رؤيا راعته، فجمع لها علماء مملكته و قصّها عليهم فقال: إنى رأيت كوة صغيرة إلى بيت فيه فيل عظيم محبوس، و أنّه خرج من تلك الكوة كلّه ما خلا ذنبه، و تعجبت من خروج الأكبر و بقاء الأصغر، و رأيت قردا على سرير الملك، و كرباسة فى أيدى طائفة يتنازعونها فلا تنخرق، و لا يغلب بعضهم عليها بعضا، و رجلا- عطشان يهرب من الماء و الماء يتبعه فلا يعطف عليه حتى يشربه، و رأيت أهل المدينة فى المبايعة و التصرّف، و رأيت قوما مرضى يعودون صحيحا و يسألونه عن حاله، و برذونا ذا رأسين يأكل بكليهما و لا يروّث، و لا له مراث، و ثلاث خوابى مصفوفة ينصبّ ما فى اليمنى و اليسرى بعضها إلى بعض و لا يقطّر فى الوسطى شيء و هى فارغة، و بقرة ترتضع من عجلها، و عينا قد يبس مخرج مائها و ما دونها ممتلئ.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۴۰

و قد علمت أنّ هذه الرؤيا لأمر عظيم و خطب فظيع، و خاصة لتتابعها فى وقت واحد. فقالوا له: إنّ علمك يفضل على علمنا فضل قدرك على أقدارنا، فليقل فى التأويل خيرا، فإن الحكماء أمروا بذلك. فقال الملك: و هل لكلمة الأنس اقتدار على ردّ ما قد قضى اللّه، و سبق به علمه؟ فقالوا: لا يفى علمنا بتأويل هذه الرؤيا، و لا يستقلّ به غير مهراى العالم، و وصفوا له أمره فقال:

لو لم تكن لى إلى هذا الرجل حاجة لآتينّه اعظاما له و تيمّنا بلقائه، فكيف ولى إليه حاجة. ثم ركب إلى أرضه فى خفّ من رجاله و أتاه و خرّ له ساجدا و أخبره الخبر فقال العالم: لا بأس عليك من رؤياك إلى مائة سنة، ثم تضرّك بعض الضرر، و لا يبيد سلطانك، و لكنّك تسلم، و تسلم بلادك بجارية، و طبيب، و فيلسوف. قال: و كيف ذلك أيها الصادق؟ قال: إذا تمّ الأجل أتت أمّة من المغرب يملكها الاسكندر، و النصر محتفّ به. لا يطيقه الأنس و الجن، يدخل المشرق و يعطيه أهله المقادة، و ستسلم منه بما ذكرت، فلا يطأ لك حريما، و لا يخرّب بلدا، و أمّته أمّة سوء، و هذه الرؤيا عليهم.

أمّا الفيل: فملك تلك الأمة خرج من الدين قبله إلّا أتباعه.

و أمّا القرد: فالملوك على عهده يصيرون سفلا، و السفل ملوكا تسجد لهم الملوك.

و أمّا العطشان: فالناس فى زمانه يهربون من العلم و لا يلتفتون إليه.

و أمّا المرضى: ففقراء تلك الأمة يهدون لأغنيائهم.

و أمّا البرذون: فإنّهم يرون الأخذ من الولى و العدو، و لا يرون للبذل موضعا.

و أمّا الخوابى: فأهل المسكنة تكون فيما بين أغنيائهم فلا تنال منهم خيرا.

و أمّا الكرباسة: فتقريره ممالك الأرض على طوائف متساوية فى القدر،

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۴۱

لا يغلب بعضهم بعضا، و يتوادعون على ذلك زمانا.

و أمّا العين: فهى مخرج الأمور من غير مجاريها، و تحوّل الأمر إلى غير أهله.

و أمّا البقرة: فالمطعم يصير مستطعما، و الملوك عبيدا، إلّا أنت و أهلك.

فانصرف و قرّ عينا إلى تمام الأجل، فإذا أتاك فلا تحاربه و اهد له ابنتك الحسناء، و طبيبك الماهر، و فيلسوفك الطويل. ففعل ما أمره و سلم.

و هذه القصة مع صدق أمر الرؤيا فى انعقاد الدول فائدة العلم بتأخرها إلى حين و اللّه أعلم.

و رأيت فى كتاب العقد لأحمد بن عبد ربه القرطبى : أن أحد ملوك الهند كتب إلى عمر بن عبد العزيز: من ملك الأملاك الذى هو ابن ألف ملك و الذى تحته بنت ألف ملك، و الذى فى مربطه (مائة ألف) فيل، و الذى له نهران ينبتان العود، و البوّة ، و الجوز، و الكافور الذى يوجد ريحه على [مسيرة] اثنى عشر ميلا. إلى ملك العرب الذى لا يشرك باللّه شيئا. أما بعد فإنى أردت أن تبعث إلىّ رجلا يعلمنى الاسلام، و يوقفنى على حدوده و السلام.

و فى المروج : أن ملك الهند كتب إلى كسرى: من ملك الهند

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۴۲

صاحب قصر الذهب (و ايوان) الياقوت و الدرّ إلى أخيه ملك فارس صاحب التاج و الراية كسرى أنو شروان. و أهدى إليه ألف منّ عود هندى يذوب فى النار كالشمع، و يختم عليه كما يختم على الشمع فتتبين فيه الكتابة، و جاما من الياقوت الأحمر فسحته شبر مدوّر مملوءا درّا و عشرة أمنان كافور كالفستق و أكبر من ذلك، و جارية طولها سبعة أذرع تضرب أشفار عينيها خدّها، و كأنّ بين أجفانها لمعان البرق من بياض مقلتيها مع صفاء لونها ورقة تخطيطها و اتقان تشكيلها، مقرونة الحاجبين لها ضفائر تحوزها، (تغنى بالفارسية و

الهندية و الصينية، يستغرق الوجد سماعها، و ترقص رقص الفرس و الهند و الصين، عاملة بأنواع الملاهى) . و فرشا من جلود الحيّات ألين من الحرير، و أحسن من الوشى، و اللّه أعلم.

قيل: و قد كان الملك العظيم، و العدل الكثير، و النعم الجزيلة، و السياسة الحسنة، و الرخاء و الأمن الذى لا خوف معه فى بلاد الهند، و بلاد الصين، و أهل الهند أعلم الناس بعلم الطب و علم النجوم، و الهندسة و الصناعات العجيبة التى لا يقدر سواهم على أمثالها.

قلت: و هى الآن كما قيل:

فتغيّرت كلّ البلاد و أهلهاو غدت حديثا مثل أمس قد مضى

و فى بلادهم و جزائرهم ينبت العود، و شجر الكافور، و جميع أنواع الطيب كالقرنفل و السنبل ، و الدارصينى و الكبابة و البسباسة و أنواع الأدوية.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۴۳

و من كلام ابن القرّيّة لما سأله الحجاج عن البلدان: الهند بحرها درّ، و جبلها ياقوت، و شجرها عود، و ورقها عطر، و أهلها طغام كقطع الحمام.

و قال المسعودى: بحر الهند و الصين فى قعره اللؤلؤ، و فى جباله الجواهر، و معادن الذهب و الفضة و الرصاص القلعى . و فى أفواه دوابه العاج، و من نباته الأبنوس و الخيزران و القنا، و البقّم و العود و أشجار الكافور، و أشجار كثيرة، و الجوز بوّاء، و القرنفل و الصندل و أنواع الأفاويه و الطيب و العنبر، و طيوره الباغى البيض و الخضر، ثم الطواويس و أنواعها فى صورها و اختلافها فى الصغر و الكبر، و منها ما يكون كالنعامة كبرا، و من حشرات أرض الهند سنانير الزباد، و ظباء المسك. قيل: و علة كون الطيب بأرض الهند أنّه من الورق الذى خصفه عليه آدم أبو البشر من ورق الجنّة، فإنّه لما هبط بالهند فى جزيرة سرنديب على جبل الراهون و عليه الورق، يبس فذرّته الرّياح فانتثر فى بلاد الهند فكان هو العلّة فى ذلك و اللّه أعلم.

و جبل سرنديب من أعجب الجبال، طوله مائتان و نيّف و ستون ميلا و فيه أثر قدم آدم عليه السلام. قيل: لا بدّ له كلّ يوم مطرة تغسل موضع قدمه، و قد لمعت عليه اليواقيت، و فيه الماس.

و فى جزائره أنواع الأفاويه، و شجر الساج، و اللّه سبحانه أعلم.

و مما يلتحق بأخبار الهند و ينتظم فى سلكها قصة بابا رتن الصحابى، فلا بأس بذكرها لغرابتها: قرأت فى تذكرة صلاح الدين الصفدى فى الجزء

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۴۴

الثامن منها ما نصّه: نقلت من خطّ الفاضل علاء الدين على بن مظفر الكندى رحمه اللّه تعالى ما صورته:

حدثنا القاضى الأجل العالم جلال الدين أبو عبد اللّه محمد بن سليمان بن ابراهيم الكاتب من لفظه فى يوم الأحد خامس عشر ذى الحجة سنة احدى عشرة و سبعمائة بدار السعادة دمشق المحروسة. قال: أخبرنى الشريف قاضى القضاة نور الدين أبو الحسن على بن الشريف شمس الدين أبى عبد اللّه محمد بن الحسين الحسينى الأثرى الحنفى من لفظه فى العشر الآخر من جمادى الأولى عام احدى و سبعمائة بالقاهرة قال أخبرنى جدى الحسين بن محمد قال:

كنت فى زمن الصبا و أنا ابن سبع عشرة سنة أو ثمانى عشرة سنة سافرت مع أبى محمد، و عمى عمر من خراسان إلى بلاد الهند فى تجارة، فلما بلغنا أوائل بلاد الهند وصلنا إلى ضيعة من ضياع الهند، فعرّج القفل نحو الضيعة و نزلوا بها، و ضجّ أهل القافلة فسألناهم عن الشأن فقالوا: هذه ضيعة الشيخ رتن (اسمه بالهندية) و عرّبه الناس و سموه بالمعمّر لكونه عمّر عمرا خارجا عن العادة. فلما نزلنا خارج الضيعة رأينا بفنائها شجرة عظيمة تظلّ خلقا عظيما، و تحتها جمع عظيم من أهل الضيعة، فتبادر الكلّ نحو الشجرة و نحن معهم، فلما رآنا أهل الضيعة سلّمنا عليهم و سلموا علينا، و رأينا زنبيلا كبيرا معلقا فى بعض أغصان الشجرة، فسألنا عن ذلك فقالوا: هذا

الزنبيل فيه الشيخ رتن الذى رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم مرتين و دعا له بطول العمر ست مرات، فسألنا جميع أهل الضيعة أن ينزل الشيخ و نسمع كلامه، و كيف رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم و ما يروى عنه. فتقدم شيخ من أهل الضيعة إلى الزنبيل- و كان ببكرة- فأنزله فإذا هو مملوء بالقطن، و الشيخ فى وسط القطن، ففتح رأس الزنبيل و إذا الشيخ فيه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۴۵

كالفرخ، فحسر عن وجهه و وضع فمه على أذنه و قال: يا جدّاه هؤلاء قوم قد قدموا من خراسان و فيهم شرفاء أولاد النبى صلى اللّه عليه و سلّم و قد سألوا أن تحدثهم كيف رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم و ماذا قال لك. فعند ذلك تنفس الشيخ و تكلم بصوت كصوت النحل بالفارسية و نحن نسمع و نفهم كلامه فقال:

سافرت مع أبى و أنا شاب من هذه البلاد إلى الحجاز فى تجارة، فلما بلغنا بعض أودية مكة و كان المطر قد ملأ الأودية، فرأيت غلاما أسمر اللّون مليح الكون، حسن الشمائل و هو يرعى إبلا- فى تلك الأودية و قد حال السيل بينه و بين إبله و هو يخشى من خوض السيل لقوّته فعلمت حاله، فأتيت إليه و حملته و خضت السيل إلى عند ابله من غير معرفة سابقة، فلما وضعته عند ابله نظر إلىّ و قال لى بالعربيّة: بارك اللّه فى عمرك، بارك اللّه فى عمرك، بارك اللّه فى عمرك. فتركته و مضيت إلى سبيلى إلى أن دخلنا مكة و قضينا ما كنّا أتينا إليه من أمر التجارة و عدنا إلى الوطن، فلما تطاولت المدة على ذلك، كنا جلوسا فى فناء ضيعتنا هذه فى ليلة مقمرة رأينا البدر فى كبد السماء و قد انشقّ نصفين، فغرب نصف فى المشرق، و نصف فى المغرب ساعة زمانية، و أظلم الليل ثم طلع النصف من المشرق، و النصف الثانى من المغرب إلى أن التقيا فى وسط السماء و عاد كما كان أوّل مرّة، فعجبنا من ذلك غاية العجب، و لم نعرف لذلك سببا، و سألنا الركبان عن خبر ذلك و سببه فأخبرونا: أنّ رجلا هاشميا ظهر بمكة و ادّعى أنه رسول اللّه إلى كافة العالم، و أن أهل مكّة سألوه معجزة كمعجزة سائر الأنبياء، و أنّهم اقترحوا عليه أن يأمر القمر فينشق فى السماء و يغرب نصفه فى المغرب، و نصفه فى المشرق، ثم يعود إلى ما كان عليه ففعل لهم ذلك بقدرة اللّه تعالى. فلمّا سمعنا ذلك من السفار اشتقت (إلى أن أرى المذكور) فتجهزت فى تجارة و سافرت إلى أن دخلت مكة، و سألت عن الرجل الموصوف فدلّونى على موضعه، فأتيت إلى منزله و استأذنت عليه فأذن لى، و دخلت عليه فوجدته جالسا فى صدر المنزل و الأنوار تتلألأ فى وجهه و قد

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۴۶

(استثارت) محاسنه و تغيّرت صفاته التى كنت أعهدها فى السفرة الأولى فلم أعرفه. فلمّا سلّمت عليه نظر إلىّ و تبسّم و عرفنى و قال: و عليك السلام، أدن منّى، و كان بين يديه طبق فيه رطب، و حوله جماعة من أصحابه كالنجوم يعظّمونه و يبجّلونه، فتوقفت لهيبته، فقال ثانيا: أدن منى و كل فالموافقة من المروءة، و المنافقة من الزندقة. فتقدمت و جلست، و أكلت معهم من الرطب، و صار يناولنى الرطب بيده المباركة إلى أن ناولنى ست رطبات سوى ما أكلت بيدى. ثم نظر إلىّ و تبسّم و قال لى: ألم تعرفنى؟ قلت: كأنى، غير أنى ما تحققت، فقال لى: ألم تحملنى فى عام كذا و جاوزت بى السيل حين حال السيل بينى و بين ابلى، فعند ذلك عرفته بالعلامة، و قلت له: بلى و اللّه يا صبيح الوجه، فقال لى: أمدد يدك إلىّ، فمددت يدى اليمنى إليه فصافحنى بيده اليمنى و قال لى: قل أشهد أن لا اله إلّا اللّه و أشهد أن محمدا رسول اللّه، فقلت ذلك كما علّمنى. فسرّ بذلك و قال لى عند خروجى من عنده: بارك اللّه فى عمرك، بارك اللّه فى عمرك، بارك اللّه فى عمرك. فودعته و أنا مستبشر بلقائه و بالاسلام. فاستجاب اللّه دعاء نبيه صلى اللّه عليه و سلّم و بارك فى عمرى بكل دعوة مائة سنة، و ها عمرى اليوم نيف و ستمائة سنة ازداد عمرى بكلّ دعوة مائة سنة، و جميع من فى هذه الضيعة العظيمة أولاد أولاد أولاد أولادى، و فتح اللّه علىّ و عليهم بكلّ خير، و بكلّ نعمة ببركة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم. تم بالخير و الحمد للّه.

قال الصفدى بعد نقل ذلك: كأنى ببعض من يقف على حديث هذا المعمّر يداخله شك فى طول عمره إلى هذا الحدّ، و يراجع فى صدقه، و يتردد فيه و يقول: إن كان ذلك مبلغه من العلم تقليدا لزاعمه. إن التجربة دلّت على أن غاية سن النمو ثلاثون سنة، و غاية

سن الوقوف عشر فهذه أربعون. و يجب أن يكون غاية سنّ النقصان ضعف الأربعين المتقدمة، فيكون نهاية العمر مائة و عشرين سنة كما زعم الطبيعيون، و قالوا إنما صار زمان الفساد ضعف زمان الكون أمّا من السبب المادى فلأنّ فى زمان نقصان البدن تغلب اليبوسة على

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۴۷

البدن فتتمسك بالقوة، و أمّا من السبب الفاعلى فلأنّ الطبيعة تتأدى إلى الأفضل، و تتحامى عن الأنقص، أو كما زعم أصحاب النجوم من أنّ قوام العالم بالشمس، و سنوها الكبرى مائة و عشرين سنة فيقال له: ليس فى قول الطائفتين برهان قطعى يدلّ على أنّ نهاية عمر الإنسان هذا القدر، أو قدر معيّن غيره. و لقد جاءت الكتب الإلهية صلوات اللّه على من أنزلت عليه بإثبات الأعمار الطويلة للأمم السالفة، قال اللّه تعالى فى حقّ نوح (ع) «فلبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاما» و التوراة و الانجيل مطابقان للقرآن العظيم فى إثبات الأعمار الطويلة للآدميين، و الاصرار على إنكار ذلك دليل على الجهل.

و قال الشيخ أبو الريحان البيرونى فى كتابه المسمّى بالآثار الباقية عن القرون الخالية : و قد أنكر بعض أغمار الحشوية و الدهرية ما وصف من طول أعمار الأمم الخالية، و خاصة ما ذكر فيما وراء زمان ابراهيم الخليل عليه السلام.

و ذكر شيئا من كلام المنجمين، ثم حكى عن ما شاء اللّه أنه قال فى أول كتابه فى المواليد: يمكن أن يعيش أصحاب سنّى القران الأوسط إذا اتّفق الميلاد عند تحويل القران إلى الحمل و مثلثاته، و الدلالات كانت على مثل ما ذكرنا أن يبقى المولود سنى القران الأعظم و هى تسعمائة و ستون سنة بالتقريب حتى يعود القران إلى موضعه.

و حكى أيضا عن أبى سعيد بن شاذان فى كتاب مذاكراته مع أبى معشر فى الأسرار: أنه أنفذ إلى أبى معشر مولودا لابن ملك سرنديب و كان طالعه الجوزاء، و زحل فى السرطان، و الشمس فى الجدى، فحكم أبو معشر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۴۸

بأن يعيش دور زحل (الأوسط، و قال: هؤلاء أهل اقليم قد تقدم بهم الحكم بطول الأعمار و صاحبهم زحل، ثم قال أبو معشر: و بلغنى أن الإنسان إذا مات فيهم قبل دور زحل) تعجبوا من سرعة موته. انتهى كلام أبى الريحان.

قلت (و بقاء رتن المحكى عنه هذا العمر معجز لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم) ، و قد دعا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم لجماعة من أصحابه بكثرة الولد، و طول العمر و غير ذلك، مثل أنس بن مالك و غيره فبورك لهم فى أولادهم و عمرهم. و نقل أصحاب التاريخ أنّه مات فى عام و باء لأنس بن مالك سبعون ولدا أو أكثر، فغير بدع لمن يدعو له ست مرات أن يعمّر ستمائة سنة مع إمكان ذلك. غاية ما فى الباب أن نحن لم نشاهد أحدا وصل إلى ذلك، و عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول.

قال محمد بن عبد الرحمن بن على الزمرّدى الحنفى: و أخبرنى القاضى معين الدين عبد المحسن بن القاضى جلال الدين عبد اللّه بن هشام بالحديث السابق سماعا عليه قال: أخبرنى بذلك قاضى القضاة (نور الدين المذكور بالسند) المذكور فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، قال محمد الألفى: سألت شيخنا الحافظ الذهبى عن رتن الهندى فقال: هذا لا وجود له، بل هو اسم موضوع لأخبار مكذوبة، أو هو شيطان تبدّى لهم بصورة أنسىّ، زعم فى حدود الستمائة أنّه صحب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم فافتضح بتلك الأحاديث الموضوعة، و بكلّ حال ابليس أسنّ منه. و قد صنّفت فيه جزءا سمّيته كسر وثن بابا رتن ذكرت فيه طرق حديث رتن و ضعفها.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۴۹

انتهى ما قرأته فى تذكرة الصفدى.

و رأيت فى هامش النسخة التى نقلت منها بخط بعض الفضلاء ما صورته: و ممّا يؤيد كون هذا الحديث كذبا أنّه قال فى أوله فى وصف رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم: أسمر اللّون، و أنّه كان يرعى ابلا. الأوّل كذب باتفاق، و أما كونه كان يرعى ابلا فهذا ممّا لم

يعرف، و إنّما الذى يعرف أنّه كان يرعى الغنم لقوله صلى اللّه عليه و سلم: ما من نبىّ إلّا و رعى الغنم، قالوا: و أنت يا رسول اللّه؟ قال: و أنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة. انتهى.

و فى هامش النسخة المذكورة أيضا منقول عن خط برهان الدين بن جماعة ما مثاله: هذا الذى ذكره شيخنا الذهبى هو الحقّ، و ما صدّر به الصفدى (من تجويز الوقوع لا يقتضى الوقوع، فكم من جائز ليس بواقع.

و أمّا إنكار التردّد فيه و الشك فخبط لا يلتفت إليه، و الصواب عدم التردد فى بطلانه، و ليس الصفدى) من رجال هذا المقام. انتهى.

و فى أوائل المجلّد الثانى من الكشكول : الشيخ رضى الدين على لالا الغزنوى وفاته سنة اثنتين و أربعين و ستمائة. ذكر فى أواخر الثلث الأخير من النفحات: أن هذا الشيخ سافر إلى الهند، و صحب أبا الرضا رتن، و أعطاه رتن مشطا زعم أنّه مشط رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم. و ذكر فى النفحات أيضا أنّ هذا المشط كان عند علاء الدولة السمنانى كان وصل إليه من هذا الشيخ، و أن علاء الدولة لفّه فى خرقة، و لفّ الخرقة فى ورقة و كتب على الورقة بخطه: هذا المشط من أمشاط رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم وصلة من أبى الرضا رتن إلى هذا الضعيف. و ذكر أيضا:

أنّ علاء الدولة كتب بخطّه: أنّه يقال أنّ ذلك كان أمانة من الرسول صلى اللّه عليه و سلّم ليصل

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۵۰

إلى الشيخ رضى الدين لالا. انتهى كلام النفحات و فيه نظر و كلام طويل.

يظهر لمن رأى كلام صاحب القاموس فى لفظ (رتن) و فيه رمز يعرفه من يعرفه، فحلّه إن أطقت و السلام. انتهى كلام الكشكول، و هذا كلام صاحب القاموس: رتن (محركا) بن كربال بن رتن البترندى (قيل) أنه ليس بصحابى و إنّما هو كذاب ظهر بالهند بعد الستمائة، فادّعى الصحبة و صدّق، و روى أحاديث سمعناها من أصحاب أصحابه. انتهى و اللّه أعلم.

و كانت ملوك الاسلام بالهند ستة، كلّ واحد منهم قد احتوى على قطر من أقطارها و استبدّ بجهة من جهاتها. و من غريب ما يحكى عن بعضهم و هو السلطان محمد شاه بن السلطان تغلق، أن المولى جمال الدين بن حسام الدين الشاعر قصده من العجم و امتدحه بقصيدة، فلما حضر مجلسه و أنشد المطلع أمره السلطان المذكور أن يكفّ عن الإنشاد و قال: إنّى لا أطيق القيام بصلتك إن أنشدتها بتمامها، ثم أمر الغلمان أن يأتوا ببدر الدنانير و يصبّوها حوله حتّى تساوى رأسه، فصبّوها فلما ساوت الدنانير رأسه قام الشاعر، فأعجب السلطان قيامه، فأمر أن يزيدوا فى صبّ الدنانير حتى تساوى رأسه قائما ففعلوا.

و كانت وفاة السلطان المذكور سنة احدى و خمسين و سبعمائة.

و لم تزل ملوك الاسلام فى الهند منقسمين ستة أقسام إلى أن قويت شوكة السلطان محمد همايون، و كان أكبر ملوكها، فوطئهم جميعا و احتوى على جهاتهم و لم يقاومه أحد. و لم يبق من أولئك الملوك إلّا ملوك الدكن مع الطاعة له و الانقياد، و كانوا إذ ذاك أربعة، ثم جاء من خلف من أولاده فاحتووا على ملك ملكين منهم فبقى ملكان: أحدهما مولانا السلطان خلّد اللّه ملكه، و الثانى عادل شاه صاحب أرض كوكن المقدم ذكره، و أكثر بلاد الهند فى زماننا هذا فى حوزة ولد السلطان محمد همايون المذكور، و الملك فيهم من سنة اثنتين و ستين و تسعمائة، و هى السنة التى كسر فيها السلطان محمد همايون ملك دهلى و احتوى على ملكه، و لم يزل فى غاية من الأيد و الازدياد و القوّة

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۵۱

و السداد، لم يطمح إليه طاكح و لم يجمح عنه جامح، و الملك للّه الواحد القهار.

ما اختلف اللّيل و النّهار و لادارت نجوم السّماء فى الفلك

إلّا لنقل السّلطان من ملكقد زال سلطانه إلى ملك

و ملك ذى العرش لم يزل أبداليس بفان و لا بمشترك

لطيفة: كان الشيخ محمد بن حكيم الملك دخل الديار الهندية فلم يطب له بها مقام، فكتب إلى القاضى تاج الدين المالكى (*) بمكة المشرّفة كتابا يشكو فيه أحواله، منه:

رحلت عن كعبة البطحاء و الحرم، و نزلت بساحة قوم لا يدرون ما حماية الحرم، مثل من هو خارج من الأنوار إلى الظّلم، و نقلت من جوار البيت و سدنته إلى حيث خوار العجل و جوار عبدته، و استبدلت عن العكوف بالركن و المقام، الوقوف بين عبدة الأصنام، و هجرت مهابط الوحى و التنزيل و متردّد الروح الأمين جبرئيل، إلى مساقط أنداء الكفر و الضلال و مرابط الأنعام و الأفيال، و عوّضت بالمشاعر الاسلامية حيث فرض الفروض و السنن، معتكف أقوام يجرون فى رفض الفرائض على سنن، و بدّلت بزمزم و الحطيم و مقام ابراهيم، زمزمة البراهمة على الحطيم . بديار لا تطيب إلّا لمن خلع ربقة الاسلام من عنقه، و لا ينعم بها سوى من (انعم) فى تخويده إلى ميادين

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۵۲

الضلالة و عنقه . لا يصفو لى بها عيش، و لا ألتذّ بالحياة فى نعيم و لو أنّه على ما يقال: أيش و أيش.

كيف يلتذّ بالحياة معنّىبين أحشائه كورى الزّناد

فى قرى الهند جسمه و الاصيحابحجازا و القلب فى أجياد

أقاسى من متاعب الوحدة كلّ محنة و شدّة، و أعانى من أهوال الغربة كلّ غمّة و كربة،

فما غربة الإنسان فى شقّه النّوىو لكنّها واللّه فى عدم الشّكل

و إنّى غريب بين بست و أهلهاو إن كان فيها أسرتى و بها أهلى

انتهى. و من إنشاء بعض فضلاء المتأخرين و كتبه إلى بعض أصدقائه، و كانا بالهند، و قد تلطّف أيم اللّه:

إن اختصاصى الأكيد، و إخلاصى الذى ما عليه مزيد، و شوقى الذى لا يكاد يوصف، و مودّتى التى ضميرك منى بها أعرف (علّة تامة فى) سرعة النهوض و المبادرة إلى التشرّف بتلك الذات التى جمعت بين مزايا الأدب و مفاخره و لكن حال القضاء المبرم دون المراد، و أقعدنى عن القيام بهذا الموجب ما يقعد و يقيم من قواعد هذه البلاد. إذ ما من شخص إلّا و عليه رقيب عتيد و ما من نفس إلّا و يكنفها شاهد و شهيد. تضبط الحركات و السكنات بأقلام غير الكرام الكاتبين، و ترسم الدقيقة و الجليلة فى رقّ يقرأ من قرأه بأنّ عليكم

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۵۳

لحافظين . و جملة الأمر أن الحال كما قال من قال:

أتمشّى فى حذارمثل من يطلب صيد

و أنا المحبوس لكنليس فى رجلى قيد

انتهى. و من قواعد أهل الدكن المأثورة و رسومهم المشهورة اعتناؤهم بعشر محرّم الحرام، و إحياؤهم لتلك اللّيالى و الأيّام، فإنّهم منذ يستهلّون الشهر إلى أن تنقضى العشر لا يزالون فى مآتم من الأحزان و مآثر من الأشجان، ينصبون أعلاما قد جلّلوها بأنواع الحلل المزخرفة، و يعظّمونها و لا- تعظيم شعائر اللّه المشرّفة، و يلقون عليها من أقسام الفلول و الأزهار، ما يزدرى بنواضر الرياض ذوات الأنوار، فيقيمون عندها النوح و المآتم، و يحيون سننا قد افترضوها من فواتح و خواتم، فإذا أظلم الليل أجّجوا قريبا منها نارا يعظمون هولها، و يندبون الحسين عليه السلام و هم يطوفون حولها. و ما من بيت إلّا و قد نصبوا فيه جملة من هذه الأعلام، زاعمين أنّ ذلك من أقرب القرب و أعظم شعائر الاسلام. و كلّ منهم قد لبس ثوب الحداد، و تدرّع جلباب السّواد، و هم مع ذلك يجعلون حول هذه الأعلام من التماثيل ما يعدّ من الترهات و الأباطيل، و ينفقون على ذلك مئين و ألوف، لشأن عندهم معروف و مألوف، فترى الأرض حديقة أخذت زخرفها و ازّينت، و تنوعت (بريط) أزاهيرها و تلونت. فتبرز حينئذ ربّات الحجال إلى هذه المقترحات بين الرجال،

فيأخذ كلّ من ذوى اللّه و الشجو نصيبه المقسوم، و يتمتع كلّ من الفريقين بقيام هذه القواعد و الرسوم. و لهم فى هذه الأيام نوادر لا يبين عنها

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۵۴

البيان، و لا يفى بمعرفتها إلّا العيان. و هذا متعارف عند صغيرهم و كبيرهم، و مأمورهم و أميرهم.

و مما اتّفق لى نظمه فى عشر المحرم سنة أربع و سبعين فى لابس سواده كتبت به إلى صاحبنا العفيف عبد اللّه بن حسين الثقفى (*):

لا تقل البدر لاح فى الغسق‌هذا سواد القلوب و الحدق

إنسان عينى بدا بأسودهافعاد لى إذ رمقته رمقى

يا لابسا للسّواد طبت شذاما المسك إلّا من نشرك العبق

لبست لون الدّجى فسرّ و قدأغرت ضوء الصّباح فى الأفق

حتّى بدا فيه و هو منفلق‌يشقّ ثوب الظّلام من حنق

فأجاب و أجاد:

روحى فدا من أعاد لى رمقى‌لمّا بدا كالهلال فى الشّفق

يهتزّ كالغصن فى غلائله‌و يرشق القلب منه بالرّشق

قلت له مذ بدا يعاتبنى‌و يمزج الهزل منه بالحنق

لو أنصف الدّهر يا شفا سقمى‌ما بتّ أرعى النّجوم من أرق

لكن عسى عطفة نسرّ بهافيها سرور القلب و الحدق

و وقف على ذلك السيد الجليل الأيّد المثيل عبد اللّه بن محمد البحرانى فقال معارضا، و دخل هذه الحلبة راكضا:

أبدر تمّ بدا من الأفق‌عمّ جميع البلاد بالشّرق

أم سبت مهجتى محاسنه‌يختال فى ناعم من السّرق

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۵۵ أصبح من لبسه و طلعته‌يجمع بين الصّباح و الغسق

أبرزه لبسه السّواد لنابمنظر ذى ملاحة أنق

قد قلت لما رأيت صورته‌سبحان بارى الأنام من علق

و بتّ حتّى الصّباح فى أرق‌من هميان به و فى قلق

أعيذه و القوى تؤمّنه‌بالنّاس من شرّهم و بالفلق

ثم كتب إلىّ صاحبنا العفيف فى عشر المحرّم من السنة المذكورة.

بروحى مجبولا على الحبّ قلبه‌و قلبى مجبول على حبّه طبعا

يراقب أيّام المحرّم جاهداو يطلع بدرا و المحبّ له يرعى

كلفت به أيّام دهرى منصف‌و وجه الصّبا طلق و روض الهوى مرعى

جنينا ثمار الوصل من دوحة المنى‌ليالى لا واش و لا كاشح يسعى

فللّه أيّام تقضّت و لم تعديحقّ لعينى أن تسحّ لها دمعا

فأجبته بقولى:

بنفسى من قد حاز لون الدّجى فرعاو لم يكفه حتّى تقمّصه درعا

بدا فكأنّ البدر فى جنح ليلةتعلّم منه كيف يصدعه صدعا

نمته لنا عشر المحرّم جهرةيطارح أترابا تكنّفنه سبعا

تبدّى على رزء الحسين مسوّداو ما زال يولى فى الهوى كربلا منعا

و قد سلّ من جفنيه عضبا مهنّداكأنّ له فى كلّ جارحة وقعا

هناك رأيت الموت تندى صفاحهو ناعى الأسى و أهل الهوى صرعى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۵۶

و ما أحسن قول أحمد بن عيسى الهاشمى من ولد الواثق يعتذر من الكحل (فى يوم عاشوراء) .

لم أكتحل فى صباح يوماهريق فيه دم الحسين

إلّا لحزنى و ذاك أنّىسوّدت حتى بياض عينى

و قال آخر فى ذلك:

و لائم لام فى اكتحالىيوم أراقوا دم الحسين

فقلت دعنى أحقّ عضوفيه بلبس السّواد عينى

(غريبة) : نقلت من خط الصلاح الصفدى ما صورته: ذكر أنّ رجلا من أهل نجران احتفر حفيرة فوجد فيها لوحا من ذهب مكتوب فيه:

أيرجو معشر قتلوا حسيناشفاعة جدّه يوم الحساب

كتب ابراهيم خليل اللّه، فجاؤا باللوح إلى النبى صلى اللّه عليه و سلّم فقرأه ثم بكى و قال من آذانى فى عترتى لم تنله شفاعتى. انتهى.

(و من العجيب ما حكاه) أبو العباس ثعلب عن (السدّى) قال: أتيت كربلاء أبيع بضاعة لى فعمل لنا شيخ من طىء طعاما فتعشينا عنده، فذكر قتل الحسين (ع) فقلت: ما شرك فى قتله أحد إلّا مات بأسوء ميتة، فقال لى رجل:

ما أكذبكم يا أهل العراق، فأنا ممن شرك فى ذلك، فلم يبرح حتى دنا من

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۵۷

المصباح و هو يتقد بنفط، فذهب ليخرج الفتيلة باصبعه فأخذت النار فيها، فذهب يطفئها بريقه فأخذت النار بلحيته، فعدا إلى الفرات فألقى نفسه فى الماء فرأيته على الماء كأنه فحمة.

و يحكى عن الشيخ عماد الدين عبد اللّه بن الحسين بن النحاس أنه سئل يوم عاشوراء من قبل الملك الناصر صاحب حلب أن يذكر شيئا فى مقتل الحسين (ع) فصعد المنبر و جلس طويلا لا يتكلم، ثم وضع المنديل على وجهه و بكى و أنشأ يقول و هو يبكى:

ويل لمن شفعاؤه خصماؤهو الصّور فى (نفخ الخلائق) ينفخ

لا بدّ أن ترد القيامة فاطمو قميصها بدم الحسين مضمّخ

ثم نزل عن المنبر و هو يبكى، و صعد الصالحية و هو يبكى فأبكى الناس.

قال ابن الأثير: كان الشيخ عماد الدين المذكور فاضلا عالما فصيحا مشتغلا بالمطالعة و العبادة، و مما أنشد عند موته:

ما زلت تدأب فى التّاريخ مجتهداحتّى رأيتك فى التّاريخ مكتوبا

و من بديع المراثى فى الحسين (ع) قول أبى الحسين الجزار (*):

و يعود عاشوراء يذكرنىرزء الحسين فليت لم يعد

يوم سبيلى حين أذكرهأن لا يدور الصّبر فى خلدى

فليت عينا فيه قد كحلتممرود لم تخل من رمد

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۵۸ و يدا به لشماتة خضبتمقطوعة من زندها بيدى

أمّا و قد قتل الحسين بهفأبو الحسين أحقّ بالكمد

و خمس أبو الحسين المذكور قصيدتى أبى تمام (*) يرثى بهما الحسين (ع) أحدهما قوله (أصم بك الناعى و إن كان أسمعا) و الأخرى قوله (أى القلوب عليكم ليس ينصدع) و خمس الموفق الحكيم المعروف بالوركّ الدريديّة مرثية فيه (ع).

قال رزق اللّه بن عبد العزيز الحنبلى : اجتمعت بملحد المعرّة- يعنى أبا العلاء المعرى فقال لى: ما سمعت فى مراثى الحسين بن على عليهما السلام مرثية تكتب، فقلت قال بعض فلاحى بلادنا أبياتا تعجز عنها شيوخ تنوخ فقال: و ما هى؟ قلت: قوله :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۵۹ رأس ابن بنت محمد و وصيّهللمسلمين على قناة يرفع

و المسلمون بمنظر و بمسمعلا جازع فيهم و لا مسترجع

أيقظت أجفانا و كنت أنمتهاو أنمت عينا لم تكن بكّ تهجع رحلة ابن معصوم المدنى ؛ ص۲۵۹

ما روضة إلّا تمنّت أنّهالكّ تربة و لخطّ قبركّ موضع

(انتهى من شرح الرسالة للصفدى)

و قلت أنا أرثيه عليه السلام فى عشر محرم سنة اثنتين و سبعين:

نفسى الفداء لمقتول على ظمألم يسق إلّا بحدّ البيض و الأسل

نفسى الفداء له من هالكّ هلكتله الهداية من علم و من عمل

قرّت به أعين الأعداء شامتةو اسخنت أعين الأملاكّ و الرّسل

أفديه مستنصرا قد قلّ ناصرهو مستضاما قليل الخيل و الخول

يا صرعة صرعت شمّ الأنوف بهاو أصبح الدين منها عاثر الأمل

قد أثكلت بضعة المختار فاطمةو أوجعت قلب خير الأوصياء على

و أبدع الشريف الرضى (رض) (*) فى قوله من قصيدة يرثيه (ع):

كأنّ بيض المواضى و هى تنهبهنار تحكّم فى جسم من النّور

قال الصلاح الصفدى فى شرح الرسالة: قيل لابن الجوزى و هو على المنبر: كيف يقال: أنّ يزيد قتل الحسين (ع) و هو بدمشق، و الحسين قتل بكربلاء من أرض العراق؟ فأنشد:

سهم أصاب و راميه بذى سلممن بالعراق لقد أبعدت مرماكّ

و البيت للشريف الرضى من قصيدته التى أوّلها:

يا ظبية البان ترعى فى خمائلهليهنكّ اليوم أنّ القلب مرعاكّ

الماء عندكّ مبذول لشاربهو ليس يرويكّ إلّا مدمعى الباكى

)

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۶۰

و هذه لمعة من بوارق البيان، و زهرة من حدائق الاحسان ممّا جمعته يد الأقلام، و ابتزّته من صحائف الأعلام، آثرت إثباتها فى هذا التأليف تأليفا للنفوس، و تفويفا للطروس، و قد قيل: الشعر مؤتلف العقول، و مختلف النقول، و كفاه شرفا و فخرا (أنّ من الشعر لحكمة، و أن من البيان لسحرا).

و للّه درّ ابن أوس الطائى حيث يقول:

و لولا خلال سنّها الشعر ما دريبناة المعالى أين تبنى المكارم

فمن ذلكّ لمعن بن أوس المزنى .

لعمرك ما أهويت كفّى لريبةو لا حملتنى نحو فاحشة رجلى

و لا قادنى سمعى و لا بصرى لهاو لا دلّنى رأيى عليها و لا عقلى

و أعلم أنّى لم تصبنى مصيبةمن الدّهر إلّا قد أصابت فتى قبلى

بعض العرب:

و لا يشتكينى الجار إن سار ظاعناو لا يشتكى ابن العمّ غيبى و مشهدى

و إنّى إن أوعدته أو وعدتهلمخلف إيعادى و منجز موعدى

أبو الأسود الدؤلى (*) ينصح ابنه :

العيش لا عيش إلّا ما اقتصدت فإنو تسرف و تقتر لقيت الضرّ و العطبا

و العلم زين و تشريف لصاحبهفاطلب هديت فنون العلم و الأدبا

لا خير فيمن له أصل بلا أدبحتى يكون على ما زانه حدبا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۶۱ كم من حسيب أخى عىّ و طمطمةفدم لدى القوم معروف إذا انتسبا

فى بيت مكرمة آباؤه نجبكانوا رؤوسا فأمسى بعدهم ذنبا

و خامل مقرف الآباء ذى أدبنال المعالى بالآداب و الرّتبا

أصخى عزيزا عظيم الشّأن مشتهرافى خدّه صعر قد ظلّ محتجبا

العلم كنز و ذخر لا نفاد لهنعم القرين إذا ما صاحب صحبا

قد يجمع المرء مالا ثمّ يسلبهعمّا قليل فيلقى الذلّ و الحربا

و حامل العلم مغبوط به أبداو لا يحاذر منه الفوت و السّلبا

يا جامع العلم نعم الذّخر تجمعهلا تعدلنّ به درّا و لا ذهبا

أحمد بن أبى طاهر فى التوسط بين الدنيا و الدين (و قضاء حق كل منهما فى حينه) .

ركبت الصّبا حتى إذا ما ونى الصّبانزلت من التّقوى بأكرم منزل

و دين الفتى بين التّماسكك و النّهىو دنيا الفتى بين الهوى و التّعزّل

المعرّى (*):

لئن كنت تهوى العيش فابغ توسّطافعند التّناهى يقصر المتطاول

توقّى البدور النّقص و هى أهلّةو يدركها النّقصان و هى كوامل

آخر و أجاد ما شاء:

و ما الدّهر إلّا شرّه قبل خيرهو لذّات عيش غالبتها الفجائع

فثغر بأيّام المسرّة ضاحكو طرف بأيّام الحوادث دامع

بعض المحبين :

أحسنت ظنّك بالأيّام تلبسهاو لم تخف غبّ ما يأتى به القدر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۶۲ و سالمتك اللّيالى فاغتررت بهاو عند صفو اللّيالى يحدث الكدر

محمود الوراق :

أظهروا للنّاس سمتاو على المنقوش داروا

و له صلّوا و صامواو له حجّوا و ساروا

لو رأوه فى الثّريّاو لهم ريش لطاروا

أنشد أبو عبيدة لبعضهم:

أدن الرّجال على مقدار سعيهمو أعط كلّا بما أبلى و ما صبرا

و اعزم على الرّأى ما صحّت مذاهبهو ما تحيّرت فيه فاتبع الأثرا

ابن الرومى :

تغنون عن كلّ تقريظ بمجدكم‌غنى الظّباء عن التكحيل بالكحل

تلوح فى دول الاسلام دولتكم‌كأنّها ملّة الاسلام فى الملل

آخر و أجاد :

سقى اللّه أيّاما لنا لسن رجّعاعلينا و عصر العامريّة من عصر

ليالى أعطيت الصّبابة مقودى‌تمرّ اللّيالى و الشّهور و لا أدرى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۶۳

بعضهم :

لأشكرنّك معروفا هممت به‌أنّ اهتمامك بالمعروف معروف

و لا ألومك إن لم يمضه قدرفالشيء بالقدر المحتوم مصروف

بعض الأعراب فى الأدعية المرفوعة :

و سارية لم تسر فى الأرض تبتغى‌محلّا و لم يقطع لها السّير قاطع

سرت حيث لم تحد الركاب و لم تنخ‌لورد و لم يمنع لها السّير مانع

تسير وراء اللّيل و اللّيل ساقطبأرواقه فيه سمير و هاجع

إذا وردت لم يردد اللّه وردهاعلى أهلها و اللّه راء و سامع

نفتّح أبواب السّماوات دونهاإذا قرع الأبواب منهنّ قارع

و إنّى لأرجو اللّه حتّى كأنّماأرى بجميل الظّنّ ما اللّه صانع

فائدة: ذكر يعقوب بن اسحاق فى رسالة مقصورة على أوقات الدعاء:

أن القمر و عطارد إذا قارنا كوكب كفّ الخضيب كان وقتا للدعاء بالغنى و الشجاعة، و يستجاب له فى وسط عمره، و إن قارنه زحل بسعود سعد الداعى من أوسط عمره إلى آخره و إن كان منحوسا افتقر و ضعف، و ذلك أن من الأدعية ما ينعكس على داعية فيصير إلى ضد ما يرتجيه. كما يحكى أن أهل طبرستان أجدبوا أيام الحسن بن زيد العلوى فخرجوا يستسقون، فما فرغوا من دعائهم إلا و الحريق مضطرم فى أطراف البلد حتى قال أبو الغمر :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۶۴ خرجوا يسألون صوب غمامفأجيبوا بصيّب من حريق

جاءهمم ضدّ ما تمنّوه إذ جاءتقلوب محشّوة بفسوق

قال يعقوب: فإن قارن كف الخضيب المشترى نصر الداعى على ظالمه، و إن قارنته الزهرة أجيبت دعوته فى المال و قل عمره، و إن قارنه المريخ كان الداعى وقت دعائه ظالما من يدعو عليه و حرم الإجابة.

قلت: و هذا لا استبعاد فيه، فقد ذهب طائفة كثيرة من الأوائل و الأواخر إلى أنه إذا استعين فى الأدعية بأشكال من الكواكب فى أوقات مسعودة كانت مؤثرة و مرجوة، و هو كما يستعان فيها بتجريد الفكر و تصحيح النية و البروز فى الجماعات إلى الصحارى و غير ذلك، و اللّه أعلم، و ما أحسن قول القائل:

أتلعب بالدّعاء و تزدريهفسوف يبين ما صنع الدّعاء

سهام اللّيل لا تحظى و لكنّلها أمد و للأمد انقضاء

عروة بن حزام :

جعلت لعرّاف اليمامة حكمهو عرّاف نجد إن هما شفياني

فما تركا من سلوة يعرفانهاو لا رقية إلّا بها رقياني

فقالا شفاك اللّه و اللّه ما لنابما ضمّنت منك الضّلوع يدان

آخر:

أعلّل بالمنى قلبى لأنّىأذود الهمّ بالتّعليل عنّى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۶۵ و أعلم أنّ وصلك لا يرجّىو لكن لا أقلّ من التّمنّى

مجنون ليلى (*):

أمانىّ من ليلى حسان كأنّماسقتنى بها ليلى على ظمأ بردا

منى إن تكن حقّا تكن غاية المنىو إلّا فقد عشنا بها زمنا رغدا

بعضهم:

قلت لعبدى إذ عصانى و لم‌ينته عمّا كنت أنهاه

عصيت مولاك اقتداء به‌كما عصى مولاك مولاه

الشيخ كمال الدين ميثم البحرانى .

جمعت فنون العلم أبغى بها العلىفقصّر بى عمّا سموت به القلّ

فقد بان لى أنّ المعالى بأسرهافروع و أنّ المال فيها هو الأصل

قلت: بل الأمر أعظم من هذا، فقد قيل: ربّما يقدح فى عدالة الرجل اقلاله، كما يحكى أنّ محمد بن عبد الرحمن بن الأسود شهد عند ابن أبى ليلى شهادة فتوقّف فى شهادته مع أنّه نسيج وحده فى زمانه. قال سفيان بن عيينة فناظرته و قلت: أنّى لك بالكوفة رجل مثله؟ قال: هو كذلك إلّا أنّ الذى شهد به عظيم، و الرجل فقير. فأعجبنى هذا من قوله.

و قال آخر من أبيات :

ذرينى للغنى أسعى فإنّىرأيت الناس شرّهم الفقير

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۶۶ و أبعدهم و أهونهم عليهمو إن أمسى له حسب و خير

القاضى أبو الحسن :

ما تطعّمت لذّة العيش حتّىصرت فى وحدتى لكتبى جليسا

ليس شىء أجلّ عندى من نفسىفلم أبتغ سواها أنيسا

إنّما الذلّ فى مداخلة النّاسفدعها و عش كريما رئيسا

بعضهم و أجاد:

أناس أمّناهم فنمّوا حديثنافلمّا كتمنا السرّ عنهم تقوّلوا

و لم يحفظوا الودّ الذى كان بيننا و لا حين همّوا بالقطيعة أجملوا

عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر :

خليلىّ لو كان الزّمان مساعدىو آذيتمانى لم يضق عنكما صدرى

فأمّا إذا كان الزّمان معاندىفلا تصبحا عونا علىّ مع الدّهر

و هو من قول بعضهم: ليسع الرجل فى اخوانه أن يكون جارا لهم من الحدثان، فإن لم يمكنه فليجهد أن لا يكون عليهم مع الزمان.

ولى قريب من هذا المعنى من قصيدة:

اللّه لى من واعد وعده كذب و فى الانجاز من يلمع

يمنعنى العذب و لمّا يزلينهلنى بالآجن المنقع

مال مع الدّهر على روعتىو لم يمل يوما عليه معى

المبرّد :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۶۷ و كنت إذا الصّديق أراد غيظىو أشرقنى على حنق بريقى

غفرت ذنوبه و كظمت غيظىمخافة أن أعيش بلا صديق

و هو من قول بشّار :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذىظمئت و أىّ النّاس تصفو مشاربه

فعش واحدا أوصل أخاك فإنّهمقارف ذنب مرّة و مجانبه

و لكثّير (*) فى المعنى .

و من لم يغمّض عينه عن صديقهو عن بعض ما فيه يمت و هو عاتب

و من يتتبّع جاهدا كلّ عثرةيجدها و لم يسلم له الدّهر صاحب

و من كلام ابراهيم النخعى : لا تقطع أخاك و لا تهجره عند الذنب فإنه يركبه اليوم و يتركه غدا. و هو من الحديث (اتقوا زلة العالم و لا تقطعوه، و انتظروا فيئته).

و يحكى أن أخوين فى السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه: ألا تقطعه و تهجره؟ فقال: أحوج ما كان إلىّ فى هذا الوقت، و أنا حقيق بأن آخذ بيده، و أتلطّف له فى المعاتبة، و أدعو له بالعود إلى ما كان عليه. و فى شعر عمر بن أبى ربيعة (*) زيادة على هذا، و هو:

و خلّ كان عين النّصح منّىو مستمعا لما أهوى سميعا رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۶۸ أطاف بغيّه فنهيت عنهاو قلت له أرى أمرا شنيعا

أردت رشاده جهدى فلمّاأبى و عصى أتيناها جميعا

و ممّا يستملح من كلام بعضهم: يستحب من الخريف الخصب، و من الربيع الزهر، و من الجارية الملاحة، و من الغلام الكيس، و من الصاحب الرفق، و من القريب الانبساط، و من الغريب الانقباض.

و قيل: لا شىء أسوأ لصحبة الأحرار من هتك أعراضهم، فإن الحرّ لا يرضيه عن عرضه شىء.

و على ذلك يحكى: أنّه كان للفضل بن يحيى كاتب نافذ فى صناعته، فبينما الفضل يوما قد خلا به فى بيت يملى عليه كتابا و يخفض صوته، فاحتاج الكاتب أن يستفهمه ما يخفى عليه من كلامه فاستعاده حرفين، فشق ذلك على الفضل، فقال للكاتب: كم تستعيدنى يا بيطار؟ و كان الفضل صلفا تيّاها بنفسه. فلما قال للكاتب هذا القول ألقى قلمه فى دواته و أطبقها و قال للفضل:

بهذا تعاشر الأحرار، و هذا ما كنت أرجو منك؟ فندم الفضل على ما كان منه و قال له: عد إلى كتابك. فحلف الكاتب بأغلظ الأيمان لا يكتب له أبدا، فقلق الفضل من ذلك، و دار بينهما كلام كثير، و تأدّى الخبر إلى يحيى بن خالد، فركب من ساعته حمارا مصريا كان يركبه من داره إلى دار ولده. فما شعر الفضل إلّا أن هجم عليه. فلما رأى أباه قام و قعد يحيى فى الصدر، و جلس الفضل، ثم أمر الكاتب أن يجلس و قال: فبماذا أنتم؟ فقال الفضل: كنت أملى عليه كتابا، قال: بلغنى الخبر، و صدق الرجل. فإنّ الملوك لا يخدمون

إلّا للاعتزاز بهم، فإذا أسمعت كاتبك مثل هذا الكلام و أوغرت صدره فبماذا تجتلب نصحه؟ ثم أقبل على الكاتب و قال: قد أعفيناك مما كرهت، و أمرنا لك بمائة ألف درهم. فاختلف إلينا لنشغلك فى بعض الأعمال التى تصلح لها.

بعضهم :

إن كنت تبغى العلم أو أهلهو شاهدا يخبر عن غائب

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۶۹ فاعتبر الأرض بأسمائهاو اعتبر الصّاحب بالصّاحب

آخر:

ألا ربّ باغى حاجة لا ينالهاو آخر قد تقضى له و هو آيس

يكدّ لها هذا و تقضى لغيرهو تأتى الذى تقضى له و هو جالس

آخر:

إذا كان جدّ المرء فى الأمر مقبلاتأتّت له الأشياء من كلّ جانب

و إن أدبرت دنياه يوما توعّرتعليه فأعيته وجوه المطالب

آخر:

نهاية أهواء القلوب بعيدةو من دونها للحادثات مصائد

فنحن كطير يبتغى الحبّ مسرعاو دون الذى يبغيه فخّ و صائد

لطيفة: قيل: أنّ عصفورا بلغ إلى فخّ موضوع فى التراب، فقال له العصفور: من أنت؟ قال: عبد من عبيد اللّه، قال: فلم جلست على التراب؟

قال: تواضعا، قال: فلم انحنى ظهرك؟ قال: من خشية اللّه، قال: فلم شددت وسطك؟ قال: للخدمة، قال: فما هذه القصبة؟ قال: هذه عصاى أتوكأ عليها، قال: فما هذه الحبّة؟ قال حبّة أتصدّق بها، فقال العصفور: أتجوّز لى أن التقطها؟ فقال الفخّ إن احتجت فافعل، فدنا العصفور من الحبّة فانطبق عليه الفخ و أخذ بحلقه، فقال العصفور: حيق حيق، فقال له الفخّ: قل ما شئت فما لخلاصك من سبيل، فقال العصفور: اللهم إنى أعوذ بك من شخص ذاك قوله و هذا فعله.

لبعضهم:

يجدّ بنا الزّمان و نحن نلهوو لا ندرى متى يرد الحمام

و يخدعنا الهوى فى ظلّ عيشيمرّ بنا كما مرّ الغمام

كركب سفينة فى لجّ بحرتسير بهم و هم فيها نيام

آخر:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۷۰ تقول سليمى ما لجسمك شاحباو وجهك أضحى ساهم اللّون أغبرا

فقلت لها يا سلم من كان همّه كهمّى و لاقى ما لقيت تغيّرا

آخر :

خليلىّ لو أنّ همّ النّفوس دام عليها قليلا قتل

و لكنّ شيئا يسمّى السّرورقديما سمعنا به ما فعل

آخر:

باتا بأنعم عيشة حتّى بداصبح تألّق كالأغرّ الأشقر

آخر:

لا ذا أتى طلبا و لا ذا يأتلى‌هربا فذا تعب و ذا مكدود

كاللّيل يطلبه النّهار بضوئه‌و ظلامه بضيائه مطرود

آخر:

ما للمعيل و للمعالى إنّمايسعى اليهنّ الدّؤوب الفارد

كالشّمس فى أفق السّماء تجوبهاو أبو البنات النّعش فيها راكد

آخر:

قد كنت أعذل فى الصّبابة أهلهافاعجب لما تأتى به الأيّام

و اليوم أعذرهم و أعلم إنّماسبل الغواية و الهدى أقسام

آخر:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۷۱ بلوت أخلّاء هذا الزّمان‌فأقللت بالهجر منه نصيبى

و كلّهم إن تأمّلتهم‌صديق العيان عدّو المغيب

آخر :

الصبر مفتاح ما يرجّى‌و كلّ صعب به يهون

فاصبر و إن طالت اللّيالى‌فربّما أمكن الحرون

و ربّما نيل باصطبارما قيل هيهات لا يكون

بعضهم:

ما عضّنى زمن إلّا لبست له‌ثوبا من الصّبر لا يبلى على الزّمن

إنّ الكريم إذا نابته نائبة‌ألفيته و جميل الصّبر فى قرن

حاضر، مولى يحيى بن عبد اللّه بن الحسن :

تعوّدت مسّ الضرّ حتى ألفته‌و أسلمنى حسن العزاء إلى الصّبر

و صيّرنى يأسى من النّاس واثقابحسن صنيع اللّه من حيث لا أدرى

و وسّع صدرى بالأذى كثرة الأذى‌و قد كنت أحيانا يضيق به صدرى

إذا أنا لم أقبل من الدّهر كلّ ماتكرّهت منه طال عتبى على الدهر

التهامى :

للّه درّ الحادثات فإنّهاصدأ اللّئام و صيقل الأحرار

ما كنت إلّا زبرة فطبعننى‌سيفا و أطلق حدّهنّ غرارى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۷۲

آخر :

لقد فارق الناس الأحبّة قبلناو أعيا دواء الموت كلّ طبيب

فربّ كئيب ليس تذرى جفونه‌و ربّ كثير الدّمع غير كئيب

آخر:

لقد خفت حتّى لو تمرّ حمامةلقلت عدوّ أو طليعة معشر

فإن قيل خير قلت هذى خديعةو إن قيل شرّ قلت حقّ فشمّر

مجنون ليلى (*) .

قضى اللّه حبّ العامرية فاصطبرعليه و قد تجرى الأمور على قدر

ألا ليقل من شاء ما شاء إنّمايلام الفتى فيما استطاع من الأمر

محبّ آخر:

و إنّى لصبّار على كلّ حادثو لكنّنى من خطّة البين أجزع

و من ذا يطيق الصّبر بعد خليلهو من ذا لوشك البين لا يتضعضع

آخر:

إذا ما دجاها اللّيل كنّا كواكباجلوسا حواليها و كانت هى البدر

سهاد و لكن دونه لذّة الكرىو ليل و لكن دون إشراقه الفجر

آخر :

لحى اللّه من لا ينفع الودّ عندهو من حبله إن مدّ غير متين

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۷۳ و من هو ذو لونين ليس بدائمعلى العهد خوّان لكلّ أمين

ابن نباتة السعدى (*):

فلا تحقرنّ عدوّا رماكو إن كان فى ساعديه قصر

فإنّ السيوف تحزّ الرّقابو تعجز عمّا تنال الأبر

آخر :

و قائل فيم تهاجرتمافقلت قولا فيه إنصاف

لم يك من شكلى ففارقتهو الناس أشكال و الّاف

آخر :

لن يدرك المجد أقوام و إن كرمواحتّى يذلّوا- و إن عزّوا- لأقوام

و يشتموا فترى الألوان مسفرةلا صفح ذلّ و لكن صفح أحلام

آخر :

فإن لا أكن أهلا لما أنت أهلهفأنت أمير المؤمنين له أهل

ففضلك أرجو لا البراءة إنّهأبى اللّه إلّا أن يكون لك الفضل

قيس بن الخطيم :

و ما بعض الإقامة فى دياريهان بها الفتى إلّا عناء

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۷۴ يريد المرء أن يعطى مناهو يأبى اللّه إلّا ما يشاء

و كلّ شديدة نزلت بقومسيأتى بعد شدّتها رخاء

ابن المعتز :

من لى بقلب صيغ من صخرةفى جسد من لؤلؤ رطب

جرحت خدّيه بلحظى فمابرحت حتّى اقتصّ من قلبى

آخر :

و جاؤا إليه بالتّعاويذ و الرّقىو صبّوا عليه الماء من ألم النّكس

و قالوا به من أعين الجنّ نظرةو لو علموا قالوا به نظرة الأنس

المجنون (*):

لقد هتفت فى جنح ليل حمامةعلى فنن تبكى و إنّى لنائم

كذبت و بيت اللّه لو كنت عاشقالما سبقتنى بالبكاء الحمائم

و له:

إلى اللّه أشكو نيّة شقّت العصاهى اليوم شتّى و هى أمس جميع

مضى زمن و الناس يستشفعون بىفهل لى إلى ليلى الغداة شفيع

بعضهم و أجاد :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۷۵ لقد كان حسب النّفس لو دام وصلناو لكنّما الدّنيا متاع غرور

و كنّا قديما قبل أن تظهر النّوىبأحسن حال غبطة و سرور

فما برح الأيّام حتى بدت لنابطون الهوى مقلوبة لظهور

أبو فراس :

فإنّك لا عدمتك العلىأخ لا كأخوة هذا الزّمان

كسونا أخوّتنا بالصّفاءكما كسيت بالكلام المعانى

فائدة: تارة يجعل المعنى ظرفا للّفظ من جهة كونه حاصرا له آخذا بجوانبه، بحيث لا يخرج ظرف من اللفظ عن ظرف المعنى و هو أمر شائع.

يقال: هذه الآية فى حكم كذا، و هذا الكتاب فى علم كذا، و هذه القصيدة فى مدح فلان. و تارة يجعل اللفظ ظرفا للمعنى كما يقال: هذه المسألة فى كتاب كذا، و هو ظاهر حتى شاع أنّ الألفاظ أوعية للمعانى و قوالب لها، و بمنزلة الكسوة و اللباس كما فى بيتى أبى فراس المذكورين و اللّه أعلم.

بعضهم:

و أصعب ما يلقى الفتى فى زمانهإذا حلّ نجم السّعد فى برج نحسه

أقامته فى أرض من لا يودّهو صحبته مع غير أبناء جنسه

آخر :

و إذا تكامل للفتى من عمرهخمسون و هو إلى التّقى لا يجنح

عكفت عليه المخزيات فما لهمتأخّر عنها و لا متزحزح

و إذا رأى الشّيطان صورة وجههحيّى و قال فديت من لا يفلح

آخر :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۷۶ عجبا للزّمان فى حالتيهو بلاء دفعت منه إليه

ربّ يوم بكيت منه فلمّاصرت فى غيره بكيت عليه

ابن النجم الواعظ:

تحسّن بأفعالك الصّالحاتو لا تحفلنّ بحسن جليل

فحسن النّساء جمال الوجوهو حسن الرّجال وجوه الجميل

آخر :

و كنت متى أرسلت طرفك رائدا[لقلبك] يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذى لا كلّه أنت قادرعليه و لا عن بعضه أنت صابر

بعض الأعراب:

أبعد عشر قد خلا بعدهاعشرون عاما بعدها عشر

تلهو عن الجدّ و ترضى الهوىو تطّبيك الكاعب البكر

الحمدانى الموصلى :

يا رسول الحبيب و يحك قد ألقى عليك الحبيب حسنا و طيبا

و لقد كدت أن أضمّك لولاأن يسىء الظّنون أو يستريبا

خيفة أن يكون ذاك كما قيل قديما صار الرّسول حبيبا

بعضهم:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۷۷ على هذه الأيّام ما تستحقّهفكم قد أضاعت منك حقّا مؤكّدا

فلو أنصفت شادت محلّك بالسّهاعلوّا و صاغت شسه نعلك عسجدا

ابن خفاجة (*):

لقد جبت دون الحىّ كلّ تنوفةيحوم بها نسر السّماء على وكر

و خضت ظلام اللّيل يسودّ فحمهو دست عرين اللّيث يتظر عن جمر

و جئت ديار الحىّ و الليل مطرف‌منمنم ثوب الأفق بالأنجم الزّهر

أشيم بها برق الحديد و ربّماعثرت بأطراف المثقّفة السّمر

فلم ألق إلّا صعدة فوق لامةفقلت قضيب قد أطلّ على نهر

و لا شمت إلّا غرّة فوق شقرةفقلت حباب يستدير على خمر

و سرت و قلب الأفق يخفق غيرةهناك و عين النّجم تنظر عن شزر

أبو البركات على بن الحسين الديباج :

و أغيد سحّار بألحاظ عينهحكى لى تثنّيه من البان املودا

سلخت بذكراه عن الصّبح ليلةأسامره و الكأس و الناى و العودا

ترى أنجم الجوزاء و النّجم فوقهاكباسط كفّيه ليقطف عنقودا

القاضى على بن الحسين بهراة:

ربّما قصّر الصّديق المقلّعن حقوق بهنّ لا يستقلّ

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۷۸ و لئن قلّ نائل فوفاءفى وداد و خلّة لا يقلّ

أرخ سترا على حقارة ودّىهتك ستر الصّديق ليس يحلّ

الأحوص :

إذا رمت عنها سلوة قال شافع‌من الحبّ ميعاد السلوّ المقابر

سيبقى لها فى مضمر القلب و الحشاسرائر حبّ يوم تبلى السّرائر

مما استملح من كلام الصابى فى الخضاب قوله:

خضاب تقاسمناه بينى و بينهاو لكنّ شأنى فيه خالف شأنها

فيا قبحه إذ حلّ منّى بمفرقىو يا حسنه إذ حلّ منها بنانها

و سحقا له فى لمّتى حيث شانهاو أهلا به فى كفّها حيث زانها

و أطرب لقول مهيار الديلمى (*) فى الشيب:

قالوا المشيب لبسة جديدةخذوا الجديد و استردّوا لى الخلق

جميل بثينة :

و إنّى لأرضى من بثينة بالّذىلو أبصره الواشى لقرّت بلابله

بلا و بألّا أستطيع و بالمنىو بالوعد حتّى يسأم الوعد آمله

و بالنظرة العجلى و بالحول تنقضىأواخره لا نلتقى و أوائله

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۷۹

بعضهم:

لم يعطك اللّه ما أعطاك من نعمإلّا لتوسع من يرجوك إحسانا

و إن منعت فأخلق أن تصادفهاتطير عنك زرافات و وحدانا

آخر :

إذا أعجبتك خصال امرئفكنه يكن فيك ما يعجبك

فليس على المجد و المكرماتإذا شئتها حاجب يحجبك

آخر :

يخوض أناس فى الكلام ليوجزواو للصّمت فى بعض الأحايين أوجز

إذا كنت عن أن تحسن الصّمت عاجزافأنت عن الابلاغ فى القول أعجز

النعيمى :

إذا أضمأتك أكفّ اللّئام كفتك القناعة شبعا وريّا

فكن رجلا رجله فى الثّرىو هامة همّته فى الثّريّا

أبيّا بنفسك عن باخل تراه بما فى يديه أبيّا

فإن إراقة ماء الحياةدون إرقة ماء المحيّا

آخر :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۸۰ إذا ختتم بالغيب عهدى فما لكم تدلّون إدلال المقيم على العهد

صلوا و افعلوا فعل المدلّ بوصلهو إلّا فصدّوا و افعلوا فعل ذى الصّدّ

آخر:

ما للمطيع هواهمن الملام ملاذ

فاختر لنفسك هذامجد و هذا التذاذ

ابن النجم الواعظ من أبيات كتبها إلى بعض أصدقائه:

فلا تحسبوا أنّى تغيّرت بعدكمعن العهد لا كان المغيّر للعهد

غرامى غرامى و الهوى ذلك الهوىو وجدى بكم وجدى و ودّى لكم ودّى

و ليس محبّا من يدوم وداده‌مع الوصل لكن من يدوم مع الصّدّ

آخر:

مررنا بأكناف العقيق فأعشبتأباطح من أجفاننا و مسايل

فمن واقف فى جفنه الدمع واقفو من سائل فى خدّه الدمع سائل

تأسّ بيأس أو تعزّ بسلوةفما لك فى أطلال عزّة طائل

عمر بن الوردى :

ودّعتنى يوم الفراق و قالتو هى تبكى من لوعة الافتراق

ما الذى أنت صانع بعد بعدىقلت قولى هذا لمن هو باق

بعضهم :

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۸۱ الدهر لا يبقى على حالةلكنّه يقبل أو يدبر

فإن تلقّاك بمكروههفاصبر فإنّ الدّهر لا يصبر

آخر :

لقد شاع عنّى حبّ ليلى و إنّنى كلفت بها شوقا و همت بها وجدا

و واللّه ما حبّى لها جاز حدّهو لكنّها فى حسنها جازت الحدّا

الصفىّ الحلىّ رحمه اللّه:

إذا لم أبرقع بالحيا وجه عفّتىفلا أشبهته راحتى فى التّكرّم

و لا كنت ممّن يكسر الجفن فى الوغىإذا أنا لم أغضضه عن كلّ محرم

الشريف الرضى (*):

أأبقى كذا نضو الهموم كأنّماسقتنى اللّيالى من عقابيلها سمّا

و أكبر آمالى من الدّهر أنّنىأبيت خليّا لا سرورا و لا همّا

أكرّ أحاديث المطامع ضلّةو القح من هذى المنى أبطنا عقما

فلا جامعا مالا و لا مدركا علاو لا محرزا أجرا و لا طالبا علما

بأرجوحة بين الخصاصة و الغنىو منزلة بين الشّقاوة و النّعمى

و له رحمه اللّه:

عارضا بى ركب الحجاز أسائله متى عهده بأيّام جمع

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۸۲ و استملّا حديث من سكن الخيف و لا تكتباه إلّا بدمعى

فاتنى أن أرى الدّيار بطرفىفلعلّى أرى الدّيار بسمعى

عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر (*):

إلى كم يكون العتب فى كلّ ساعةو كم لا تملّين القطيعة و الهجرا

رويدك إنّ الدّهر فيه كفايةلتفريق ذات البين فانتظرى الدهرا

بعضهم و أجاد:

كأنّك لم تسمع بأخبار من مضىو لم تر بالباقين ما يصنع الدّهر

فإن كنت لا تدرى فتلك ديارهمعفاها فحالت بعدك الريح و القطر

و هل أبصرت عيناك حيّا بمنزلعلى الدّهر إلّا بالعراء له قبر

فلا تحسبنّ الوفر مالا جمعتهو لكنّ ما قدّمت من صالح وفر

مضى جامعو الأموال لم يتزوّدواسوى الفقر يا بوسى لمن زاده الفقر

فحتّام لا تصحوا و قد قرب المدىو حتّام لا ينجاب عن قلبك السّكر

بلى سوف تصحو حين ينكشف الغطاو تذكر قولى حين لا ينفع الذكر

فصبرا على الأيّام حتّى تجوزهافعمّا قليل بعدها يحمد الصّبر

آخر :

غنينا بنا عن كلّ من لا يريدناو إن كثرت أوصافه و نعوته

و من صدّ عنّا حسبه الصّدّ و القلىو من فاتنا يكفيه أنّا نفوته

الجمال ابن نباتة (*):

يا مشتكى الهمّ دعه و انتظر فرجاو دار وقتك من حين إلى حين

و لا تعاند إذا أمسيت فى كدرفإنّما أنت من ماء و من طين

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۸۳

ابن القوبرة:

كانت دموعى حمرا قبل بينهمفمذ نأوا قصّرتها لوعة الحرق

قطفت باللّحظ وردا من خدودهمفاستقطر البعد ماء الورد من حدقى

ليلى فى صاحبها المجنون :

ألا ليت شعرى و الخطوب كثيرةمتى رحل قيس مستقلّ فراجع

بنفسى من لا يستقلّ بنفسهو من هو إن لم يحفظ اللّه ضائع

بعضهم:

و أعظم من مصيبات اللّيالىعلىّ و صرفها خلّ خؤون

يقابلنى بودّ مستميلو بين ضلوعه داء دفين

إذا عاتبته أبدى مجوناو علّة ذلك العتب المجون رحلة ابن معصوم المدنى ؛ ص۲۸۳

و من جعل السّموم له دواءفيوشك أن يفاجئه المنون

أهمّ بأن أحابيه فيأبىعلىّ الأصل و العرض المصون

أرى هزل الكلام المحض غثّافيردعنى عن الغثّ السّمين

و لم يزعج زئير اللّيث حلمىأيزعجه من الذرّ الطّنين

الوزير أبو محمد ابن سفيان :

نفسى فداك و عدتنى بزيارةفظللت أرقبها إلى الامساء

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۸۴ حتى رأيت قسيم وجهك طالعالم تنتقصه غضاضة استحياء

ابن بقىّ (*):

و فتية لبسوا الأدراع تحسبهاسلخ الأراقم إلّا أنّها رسب

إذا الغدير كسا أعطافهم حلقاطفا من البيض فى هاماتهم حبب

ابن باجة :

ايه يا برق قل حديثك عن نجدفحيّا الإله عنّى نجدا

قل و إن كان ما تحدّثه زورافقد تبرد الأسى و الوجد

و له :

أسكّان نعمان الأراك تيقّنوابأنّكم فى ربع قلبى سكّان

و دوموا على حفظ الوداد فإنّنابلينا بأقوام إذا أتمنوا خانوا

سلوا اللّيل عنّى مذ تناءت دياركمهل اكتحلت لى فيه بالنّوم أجفان

و هل أغمدت يوما سيوف بروقكمفكانت لها إلّا جفونى أجفان

الإمام الخطيب جنيد بن الحسن :

روت لى أحاديث الغرام صبابتىبإسنادها عن بانة العلم الفرد

و حدّثنى مرّ النّسيم عن الحمىعن الدّوح عن وادى الغضا عن ربى نجد

عن الدمع عن جفنى القريح عن الجوىعن الشّوق عن قلبى الجريح عن الوجد

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۸۵ بأنّ غرامى و الأسى قد تلازمافلن يبرحا حتّى أوسّد فى لحدى

نصر ابن أحمد الخبز أرزى :

كم أناس وفوا لنا حين غابواو أناس جفوا و هم حضّار

عرضوا ثم أعرضوا و استمالواثم مالوا و جاوروا ثمّ جاروا

لا تلمهم على التّجنّى فلو لمْيتجنّوا لم يحسن الاعتذار

الشريف الرضى (*) :

أترى الأحباب مذ ظعنواوجدوا للبين ما أجد

كان زورا بعد بينهمو غرورا ذلك الجلد

و متى يدن النّوى بهمْيجدوا قلبى كما عهدوا

(الأخ الأعز المحرز من فنون المجد ما غلا و عز، محمد يحيى (*) أحياه اللّه أعزّ محيا، و كتبه إلى بعض أصدقائه) :

و ما شوق مقصوص الجناحين مقعدعلى الضيم لم يقدر على الطّيران

بأكثر من شوقى إليك و إنّمارمانى بهذا البعد عنك زمانى

و له بلّغه اللّه أمله:

تجمّل فميعاد الفراق قريبو ما نحن إلّا ساعة و نغيب

هو الدهر لا ينفكّ يا أمّ مالكتذوب لما يبديه منه قلوب

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۸۶ سلوا كلّ ذى حبّ أدام له الهوىو ساعفه فيما أراد حبيب

ألا لا سقى اللّه الحمائم إنّهاإذا ما شدت دمعى لهنّ مجيب

تذكّرنى أيّام ظمياء و الصّبافأطرب شوقا و الكريم طروب

أبيت و فى قلبى من الشّوق لوعةو كم مثلها عندى جوى و كروب

و له :

ألا لا سقى اللّه البعاد و جورهفإنّ قليلا منه عنك خطير

و واللّه لو كان التّباعد ساعةو أنت بعيد أنّه لكثير

و له :

ألا يا زمانا طال فيه تباعدىأما رحمة تدنو بها و تجود

لألقى الّذى فارقت أنسى مذ نأىفها أنا مسلوب الفؤاد فريد

و له :

تذكّرت أيّام الحجيج فأسبلتجفونى دماء و استجدّ بى الوجد

و أيّامنا بالمشعرين التى مضتو بالخيف إذ حادى الرّكاب بنا يحدوا

و له:

من لصبّ متيّمفصم الدّهر صبره

يتمنّى وصال منقد قضى اللّه هجره

قل لأسماء كلّ ماكان أرضاك سرّه

كيفما شئت فأمرىفلقد حزت أمره

هو ذاك الذى يرىحبّك الدّهر فخره

وطر ما انقضى و لكنّقضى فيه عمره

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۸۷

بعضهم و هو لسان حال مؤلفه عفى عنه

ألف الهموم أضالعى فألفتهابعد التّنافر و الكريم ألوف

ليس البلاء لدىّ صنفا واحداعندى بحمد اللّه منه صنوف

و ما أحسن قول الصلاح الصفدى و هو جدير (بأن ينشد بعد ذلك) :

باللّه لا تأسف على فائتمضى و لا تيأس من اللّطف

فقد يجىء الدهر مع قسوةفيه بوقت ليّن العطف

و على هذا فلنذكر هنا حكاية غريبة فيها تسلية لكلّ مهموم، و تعزية لكلّ مغموم، تؤكّد التمسّك بألطاف اللّه، و تنهى عن اليأس من روح اللّه، و الحامل على تخصيصها بالذكر (ما منيت) به فى هذه المدة عموما، و هذه السنة خصوصا و هى سنة أربع و سبعين، سنة تأليف هذه الرحلة من أنواع الهموم الممضّة، و الغموم الممرضة التى شرح بعضها الرضى (*) رحمه اللّه تعالى بقوله من قصيدة:

أتانى و ممطول من النّأى بيناقوارص تنبو بالجفون عن الغمض

و مولى ورى قلبى بلذعة ميسمهمن الكلم العوراء مضّا على مضّ

فعذرا لأعدائى إذا كان أقربىيشذّب من عودى و يعرق من نحضى

إذا ما رمى عرضى القريب بسهمهعذرت بعيد القوم امّا رمى عرضى

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۸۸ لقد أمست الأرحام منّا على شفافأخلق بمشف لا يعلّل أن يقضى

على غصص لو كنّ فى البدر لم ينرو فى العود لم يورق و فى العضب لم يمض

و جملة الحال الآن كما قال الصلاح الصفدى (*):

لزمت بيتى مثل ما قيل لىو لم أعاند حادث الدّهر

و ليس لى درع يردّ الرّدىأستغفر اللّه سوى صبرى

علما بأن البؤس رهن الرّخاو غاية العسر إلى اليسر

و قد يسلّ السيف من غمدهو يخرج الدرّ من البحر

و تبرز الصّهباء من دنّهاو يرجع النّور إلى البدر

و الحكاية المشار إليها هى هذه:

حدّث بعضهم قال: كنت بالشام متصرّفا فى بعض أعمال السلطان فلم تنبسط يدى لأداء ما لزمنى من المال، فأدخلت فى الحبس- حبس الجرائم- فرأيت ساعة حصلت فيه من عظيم بلاء أهله، و قبح صورهم، و موحش أمرهم، و ما كانوا عليه من وسخ الثياب و نتن الروائح ما حبّب إلىّ الموت، و صارت بليتى بواحدة عشرا، و اندفعت أبكى و أنتحب و أدعو و أتململ. فأقبل علىّ أهل السجن و قالوا: ما لك تبكى؟ أما لك بنا أسوة و فينا سلوة؟. فلم يكن قولى إلّا أن قلت: اعذرونى فإننى ما ألفت الشقاء و بؤس المعيشة، و رزاحة الحال و سوء المسكن. فقالوا: و لا- كلّنا أهل بلاء و شقاء، و فينا ضروب من المترفين المنعّمين، و فينا من ظلمه خمارويه بن طولون على غير حقّ ليقتلنا، و عساك حبست على مال، و أخذت بواجب. ثم انّ فى هذا الحبس واحدا من أولاد الأمراء لم نر أنبل منه و لا أجلّ و لا أرفع محلا، و لا أسوء-

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۸۹

مع ذلك- حالا- و هو مع ذلك لا يألو فرحا و نشاطا، فهلمّ إليه فعساك يخفّ عنك بعض ما ضقت به ذرعا، فقمت منهم و انتهيت إلى شاب فى عنقه جامعة، و فى يديه غلّ، و فى رجليه أربعة أزواج قيود، فإذا هو جميل الوجه طيّب الرائحة، و بين يديه غلام معه زكرة شراب يسقيه منه و يجعل القدح على فم هذا الشاب فيكرع الفتى منه، فإذا استوفى الشراب تغنّى بهذا الشعر:

و ما زلت أبكى بالدّيار و إنّمابكائى على الأحباب ليس على الدّار

قال: فلما رأيت حاله غاظنى واللّه كلّ الغيظ، و بلغ منّى كلّ مبلغ استنكارا لمثل هذا السرور و الابتهاج فى حال توجب ضدّ ذلك، فدنوت منه و قلت: أبو من سرّك اللّه؟ فقال: أبو الفوارس، فقلت: ممّن النسب؟ قال: من صميم كلب و عزّها و فخرها. فقلت: يا أبا الفوارس، أما فيك من الرأى ما يفرّق بين النعيم و البؤس، و الرخاء و البلاء؟ أما فيما دفعت إليه من البلاء العظيم ما يصدّك عن الغناء و الشراب؟ فتبسّم ضاحكا ثم قال: و هل يجوز أن يكون أعظم ممّا أنا فيه؟ قلت: لا واللّه، قال: بلى واللّه، فإنّى من غد على ميعاد القتل و الصّلب. فلما سمعت منه ما قال هالنى الأمر، و أنسيت ما كنت فيه من استعظام ما رأيت به فقلت: و تراك مع هذا تسيغ الشراب و تستوفى الألحان؟

فقال: (يا بائس) بينى و بين هذا بقية يومى، و طول ليلتى، و إلى ذلك يقضى اللّه أمورا لا يحصيها غيره، و يبدّل أمورا لا يملك تغييرها و تبديلها سواه، و ما كنت ليطّلع اللّه علىّ آيسا من روحه فواق ناقة. (فكأنه) جاءنى ما لم أعرفه، فقلت: اى واللّه إنّ الأمر الإلهىّ لكذلك. ثم أعرض عنى و أخذ فى شربه و غنائه، فلما صلينا الصبح جاءنا السّجان فقال: قد قتل خمارويه و هرب أصحابه، فاجمعوا لى شيئا اخلّ لكم باب السجن و أهرب، فوزعنا له بيننا ألفى درهم، و هرب فى جوف اللّيل، و فتح باب السجن. فما بقى أحد إلّا و صار إلى أهله و نعمته كما كان. و للّه درّ القائل:

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۹۰ دع المقادير تجرى فى أعنّتهاو لا تبيتنّ إلّا خالى البال

ما بين غمضة عين و انتباهتهايغيّر اللّه من حال إلى حال

و لقتل خمارويه هذا خبر غريب، و ذلك أنه رأى قبل قتله بأيّام فى منامه رجلا يشير إليه بأصابع يده الخمس و يكرّر ذلك عليه. فاستوحش ممّا رأى و قال: هذه مدة عمرى إمّا خمسة أيام، أو خمسة أشهر، أو خمس سنين فأحضر رجلا يحسن التعبير و قصّ عليه رؤياه. فتخوّفه من التأويل الذى وقع له و قال: لا شىء عليك و فسّره بقول اللّه تعالى فى سورة لقمان من الآية المفردة بالخمسة الأشياء التى لم يطّلع عليها أحد من خلقه إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ فسرّى عنه، و أمر للمعبّر بجائزة سنية. فلما كان بعد ثلاثة أيام رأى أبو الجيش- و هو خمارويه المذكور- فى منامه كأنه قد صعد نخلة، فلما وصل إلى رأسها أقبل يقوّر جمّارها و قلبها فيرمى به، حتى بان

فى النخلـة مكـان مـا تقوّر من قلبهـا، و قـد صار فى موضع التقوير دم. و استيقظ فقصّ ذلك على هـذا المعبّر فقال: خيرا رأى الأمير، و خيرا يلقاه، فقال له: أبن على كلّ حال، فقال: يعفينى الأمير، فلم يعفه و لجّ فى المطالبة بالتفسير، فسأله الأمان على نفسه و ماله، فأعطاه ذلك، فقال له: أيّها الأمير إنّى أخاف عليك أن يغتالك بعض خاصّ تك. قال: و من أين؟ قال: لأنّك أنت النخلـة، و تقويرك بيدك قلبهـا و هو أفضـل مـا فى جسـدك و هو قلبـك بأيـدى قوم اصـطنعتهم و هم غرس يـدك، فـاحترس. فلما كان فى تلك الليلـة و هى الخامسة من الرؤيا قتله الخدم ذبحا على منامه، فضم المنامان و اللّه أعلم.

فائـدة: أكثر التعبير للرؤيا إنما يجرى على هذا الوجه من الاعتبار بما رأى على طريقة التمثيل. و كثير من معانى القرآن أيضا جرى على التمثيـل و التشبيه، و ذلك نحو قوله تعالى أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَـةٌ بِقَـدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَـداً رابِياً وَ مِمَّا يُوقِـدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ فإنّه على

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۹۱

تمثيـل العلم بالمـاء، و القلب بالأوديـة و الينابيع، و الضـلال بالزبـد. على ما نبّه عليه فى آخرها بقوله عزّ من قائل «كـذلك يضـرب اللّه الأمثال». و اللّه سبحانه و تعالى أعلم.

و هذه نبذة من شعر الجامع عفا اللّه عنه. قال فى سنة ثلاث و سبعين يمدح أباه مدّ اللّه ظلّه :

لمن الكتائب فى العجاج الأكدريخطرن فى زرد الحديد الأخضر

ضربت عليهنّ الرماح سرادقاعمدت بساعد كلّ شهم أصعر

و البيض تلمع فى القتام كأنّهالمع البوارق فى ركام كنهور

و صليل وقع المرهفات كأنّهرعد يجلجل فى أجشّ مزمجر

و الرّاية الحمراء يخفق ظلهايهفو عليها كلّ ليث مزئر

و الخيل قد حملت على صهواتهامن كلّ أصيد باسل ذى مغفر

متسربل بالقلب فوق دلاصهمتلثّم بالنّقع لمّا يسفر

فى موقف كسف الظهيرة نقعهفأضاءها بشروق وجه مقمر

يختال فى حلق الدّلاص كأنّهيختال منها فى مفوّف عبقرى

من فتية ألفوا الأسنّة و القنافقبابهم قصب الوشيج الأسمر

يقرون بيضهم الرّقاب و ينهلوازرق الأسنّة من نجيع أحمر

شادوا عمادهم بكلّ مثقّفلدن و مجدهم بكلّ مشهّر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۹۲ حلّوا من العلياء قمّة رأسهاحووا البسالة أكبرا عن أكبر

من منهم الملك المهيب إذا بدىخضعت له ذلّا رقاب الأعصر

فخر المفاخر و المآثر و المحافلو الجحافل و العلى و المنبر

القائد الجيش العرمرم معلمامن كلّ ليث ذى براثن قسور

السائق الجرد المذاكى شزّباتخطو و تخطر بالرّماح الخطّر

الفالق الهامات فى يوم الوغىو السّمر بين محطّم و مكسّر

و الشامخ النّسبين بين ذوى العلىو الباذخ الحسبين يوم المفخر

و الواهب البدرات يتبعها النّدىمن كفّه بسحاب تبر ممطر

يجلو دجى الآمال منه بنائلمتلألئ و بصبح جود مسفر

و لكم جلا رهج القتام بباترمتألّق و سنان أسمر سمهرى

ملك إذا ما جاد يوما أو سطافالخلق بين مملّك و معفّر

من دوحة المجد الرّفيع عماده‌و الفرع يعرب عن زكىّ العنصر

ما ينقضى يوما شهير نواله‌إلّا و أتبعه بآخر أشهر

هذا الذى صدع القلوب مهابة‌و أذلّ كلّ عملّس و غضنفر

هذا الذى غمر الأنام سماحة‌من جوده الطّامى الجليل الأوفر

هذا الذى حاز المكارم قعّساو سواه يلطم خدّ سبسب أقفر

هذا نظام الدّين و ابن نظامه‌نسب يؤول إلى النّبىّ الأطهر

لمعت أسرّة نوره فى وجهه‌فازورّ عنها كلّ لحظ أخزر

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۹۳ يجلو لنا فى حلمه مع حزمه‌أخلاق أحمد فى بسالة حيدر

بينا تراه مصدّرا فى دسته‌ملكا تراه فوق صهوة أشقر

أربيب حجر المكرمات و ربّهاو رضيع ثدى العارض المثعنجر

للّه جدّك أىّ مجد حزته‌فشأوت كلّ مقدّم و مؤخّر

أنت الذى أحرزت كلّ فضيلة‌و وردت بحر الفضل غير مكدّر

ظمئت أمانىّ الرّجال لدى العلى‌فوردت منهلها و لمّا تصدر

و اليكها غرّاء قد أبرزتهاتجلى بشكرك فى ندىّ المحضر

أحكمت نظم قريضها فتناسقت‌كالعقد يزهو فى مقلّد جؤذر

يذكو بمدحك نشرها فكأنّنى‌أذكيتها منه بمسك أذفر

ما ضاع نشر ثنائها فى مجلس‌إلّا تفتّق عن ذكىّ العنبر

و اسلم على درج المعالى راقيابأجلّ خبر فى الأنام و مخبر

و قال فى غرض :

أظننت أنّ الوجد مكتمن‌و خفىّ سرّك فى الهوى علن

أنّى لقلبك أن يقال صحاو ثنى جموح ضلاله الرّسن

قد طال مكثك حيث لا فرح‌يصفو به عيش و لا حزن

و أضرّ قلبك طول مغترب‌لا منية تدنو و لا وطن

فالام ترضى- لا رضيت- بأن‌ينمى إليك العجز و الجبن

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۹۴ فكأنّ لا عرب و لا عجم‌و كأنّ لا شام و لا يمن

أحلا لنفسك أن يقال لهاهذا علىّ حطّه الزمن

حصل الجهول على مآربه‌و مضى بغير طلابه القمن

حتّى متى قول و لا عمل‌و إلى متى قصد و لا سنن

ما شان شأنك قطّ منتقص‌أنت العلىّ و ذكرك الحسن

فاقطع برحلك حيث لا عتب‌و اربأ بعرضك حيث لا درن

و افخر بسبقك لا بسبق أب‌أو ليس أنت السّابق الأرن

أن يبل ثوبك فالنّهى جنن‌أو تود خيلك فالعلى حصن

لا تبتئس لملمّة عرضت‌لا فرحة تبقى و لا حزن

و قال معاتبا :

أتركتنى دنفا و رحت معافى‌نفسى فداؤك ما كذا من صافى

هلّا ذكرت ليالينا بتا بهانرعى النّجوم و نذكر الألّافا

كيف انفرادك بعد ما كنّا معاحاشا لمثلك ينقض الأحلافا

أنسيت لا أنسيت فضل صبابة كنّا بها نستسعف استسعافا

فاليوم رحت و قد قويت على الهوى‌و جوانحى أمست عليه ضعافا

و ألفت آنس مضجع متبوّأو مضاجعى لا تعرف إلا يلافا

لو كنت تحفظ فى الهوى أنصفتنى‌أو كنت تعرف فى الهوى إنصافا

أتظلّ تسقى فى الغرام سلافةو أظلّ أسقى فى الغرام دعافا

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۹۵ و أبيت فى حرّ الصّدود مقاطعاو تبيت فى برد الوصال موافى

ما جار من منع الحبيب و إنّماجار الذى قبض الحبيب و حافا

ناصفتنى حمل الهوى و تركتنى‌حتّى جملت من الهوى أضعافا

فليهننك اليوم الوصال فإنّنى‌باق و إن أخلفتنى إخلافا

و قال :

دعاه على سهل الغرام و صعبه‌فماذا عليكم إن أضرّ بقلبه

أقلّا عليه فى الملام فإنّه‌يرى الموت أصفى من كدورة خطبه

و ليس بمجد يا خليلىّ لومه‌فإنّ الهوى قد سيط منه بلبّه

و لو ذقتما ما ذاق من لاعج الهوى‌لأيقنتما أنّ العذاب بعذبه

يبيت على جمر الغرام و ينطوى‌و تصبيه ذكرى غور سلع و من به

يحنّ إلى أوطانه ثمّ ينثنى‌على قلبه كيلا يذوب بكربه

و إن لاح من نجد و مض توقّدت‌بأحشائه نار الغرام و جنبه

و ليس له عن منهج الحبّ منهج‌و كيف و مهما أو مض البرق يصبه

و قال :

ما بال قلبك لم يزل متأوّهالا الحلم يردعه الغداة و لا النّهى

أأعاد عيد غرامه طير شدافغذا يحنّ إلى زمان قد زها

ما زاده الواشون عذلا فى الهوى‌إلّا و زاد تولّعا و تدلّها

و توجّعا و تحزّنا و تململاو تشوّقا و تولّها و تأوّها

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۹۶ ما أنت أوّل من نأى عن داره‌و رمت به أيدى النّوى فتولّها

قد آن أن تثنى غرامك سلوةو تفيق منه طائعا أو مكرها

أصفا لدمعك أن يبيت مرقرقاو حلا لقلبك أن يظلّ مولّها

عبثت طروق النّائبات به فلاجزع يؤوّبه و لا صبر و هى

ما إن شدت ورقاء فوق أراكةإلّا و كان له حنين مثلها

أظننت أنّ العهد بعدك موثقو الدّار دار و المها تلك المها

قد أخليت تلك الرّبوع و فرّقتتلك الجموع فما البها ذاك البها

أقصر فقد خلت الدّيار فلا هوىيصبى إليه و لا مليح يشتهى

لم تبق إلّا لوعة أو حسرةيمسى بها الصّخر الأصمّ مدلّها

و قال :

ذكر الخيف و الحمى و حجونهفذرى دمعه و أبدى مصونه

و أعاد الهوى له عيد وجدمنع النّوم طرفه و جفونه

لا تلوموه إن بكى من فراقو أجدّ الأسى عليه جنونه

كلّ صبّ إذا تذكّر يوماهيّج الذكر وجده و شجونه

يا نزولا ببطن مكّة عطفابمحبّ أبحتم اليوم هونه

مولع بالأسى عزيز تأسّقرّح الدّمع خدّه و شؤونه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۹۷ ثم إن شئتم صلوا أو فصدّواما عليه إذا قضيتم ديونه

و قال :

و ربّ ساق قلبه قلبهأفديه من قاس و من ساق

تحارب العشّاق فى حبّهو قامت الحرب على ساق

و قال :

أىّ ذنب فى الهوى قد أذنبهمن رأى شيئا عجيبا أعجبه

مغرم إن لاح برق شاقهو إذا هبّ نسيم أطربه

لا تلوموه على طول الأسىإن بكى وجدا و أبدى حربه

ليس ما يلقاه هينا فى الهوىفالهوى مرقاه صعب العقبه

يا نزول الخيف ما ظرّكملو وصلتم من قطعتم سببه

مستهام خانه الصّبر فمذبعدت أظعانه ما قربه

شفّه الوجد و أضناه الأسىو رماه البين سهما ضربه (كذا)

و إذا رام هجوعا طرفهزّه الشّوق إليكم فانتبه

و قال :

هذا الحجاز و ذاك ضالهقد قلّصت عنه ظلاله

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۹۸ ماذا بكاء المستهامبرقمتيه و ما سؤاله

إن كان أطمعه الحمىفاليوم تؤيسه رماله

قد بان عنه جميلهفى نأيهم و نأى جماله

أين المعاهد و العهودو أين من مال اعتداله

لهفى على الرّشا الذىقد أفلتت منّى حباله

يصفو و يكدر حبّهو الحبّ أكدره ملاله

ما إن حلالى وعدهإلّا و مرّره مطاله

منع الكرى عن ناظرى كى لا يلمّ به خياله

لو أنّ ما بى من هواهبيذبل ذابت قلاله

يا ويح قلبى قد تفرّغفى هواه به اشتغاله

حمّلته ما لم يطقو اليوم قد قلّ احتماله

و لكلّ خطب حيلةو البين قل لى ما احتياله

و قال:

سقى اللّه أيّامنا بالحجازو لا جازها الغيدق الهاطل

فما كان أرغد عيشى بهاإذ المنزل القفر بى آهل

لقد طال وجدى و ذكرى لهاو ليس لعصر مضى طائل

فيا لهف نفسى له ماضياترحّل و الوجد بى نازل

ترى من عزائى به خارجو داء الأسى فى الحشا داخل رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۲۹۹ درى أنّ وجدى به لا- يزولو صبرى من بعده زائل

يقولون لى إنّه خاذلو خير الظّبا الشّادن الخاذل

أتعذلنى جاهلا حالهلك الويل يا أيّها العاذل

تجيب الصّفاة و ليس يجيبو دمعى على وجنتى سائل

و قال :

أما لليل المستهام إشراق أم هكذا يطول ليل العشّاق كم لوعة لا تنقضى و أشواق تزيد قلبى فى الغرام إقلاق جسم عليل و فؤاد خفّاق و مدمع على الخدود رقراق فى كلّ حين غرق و إحراق من طرفى الباكى و قلبى المشتاق إنّ الهوى ما زال نائى الأعماق يقصر عنه سابق و لحّاق ماذا على من شاقنى و ما اشتاق لو لم يضنّ بالخيال الطرّاق اللّه لى من ذى ملال مذّاق رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۰۰ أصفيته الودّ بقلب ملّاق إنّ مودّات القلوب أرزاق و قال :

يا متعبا بنقوش الخطّ أنملهو ساهر اللّيل لم يرقد و لم ينم

دع عنك ما راحت الأقلام تنقشهفى صفحة السّيف ما يغنى عن القلم

و قال و هو معنى غريب :

من ذا الّذى شرع المحبّةو التّواصل و الوداد

فكأنّه لم يدر مامحن التّفرّق و البعاد

و قال :

سل عن فؤادك يوم طاش بك الهوىإن كنت تملك فى الغرام فؤادا

هيهات عهدى يوم منعرج اللّوىقادت أزمته النوى فانقادا

و قال :

ريعت و قد أبصرت نبت العذار بداكالرّوض يفترّ عن غبّ من الدّيم

فقلت ما الشّعر هذا ما ترين بهو إنّما هو نبت الحلم و الكرم

و قال:

أفديه من رشأ تبدّى و اختفى كالبدر عند طلوعه و مغيبه

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۰۱ يجفو و يهجر معرضا متدلّلاو يصدّ معتذرا بخوف رقيبه

نفسى الفداء له حسن الهوىفيه و طاب بحسنه و بطيبه

ما شاء فليصنع فقلبى طوعهو دع العذول يلجّ فى تأنيبه

و قال:

ذاك الحجاز و هذه كثبانهفاحفظ فؤادك إن رنت غزلانه

و اسفح دموعك إن مررت بسفحهشغفا به إنّ الدّموع جمانه

و سل المنازل عن هوى قضّيتههل عائد ذاك الهوى و زمانه

لهفى على ذاك الزّمان و أهلهو سقاه من صوب الحيا هتّانه

إذ كان حبل الوصل متّصلا بناو العيش مورقة به أغصانه

و إذ المعاهد مشرقات بالمنىو الرّبع مغنى لم يبن سكّانه

يا عاذليّ دعا فؤادى و الجوىلا تعذلاه فإنّه ديدانه

و ارحمتا لمتيّم قذفت بهأيدى النّوى و تباعدت أوطانه

هبّت له من نحو نجد نسمةفتزايدت لهبوبها أشجانه

يمسى و يصبح و الها متوجّعاتبكى عليه من الضّنى اخوانه

ما إن تذكّر بالحجاز زمانهإلّا و شبّت فى الحشا نيرانه

فسقى الحجاز و من بذيّاك الحمىصوب المدامع هاطلا هملانه

لا انفكّ للدّمع الهتون تقاطربعد الحجاز و لا رقت أجفانه

و قال:

تذكّر و الذكرى تهيج أخا الوجدمراتع ما بين الغوير إلى نجد

أسير يعانى من نوائب دهرهحوادث لا تنفكّ تترى على عمد

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۰۲ إذا شاقه من نحو رامة بارقذرى عبرة من مقلتيه على الخدّ

يحنّ إلى أحياء ليلى بذى الغضاو أين الغضاويب المشوق من الهند

و يبكى بطرف يمترى الشوق دمعهإذا ما شدت ورق على فننى رند

هى الدار لا غبّت مراتع سفحهاذهاب الغوادى الجون تزجر بالرّعد

تحلّ بها غيداء من آل عامركليلة رجع الطّرف مائسة القدّ

يرنّحها زهو الصّباحين تنثنى كما رنّحت ريح الصّبا عذب الملد

نمتها سراة من ذؤابة عامرإلى سروات المجد و الحسب العدّ

فيا ليت شعرى و الأمانى تعلّةو جور النّوى يهدى إلى القلب ما يهدى

أنصبح و الشمل المبدّد مجمعفيخبو جوى بين الجوانح ذو وقد

و تغدو على رغم الزّمان و قد صفتموارد وصل رنّقتها يد البعد

بلى ان اللّه على كلّ شىء قدير، و بالإجابة متى دعى جدير. واللّه أسأل أن يسنّ بالعود على أحسن الوجوه، و يوفق لإتمام هذه الرحلة على أكمل وجه أرجوه.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۰۳

و هنا انقطعت بنا المادة، فوقفنا على هذه الجادة سائلين اللّه سبحانه أن يرزقنا الأوب إلى حرمه، و يقضى لنا بالرجوع إلى جوار بيته المحرّم بجوده و كرمه.

و متى سنح إن شاء اللّه تعالى شيء يليق الحاقة ألحقناه فى سفر آخر.

قال مؤلفها الفقير إلى ربه الغنى على صدر الدين بن أحمد نظام الدين بن محمد معصوم ابن أحمد نظام الدين بن ابراهيم الحسينى الحسنى عفا اللّه عنهم: كان الفراغ من هذا السّفر (سلوة الغريب و أسوة الأريب) يوم الجمعة لليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة خمس و سبعين و ألف و الحمد للّه رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و آله الطاهرين.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۰۵

مراجع التحقيق

۱- الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبى الريحان البيروتى (محمد بن أحمد). نسخة مصورة عن الأصل المطبوع بأوربا.

۲- الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين الخطيب. تحقيق عبد اللّه عنان.

دار المعارف بمصر سنة ۱۹۵۵ م.

۳- الاحتجاج للطبرسى (أحمد بن على بن أبى طالب). منشورات دار النعمان فى النجف الأشرف سنة ۱۹۶۶ م.

۴- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى المعروف بالبشارى.

مصور عن الأصل المطبوع بليدن سنة ۱۹۰۶ م.

۵- أخبار مكة و ما جاء فيها من الأثار للأزرقى (محمد بن عبد اللّه بن أحمد). تحقيق رشدى الصالح ملحسن. مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة ۱۹۶۵ م.

۶- أساس البلاغة للزمخشرى (محمود جار اللّه بن عمر) دار مطابع الشعب بالقاهرة سنة ۱۹۶۰ م.

۷- الأصنام للكلبى (هشام بن محمد بن السائب) تحقيق أحمد زكى.

مصور عن طبعة دار الكتب المصرية سنة ۱۹۲۴ م.

۸- أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين العاملى. طبع دمشق و بيروت.

۹- الأعلام للزركلى (خير الدين). الطبعة الثانية. دمشق.

۱۰- الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى (على بن الحسين). طبع دار الثقافة ببيروت الطبعة الثالثة ۱۹۶۲- ۱۹۶۴ م).

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۰۶

۱۱- أقرب الموارد فى فصيح العربية و الشوارد لسعيد الشرتونى. طبعة مصورة فى إيران عن الأصل المطبوع فى بيروت.

۱۲- أمالى القالى (أبى على اسماعيل بن القاسم) مع الذيل و النوادر.

تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعى. مصور من قبل دار المكتب التجارى ببيروت عن طبعة دار الكتب المصرية.

۱۳- الإكليل للّه مدانى (الحسن بن أحمد) الجزءان الأول و الثانى. تحقيق محمد بن على الأكوع. مطبعة السنة المحمدية بمصر ۱۹۶۳- ۱۹۶۶ م.

۱۴- أمالى المرتضى- الغرر و الدرر- للشريف المرتضى (على ابن الحسين). تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. مصر ۱۹۵۴ م.

۱۵- أنباه الرواة فى أنباء النحاة للقفطى (على بن يوسف). تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. مطبعة دار الكتب المصرية ۱۹۵۰- ۱۹۷۳ م.

۱۶- أنوار البدرين فى تراجم علماء القطيف و الأحساء و البحرين للشيخ على بن حسن البلادى البحرانى. مطبعة النعمان فى النجف الأشرف ۱۹۶۰ م.

۱۷- أنوار الربيع فى أنواع البديع لابن معصوم المدنى (السيد على صدر الدين) تحقيق شاكر هادى شكر. مطبعة النعمان فى النجف الأشرف ۱۹۶۸- ۱۹۶۹ م.

۱۸- الأوراق- أخبار الشعراء- للصولى (محمد بن يحيى) مطبعة الصاوى بمصر سنة ۱۹۳۴ م.

۱۹- ايضاح المكنون لاسماعيل باشا البغدادى. تصوير المكتبة الاسلامية بايران سنة ۱۹۶۷ على الاصل المطبوع باستنبول.

۲۰- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن على الشوكانى. مطبعة السعادة بمصر ۱۳۴۸ م.

۲۱- البصائر و الذخائر لأبى حيان التوحيدى. تحقيق الدكتور ابراهيم

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۰۷

الكيلانى. نشر مكتبة أطلس، و مطبعة الإنشاء بدمشق ۱۹۶۴ م.

۲۲- بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس لأحمد بن يحيى الضبى.

تصوير مكتبة المثنى عن الأصل المطبوع فى مدينة مجريط سنة ۱۸۸۴ م.

۲۳- بغية الوعاة فى طبقاة اللغويين و النحاة لجلال الدين السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر). تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة ۱۹۶۴ م.

۲۴- تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسينى الزبيدى (۱- ۱۶) وزارة الإعلام فى الكويت.

۲۵- تاريخ بغداد للخطيب البغدادى. نشر دار الكتاب العربى بيروت (أوفست).

۲۶- تاريخ الطبرى (أبى جعفر محمد بن جرير). تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. دار المعارف بمصر ۱۹۶۰- ۱۹۶۹ م.

۲۷- تاريخ المشعشعيين و تراجم أعلامهم. تأليف جاسم السيد حسن شبر.

مطبعة الآداب فى النجف الأشرف ۱۹۶۵ م.

۲۸- تتمة يتيمة الدهر لأبى منصور الثعالبى (عبد الملك بن محمد). نشر عباس إقبال. مطبعة فريدون بطهران ۱۳۵۳ ه.

۲۹- التذكرة السعدية فى الأشعار العربية لمحمد بن عبد الرحمن ابن عبد المجيد العبيدى. تحقيق الدكتور عبد اللّه الجبورى. مطبعة النعمان فى النجف الأشرف ۱۹۷۲ م.

۳۰- تقويم البلدان لأبى الفداء السلطانى عماد الدين اسماعيل ابن محمد.

مصور من قبل مكتبة المثنى ببغداد عن الأصل المطبوع بباريس سنة ۱۸۴۰ م.

۳۱- التمثيل و المحاضرة لأبى منصور الثعالبى (عبد الملك بن محمد).

تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو. دار إحياء الكتب العربية بمصر ۱۹۶۱ م.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۰۸

۳۲- جمهرة أنساب العرب لابن حزم (على بن أحمد بن سعيد). تحقيق عبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر ۱۹۶۲ م.

۳۳- جدوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس لمحمد بن نصر الحميدى.

تحقيق محمد بن تاويت الطنجى. نشر مكتبة الثقافة الإسلامية بمصر.

الطبعة الأولى ۱۹۵۲ م.

۳۴- حديقة الأفراح للشيروانى (أحمد بن محمد الأنصارى اليمنى). مصر ۱۳۰۵ م.

۳۴ أ- حكمة الإشراق للسهروردى يحيى بن حبش. مطبعة انستيتو بطهران ۱۹۵۲ م.

۳۵- حلبة الكميت للنواجى (شمس الدين محمد بن الحسن) المكتبة العلامية بمصر ۱۹۳۸ م.

۳۶- حلية الأولياء لأبى نعيم (أحمد بن عبد اللّه الأصبهانى). دار الكتاب العربى ببيروت.

۳۷- حماسة أبى تمام الطائى (حبيب بن أوس). شرح المرزوقى. تحقيق أحمد أمين و عبد السلام محمد هارون. لجنة التأليف و الترجمة و النشر بمصر ۱۹۶۷ م.

۳۸- حماسة البحترى (أبى عبادة الوليد بن عبيد) ضبط و تعليق لويس شيخو. دار الكتاب العربى ببيروت ۱۹۶۷ م.

۳۹- الحماسة البصرية لصدر الدين ابن أبى الفرج. تصحيح و شرح مختار الدين أحمد. طبع حيدر آباد ۱۹۶۴ م.

۴۰- الحماسة الشجرية لهبة اللّه بن على المعروف بابن الشجرى. تحقيق عبد المعين الملوحى، و أسماء الحمصى. منشورات وزارة الثقافة بدمشق ۱۹۷۰ م.

۴۱- حماسة الظرفاء (الأول) لعبد اللّه بن محمد العبدلكانى الزوزنى. تحقيق محمد جبار المعيبد. منشورات وزارة الإعلام العراقية ۱۹۷۳ م.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۰۹

۴۲- حياة الحيوان الكبرى للدميرى. مطبعة الاستقامة بمصر ۱۳۸۳ ه.

۴۳- الحيوان للجاحظ (أبى عثمان عمرو بن بحر). تحقيق عبد السلام محمد هارون. مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ۱۹۴۵ م.

۴۴- خريدة القصر (شعراء العراق) للعماد الأصبهانى (محمد بن صفى الدين). تحقيق محمد بهجت الأثرى. نشر المجمع العلمى ثم وزارة الإعلام العراقية.

۴۵- خريدة القصر (شعراء مصر) تحقيق أحمد أمين، و شوقى ضيف، و إحسان عباس. مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ۱۹۵۱ م.

۴۶- خزانة الأدب لابن حجة الحموى (تقى الدين أبو بكر بن على).

تصوير دار القاموس الحديث ببيروت عن الأصل المطبوع بالمطبعة الخيرية بمصر ۱۳۰۴ ه.

۴۷- خلاصة الأثر للمحبى (محمد أمين بن فضل اللّه). أعادت تصويره مكتبة خياط ببيروت.

۴۸- دائرة المعارف الإسلامية (۱- ۱۴) مصورة فى إيران عن المترجم و المطبوع بمصر.

۴۹- دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدى، أعادت تصويرها دار المعرفة ببيروت عن الأصل المطبوع فى القاهرة.

۵۰- الدرجات الرفيعة فى طبقات الشيعة للسيد على صدر الدين بن معصوم المدنى. المطبعة الحيدرية فى النجف الأشرف ۱۳۸۲ ه.

۵۱- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد). تحقيق محمد سيد جاد الحق. دار الكتب الحديثة بمصر ۱۹۶۶ م.

۵۲- دمية القصر للباخرزى (على بن الحسن بن على) المطبعة العلمية بحلب سنة ۱۹۳۰ م، و الجزءان الأول و الثانى من المطبعة المصرية تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۱۰

۵۳- ديوان ابن حمديس الصقلى (عبد الجبار بن أبى بكر). طبع دار صادر ببيروت ۱۹۶۰ م.

۵۴- ديوان ابن خفاجة الأندلسى (ابراهيم بن عبد اللّه) طبع دار صادر ببيروت ۱۹۶۱ م.

۵۵- ديوان ابن الخياط الدمشقى (أحمد بن محمد) تحقيق خليل مردم.

المطبعة الهاشمية بدمشق ۱۹۵۸ م.

۵۶- ديوان ابن دقيق العيد (محمد بن على) اختيار الصفدى. تحقيق على صافى حسين. دار المعارف بمصر.

۵۷- ديوان ابن رشيق القيروانى (الحسن بن رشيق) جمع و تحقيق عبد الرحمن باغى نشر دار الثقافة ببيروت.

۵۸- دیوان ابن الرومی- اختیار کامل کیلانی. مطبعة التوفیق بمصر ۱۹۲۴ م، و الأجزاء (۱- ۳) من الدیوان تحقیق الدکتور حسین نصار، طبع دار الکتب المصریة ۱۹۷۳- ۱۹۷۶ م.

۵۹- دیوان ابن عنین (محمد بن نصر) تحقیق خلیل مردم. مطبعة دمشق ۱۹۶۴ م.

۶۰- دیوان ابن الفارض (عمر بن علی) طبع دار صادر ببیروت ۱۹۶۲ م.

۶۱- دیوان ابن المعتز (عبد اللّه بن المعتز) طبع دار صادر ببیروت ۱۹۶۱ م.

۶۲- دیوان ابن معصوم المدنی (علی صدر الدین بن أحمد نظام الدین) تحقیق شاکر هادی شکر. جاهز للطبع.

۶۳- دیوان ابن نباتة المصری (محمد بن محمد) مطبعة التمدن بعابدین- القاهرة- ۱۹۰۵ م.

۶۴- دیوان أبی الأسود الدؤلی (ظالم بن عمرو) تحقیق و تکملة الشیخ محمد حسن آل یاسین. مطبعة المعارف ببغداد ۱۹۶۴ م.

۶۵- دیوان أبی تمام الطائی (حبیب بن أوس) شرح الخطیب التبریزی.

تحقیق محمد عبده عزام. طبع دار المعارف بمصر ۱۹۶۴- ۱۹۶۵ م.

رحلة ابن معصوم المدنی، ص: ۳۱۱

۶۶- دیوان أبی الحسن التهامی (علی بن محمد) من منشورات المکتب الإسلامی بدمشق سنة ۱۹۶۴ م.

۶۷- دیوان أبی حیان الأندلسی (أثیر الدین محمد بن یوسف) تحقیق الدکتورة خدیجة الحدیثی، و الدکتور أحمد مطلوب. مطبعة العانی ببغداد ۱۹۶۹ م.

۶۸- دیوان أبی العتاهیة (اسماعیل بن القاسم). تحقیق الدکتور شکری فیصل. مطبعة جامعة دمشق ۱۹۶۵ م.

۶۹- دیوان أبی العلاء المعری (أحمد بن عبد اللّه)- سقط الزند- شروح التبریزی، و البطلیموسی، و الخوارزمی. تحقیق مصطفی السقا، و عبد الرحیم محمود، و عبد السلام محمد هارون، و ابراهیم الأبیاری، و حامد عبد المجید. مطبعة دار الکتب المصریة ۱۹۷۴ م.

۷۰- دیوان أبی فراس الحمدانی (الحارث بن سعید). طبع دار صادر ببیروت ۱۹۶۱ م.

۷۱- دیوان أبی نواس (الحسن بن هانی). تحقیق أحمد عبد الحمید الغزالی. طبع دار الکتاب العربی ببیروت ۱۹۵۳ م.

۷۲- دیوان الأحوص الأنصاری (عبد اللّه بن محمد). تحقیق عادل سلیمان.

الهیئة المصریة العامة للتألیف و النشر، القاهرة ۱۹۷۰ م.

۷۳- دیوان الأعشی الکبیر (میمون بن قیس) شرح و تعلیق الدکتور م. محمد حسین. المطبعة النموذجیة بمصر ۱۹۵۰ م.

۷۴- دیوان البحتری (أبو عبادة الولید بن عبید). تحقیق کامل الصیرفی.

طبع دار المعارف بمصر ۱۹۶۳- ۱۹۶۴ م.

۷۵- دیوان بشار بن برد. تحقیق و تکملة محمد الطاهر بن عاشور. مطبعة لجنة التألیف و الترجمة و النشر بمصر ۱۹۵۰ م.

۷۶- دیوان جمیل بثینة بن عبد اللّه العذری. طبع دار صادر ببیروت ۱۹۶۶ م.

رحلة ابن معصوم المدنی، ص: ۳۱۲

۷۷- دیوان دعبل بن علی الخزاعی. جمع و تحقیق الدکتور عبد الکریم الأشتر. المجمع العلمی العربی بدمشق ۱۹۶۴ م.

۷۸- دیوان الرضی (الشریف الرضی محمد بن الحسین). طبع دار صادر ببیروت ۱۹۶۱ م.

۷۹- دیوان السری الرفاء بن أحمد الکندی. نشر مکتبة القدسی بمصر ۱۳۵۵ ه.

۸۰- دیوان الشاب الظریف (شمس الدین محمد بن عفیف الدین سلیمان التلمسانی) تکملة و تحقیق شاکر هادی شکر. مطبعة النجف فی النجف الأشرف ۱۹۶۷ م.

۸۱- دیوان الشافعی (الإمام محمد بن ادریس) جمع و تحقیق زهدی یکن.

طبع دار الثقافة ببيروت ۱۹۶۱ م.

۸۲- ديوان صفى الدين الحلى (عبد العزيز بن سرايا) طبع دار صادر ببيروت ۱۹۶۲ م.

۸۳- ديوان عروة بن الورد. طبعدار صادر ببيروت ۱۹۶۴ م.

۸۴- ديوان عمر بن أبى ربيعة. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

مطبعة السعادة بمصر ۱۹۶۰ م. رحلة ابن معصوم المدنى ؛ ص۳۱۲

- ديوان عنترة بن شداد العبسى. طبع دار صادر ببيروت ۱۹۵۸ م.

۸۶- ديوان قيس بن الخطيم تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائى و الدكتور أحمد مطلوب. مطبعة العانى ببغداد ۱۹۶۲ م.

۸۷- ديوان المتنبى (أحمد بن الحسين) شرح الواحدى طبع برلين ۱۸۶۱ م.

و شرح العكبرى مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ۱۹۵۶، و شرح البرقوقى نشر دار الكتاب العربى ببيروت، و شرح اليازجى، المطبعة الأدبية ببيروت.

۸۸- ديوان مجنون ليلى (قيس بن الملوح) جمع و تحقيق عبد الستار أحمد فراج. دار مصر للثقافة.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۱۳

۸۹- ديوان مسلّم بن الوليد (صريع الغوانى). تحقيق الدكتور سامى الدهان. دار المعارف بمصر ۱۹۵۷ م.

۹۰- ديوان مهيار بن مرزويه الديلمى. طبع دار الكتب المصرية ۱۹۲۵ م.

۹۱- ديوان النامى (أحمد بن محمد) جمع و تحقيق صبيح رديف. بغداد ۱۹۷۰ م.

۹۲- ديوان الهذليين. طبع دار الكتب المصرية فى السنوات ۹۴۵ و ۹۴۸ و ۱۹۵۰ م.

۹۳- الذريعة إلى تصانيف الشيعة لآغا بزرك الطهرانى، الطبعة الأولى.

۹۴- ذيل مرآة الزمان لليونينى (موسى بن محمد) طبع حيدر آباد ۱۹۵۴ م.

۹۵- رجال الطوسى (أبى جعفر محمد بن الحسن) تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم. المطبعة الحيدرية فى النجف الأشرف ۱۳۸۱ ه.

۹۶- رحلة ابن جبير (محمد بن أحمد). طبع دار صادر ببيروت ۱۹۶۴ م.

۹۷- رسائل الجاحظ (أبى عثمان عمرو بن بحر). تحقيق عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجى بمصر ۱۹۶۴.

۹۸- روضات الجنات للخونسارى (محمد باقر بن زين العابدين). الطبعة الحجرية الثانية. إيران سنة ۱۳۶۷ ه.

۹۹- ريحانة الألباء لشهاب الدين الخفاجى (أحمد بن محمد) تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو. مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر ۱۹۶۷ م.

۱۰۰- زهر الآداب للحصرى القيروانى (ابراهيم بن على) تحقيق على محمد البجاوى. دار إحياء الكتب العربية بمصر ۱۹۵۳ م.

۱۰۱- الزهرة لأبى بكر محمد بن داود الأصبهانى- القسم الثانى- تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائى، و الدكتور نورى حمودى القيسى. منشورات وزارة الاعلام ببغداد ۱۹۷۵ م.

۱۰۲- سراج الملوك للطرطوشى (أبى بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى). المطبعة المحمودية بمصر ۱۹۳۵ م.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۱۴

۱۰۳- سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر. للسيد على صدر الدين بن السيد أحمد نظام الدين بن معصوم المدنى. تصوير المكتبة المرتضوية بإيران عن طبعة مكتبة الخانجى بمصر ۱۳۲۴ ه.

۱۰۴- سمط اللآلى فى شرح أمالى القالى لأبى عبيد البكرى تحقيق عبد العزيز الميمنى. مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ۱۹۳۶

م.

۱۰۵- صمت النجوم العوالى فى أنباء الأوائل و التوالى لعبد الملك بن حسين العصامى المكى. المطبعة السلفية بمصر ۱۳۸۰ ه.

۱۰۶- السيرة النبوية لابن هشام (عبد الملك بن هشام). تحقيق مصطفى السقا، و ابراهيم الأبيارى، و عبد الحفيظ شلبى. مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ۱۹۵۵ م.

۱۰۷- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى (عبد الحى بن العماد). تصوير المكتب التجارى للطباعة و النشر ببيروت.

۱۰۸- الشعر و الشعراء لابن قتيبة (عبد اللّه بن مسلم). دار الثقافة ببيروت ۱۹۶۴ م.

۱۰۹- شعراء النصرانية قبل الإسلام للويس شيخو اليسوعى. المطبعة الكاثوليكية ببيروت ۱۹۶۷ م.

۱۱۰- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للحافظ تقى الدين محمد بن أحمد بن على الفاسى المكى. دار إحياء الكتب العربية بمصر ۱۹۵۶ م.

۱۱۱- الضوء اللامع للسخاوى (محمد بن عبد الرحمن). تصوير دار مكتبة الحياة ببيروت.

۱۱۲- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد للأرفوى (كمال الدين جعفر بن ثعلب). تحقيق سعد محمد حسن. الدار المصرية للتأليف و الترجمة ۱۹۶۶ م.

۱۱۳- طبقات الحنابلة لمحمد بن أبى يعلى. مطبعة السنة المحمدية بمصر ۱۹۵۲ م.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۱۵

۱۱۴- طبقات الشافعية للسبكى (تاج الدين عبد الوهاب بن على) تحقيق محمود محمد الطناحى، و عبد الفتاح محمد الحلو. مطبعة عيسى البابى الحلبى. الطبعة الأولى ۱۹۶۴- ۱۹۷۶ م.

۱۱۵- طبقات الشعراء لابن المعتز (عبد اللّه بن المعتز) تحقيق عبد الستار أحمد فراج. دار المعارف بمصر ۱۹۵۶ م.

۱۱۶- العالم الإسلامى لعمر رضا كحالة. المطبعة الهاشمية بدمشق ۱۹۵۸ م.

۱۱۷- عجائب المخلوقات و غرائب الموجودات للقزوينى (زكريا ابن محمد). مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ۱۹۵۶ م.

۱۱۸- عشائر العراق لعباس العزاوى المحامى. شركة التجارة و الطباعة المحدودة ببغداد- الطبعة الأولى.

۱۱۹- العقد الفريد لابن عبد ربه (أحمد بن محمد). تحقيق أحمد أمين، و أحمد الزين، و ابراهيم الأبيارى، لجنة التأليف و الترجمة و النشر بمصر ۱۹۴۸ م.

۱۲۰- عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب، لأحمد بن على الحسنى.

منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت.

۱۲۱- عيون الأخبار لابن قتيبة (عبد اللّه بن مسلم الدينورى) نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

۱۲۲- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (موفق الدين أحمد بن القاسم). منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت ۱۹۶۵ م.

۱۲۳- الغدير للأمينى (الشيخ عبد الحسين أحمد). الطبعة الثانية.

۱۲۴- الفخرى فى الآداب السلطانية لابن الطقطقا (محمد بن على بن طباطبا). دار صادر ببيروت ۱۹۶۶ م.

۱۲۵- الفرج بعد الشدّة للقاضى التنوخى (المحسن بن أبى القاسم على بن محمد). مكتبة الخانجى بمصر، و مكتبة المثنى ببغداد ۱۹۵۵ م.

۱۲۶- الفهرست لابن النديم. تصوير مكتبة خياط ببيروت عن طبعة أوربا.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۱۶

۱۲۷- فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى (محمد بن شاكر). تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر ۱۹۵۱ م.

۱۲۸- فى ظلال القرآن لسيد قطب. دار إحياء التراث العربى ببيروت. الطبعة السابعة ۱۹۷۱ م.

۱۲۹- القاموس الإسلامى (۱- ۴) لأحمد عطية اللّه. مكتبة النهضة المصرية، ۱۹۶۳- ۱۹۷۶ م.

۱۳۰- القاموس المحيط للفيروز أبادى (محمد بن يعقوب) مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ۱۹۵۲ م.

۱۳۱- قلائد العقيان للفتح بن خاقان. مطبعة التقدم العلمية بمصر ۱۳۲۰ ه.

۱۳۲- الكامل فى التاريخ لابن الأثير الجزرى (عز الدين على ابن محمد).

المطبعة المنيرية، و مطبعة الاستقامة بمصر ۱۳۴۸- ۱۳۵۳ ه.

۱۳۳- كشف الظنون للحاج خليفة (مصطفى بن عبد اللّه) نسخة مصورة عن الأصل المطبوع باستنبول.

۱۳۴- الكشكول لبهاء الدين العاملى (محمد بن الحسين الحارثى) تحقيق طاهر أحمد الزاوى. دار إحياء الكتب العربية ۱۹۶۱ م.

۱۳۵- لؤلؤة البحرين للشيخ يوسف الطريحى. تحقيق محمد صادق بحر العلوم. مطبعة النعمان فى النجف الأشرف.

۱۳۶- لسان العرب لابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم) نشر دار صادر، و دار بيروت ببيروت ۱۹۶۸ م.

۱۳۷- مباحث عراقية ليعقوب سركيس. شركة التجارة و الطباعة المحدودة.

بغداد ۱۹۴۸- ۱۹۵۵.

۱۳۸- مجالس ثعلب (أحمد بن يحيى). تحقيق عبد السلام محمد هارون.

دار المعارف بمصر ۱۹۶۰ م.

۱۳۹- المجالس السنية للسيد محسن الأمين العاملى. مطبعة النعمان فى النجف الأشرف.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۱۷

۱۴۰- مجمع البحرين للطريحى (فخر الدين بن الشيخ محمد على). تحقيق أحمد على الحسينى. مطبعة الآداب فى النجف الأشرف.

۱۴۱- مختار الصحاح لمحمد بن أبى بكر الرازى. مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ۱۹۵۰ م.

۱۴۲- مرآة الجنان لليافعى (عبد اللّه بن أسعد بن على) مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ببيروت ۱۹۷۰ م.

۱۴۳- مراصد الاطلاع لصفى الدين بن عبد الحق البغدادى. تحقيق على محمد البجاوى. مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر ۱۹۵۴ م.

۱۴۴- مروج الذهب للمسعودى (على بن الحسين). تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر ۱۹۶۴- ۱۹۶۵ (الطبعة الرابعة).

۱۴۵- مصارع العشاق لأبى محمد جعفر بن أحمد السراج. طبع دار صادر ببيروت ۱۹۵۸ م.

۱۴۶- المصباح المنير لأحمد بن محمد المقرى الفيومى. تصحيح مصطفى السقا. مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ۱۹۵۰ م.

۱۴۷- معاهد التنصيص للعباسى (عبد الرحيم بن عبد الرحمن) المطبعة البهية بمصر ۱۳۱۶ ه.

۱۴۸- معجم الأدباء لياقوت الحموى. تحقيق أحمد فريد الرفاعى. من منشورات دار المأمون بمصر.

۱۴۹- معجم ألفاظ القرآن. الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر. الطبعة الثانية ۱۹۷۰ م.

۱۵۰- معجم البلدان لياقوت الحموى. نسخة مصورة فى إيران عن طبعة أوربا ۱۸۶۹ م.

۱۵۱- المعجم الزوولوجى لمحمد كاظم الملكى. مطبعة النعمان فى النجف الأشرف.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۱۸

۱۵۲- معجم الشعراء للمرزبانى (محمد بن عمران بن موسى) تحقيق عبد الستار أحمد فراج. دار إحياء الكتب العربية بمصر ۱۳۷۹ ه.

۱۵۳- معجم ما استعجم لأبى عبيد البكرى. تحقيق مصطفى السقا. لجنة التأليف و الترجمة و النشر بمصر ۱۹۴۹ م.

۱۵۴- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة. مطبعة الترقى بدمشق ۱۹۶۱.

۱۵۵- معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا. دار مكتبة الحياة ببيروت ۱۹۵۸- ۱۹۶۰ م.

۱۵۶- معجم المطبوعات العربية و المعربة ليوسف اليان سركيس مطبعة سركيس بمصر سنة ۱۹۲۸ م.

۱۵۷- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس. تحقيق عبد السلام محمد هارون. دار إحياء الكتب العربية بمصر الطبعة الأولى.

۱۵۸- المغرب فى حلى المغرب لعلى بن موسى بن سعيد. تحقيق شوقى ضيف. دار المعارف بمصر ۱۹۶۴ م.

۱۵۹- مغنى اللبيب لابن هشام (عبد اللّه بن يوسف الأنصارى) تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

۱۶۰- مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى (على بن الحسين) تحقيق السيد أحمد صقر. دار إحياء الكتب العربية بمصر ۱۹۴۹ م.

۱۶۱- مقامات الحريرى (القاسم بن على) شرح الشريشى (أحمد بن عبد المؤمن). نشر عبد الحميد أحمد حنفى بمصر. الطبعة الأولى.

۱۶۲- المناقب لابن شهر اشوب (رشيد الدين محمد بن على). المطبعة العلمية بقم. إيران.

۱۶۳- ميزان الاعتدال للذهبى (محمد بن أحمد) تحقيق على محمد البجاوى. مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر ۱۹۶۳ م.

۱۶۴- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة لابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف). نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۱۹

۱۶۵- نزهة الألباء فى طبقات الأدباء لعبد الرحمن بن محمد الأنبارى. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. دار نهضة مصر ۱۹۶۷ م.

۱۶۶- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى- تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر ببيروت ۱۹۶۸ م.

۱۶۷- نفحة الريحانة و رشحة طلاء الحانة للمحبى (محمد أمين بن فضل اللّه.

تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو). مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر ۱۹۶۷ م.

۱۶۸- نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى (أحمد بن عبد الوهاب). دار الكتب المصرية.

۱۶۹- النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير الجزرى (مجد الدين المبارك بن محمد). تحقيق طاهر أحمد الزاوى، و محمود محمد الطناحى.

مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر ۱۹۶۳ م.

۱۷۰- نوادر المخطوطات جمع و تحقيق عبد السلام محمد هارون لجنة التأليف و الترجمة و النشر بمصر ۱۹۵۱ م.

۱۷۱- هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادى. نسخة مصورة عن الأصل المطبوع فى المطبعة البهية بالأستانة ۱۹۵۵ م.

۱۷۲- الوافى بالوفيات للصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك) (۱- ۴) مصور فى إيران، منشورات جهان.

۱۷۳- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان لابن خلكان (أحمد ابن محمد).

تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر ۱۹۴۸ م.

۱۷۴- وقعة صفين لنصر بن مزاحم. تحقيق عبد السلام محمد هارون.

مطبعة المدنى بمصر ۱۳۸۲ ه.

۱۷۵- يتيمة الدهر للثعالبى (عبد الملك بن محمد). تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر ۱۹۵۶ م.

رحلة ابن معصوم المدنى، ص: ۳۲۰

فهرس الكتاب

ترجمة المؤلف فى سطور ۵

التعريف بالمخطوطات المعتمدة فى التحقيق ۹

مقدّمة المؤلف ۱۳
رحلة سلوة الغريب و أسوة الأريب ۱۶
ذكر نسب المولى المذكور ۱۸۷
مراجع التحقيق ۳۰۵

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).
قالَ الإمامُ علىّ ُبنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).
مؤسّس مُجتمَع "القائميّة "الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.
مركز "القائميّة "للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...
الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...
– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.
– من الأنشطة الواسعة للمركز:
الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة
ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول
ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...
د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ
ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة
و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)
ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS
ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد

جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹